لستُ عاجزة

رواية

حنان عبد الرحمن

دار المصري الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

أوراق محطمة...

لكم أحبك أيها الرحيل ..لا أعرف لِمَ؟!..بداخلي شعور غريب يسألني الرحيل..أريد أن أترك ورائي كل ما أملك..أن أتجرد من كل شيء يربطني بذاتي.. ينتابني إحساس بأني أرغب في أن أمضي في طريق بلا أسوار.. طريق خال من كل ما يثقلني.. لا أريد أن أحمل في يدي حقيبة سفري.. سأصنع رداء من مشاعري.. ولن أرى بعيني إلا ما أريد لعيني أن تراه.. وبعدها فليكن ما يكون..

ما أجمل هذا التحدي!

عندما أعاند كل ما يعترضني.. يجتاحني شعور بالرضا.. فقط لأني حطمت كل قيودي.. وحلقت هناك بعيدا..

هذه أفكاري و أنا أعبر طريقي إلى حيث أعمل.. فعملي هو وحده من يمكنه أن يتحكم في.. وله فقط أسلمت أمري.. وكأني مسلوبة الإرادة.. طوعت له كل مبادئي.. ربما لأنني به أحقق ذاتي.. فهو كياني ورأسمالي.. كل ما أتمناه وأنشده لا يكون له وجود إلا من خلال عملي.. كما أني أجد في عملي منتهى لذتي..

فأنا أعمل كاتبة صحفية في جريدة آفاق.. أكتب مقالات عن الأحداث المتداولة في الساحة.. كما أكتب في مجال الأدب.. أعبر فيه عن قيمي وغاياتي.. ليقرأها من يشبهني.. وعلمت من ردودهم على كتاباتي أنهم قليلون.. ولا يعنيني الأمر.. أن نكون فئة قليلة.. هذا من دواعي فخري و اعتزازي.. وإني حقا لمدينة لصندوق بريد الجريدة الذي يمنحني كلمات القراء.. فأتعرف على قيمهم التي كدت أظن أنها ما عادت موجودة في زماننا..

ربما أنها موجودة في مكان ما.. لا يهم أن نلتقي.. يكفي تواصل أرواحنا الشفافة.. هؤلاء هم من يعطونني الأمل في مقاومة اليأس الذي ينتابني.. فبهم

أرتقي.. ولأجلهم أتمسك بقيمي.. منحوني شعورا لا يقدر بثمن.. فأن أجد من ينتظرني على لهفة.. ليقرأ ما يخطه قلمي.. هو ما جعلني أن أصابر من أجلهم.. فلدي إيمان بأن القارئ يرتبط بكاتبه بشكل ما.. هناك دائما رابطة تجمعهما في سلسلة من القيم.. و إن اختلفنا قليلا.. ولكن ربما من الاختلاف ينضج الكاتب والقارئ سويا..

عندما دخلت إلى مكتبي المشترك بين زملائي في الجريدة.. و في اللحظة التي عبرت فيها باب حجرة المكتب في واجهة الطاولة المكتنزة التي تحمل آنية الزهور.. وقعت الآنية وتحطمت.. وتناثرت المياه على الأرضية.. شعرت بضيق رغم أني أكره التشاؤم.. ولكي أطرد هذا الإحساس الذي غلبني قلت في نفسي: لعله خير..

جاء عم رضا وهو يتمتم: ما الذي جرى؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله.. فداك أستاذة رحاب..

نظرت إليه لأقول له: لست أنا من أوقعت آنية الزهور..

ولكنه لم يلتفت لي.. وظل منشغلا بتنظيف المكان..

ألقيت التحية على زملائي وزميلاتي في المكتب.. كان الكل منشغلا لدرجة أن ردهم كان بالكاد.. نظرت إليهم في سخرية.. وقلت في نفسي: إلى هذه الدرجة هم منشغلون حتى عن رد التحية؟!

و من هنا طرأت لي فكرة مقالي الحالي.. و إن كان لها خلفيتها التي تكونت سابقا في أفكاري.. فقد اعتدت أن أكتب مقالات عن بعض المعاني التي غابت عنا.. نشرت منها.. واحتفظت ببعضها.. وظل العديد منها معلقا بفكري..

استرحت على مقعدي.. و أخرجت أوراقي التي ظلت طيلة الليل حبيسة درجها.. وألقيت عليها تحيتي.. وتناولت قلمي المفضل من مقلمتي الخشبية.. وبدأنا سويا نبوح بما في صدورنا.. وبعد أن انتهيت من كتابتي شعرت براحة.. فقد أفرغت مكنوناتي التي ظلت راقدة في أعماقي.. لا يعرف بها سوى الله..

الآن ستخرج إلى النور بعد فترة غياب.. ستشعر بالأنس بين عقول قارئيها.. وما كان يقرأها إلا عقلي.. كلما تأزمت من موقف ما..

ترى: عن أي شيء تحدثت في أوراقي؟ لم يكن بالأمر الخطير.. كتبت عن

غياب المعاني في زحام السطور.. عندما يتصارع البشر لأجل البقاء.. و كأننا في غابة يملكها من يستطيع أن يسود فيها.. و إن كان الثمن أن يسحق غيره دون أن يبالي.. أو يشعر بالأسف.. تجردت الإنسانية من مشاعرها.. و فقدت الأحاسيس دفئها.. و تبلدت بيننا العلاقات الودية.. انشغلنا في حياتنا بالمادية.. و تخلينا عن العواطف العفوية.. فأصبحت الحياة لونا واحدا نختاره وفقا لظروفنا.. و نسينا أن ننظر إلى الشمس.. لنرى خيوط الألوان الممتزجة.. التي تبهج النفس.. و تبهر العين بصفائها.. لنلتقي منها مع كل يوم لونا يعطر أوقاتنا العصيبة..

أصبحت لا أرى إلا لونا واحدا.. هو لون التلوي من أجل الوصول إلى ما نريده.. أصبح للجسد البشري القدرة على تغيير جلده.. والتشكل بأشكال مختلفة على حسب الموقف الذي يقفه: من الذي أجبره على ذلك؟! أهي الروح الخبيثة بداخله؟! أم مكر الشيطان الذي وقع فريسته؟!

لقد انتهيت من مقالي.. لعله يعجب أستاذ منير..

نهضت من مقعدي.. وسرت إلى مكتب رئيسي في العمل.. أستاذ منير توفيق..

لكم أحب هذا المكتب الكلاسيكي الجذاب بألوانه الداكنة.. وتصميماته الهادئة.. إنه بمثابة حياة.. عندما تدخله تشعر بأنك انتقلت عبر الزمن.. لتعود إلى الوراء في رحلة إلى الزمن الجميل.. الزمن المفقود في وقتنا..

دائما ما كنت أحب أن أجلس إلى أستاذ منير في مكتبه.. وأتناول معه قهوتي.. أحدثه في مقالاتي واهتماماتي.. ودائما ما كان ينصت لي باهتمام.. فبيننا شيء مشترك.. روحه جميلة.. حديثه الجذاب.. وإيمانه بأحرفه.. و أكثر ما كنا نتحدث فيه هو الفساد الخلقي الذي يمكنه أن يدمر حياة أفراد بكاملها.. وحياة مجتمع.. وحياة أمة..

تحاورنا ما يقرب من ساعة حول مقالتي.. و رغم اقتناعه بكل سطر كتبته إلا أنه عارض نشره.. و عندما سألته عن السبب قال لي:

. موضوعاتك لا تحقق الفائدة المرجوة لنشر الجريدة..

- أي فائدة تقصد أستاذي الفاضل؟!

. أنت تعلمين أن الهدف الأساسي لجريدتنا تحقيق أكبر عدد ممكن من

المبيعات..

- و الفائدة الأدبية ..!! ليس لها أي اعتبار..

. الناس لا يستهويها مثل هذه المقالات.. فهم يريدون موضوعات أكثر إثارة..

- من هم.. عمن تتحدث؟!

. أتحدث عن القراء..

- و هل كل القراء ممن يهتمون بأخبار السياسة و الرياضة و الاقتصاد .. أو ممن يلهثون وراء فضائح الآخرين تحت ما يسمى بالقضايا الاجتماعية..

. ليس الكل طبعا.. هناك من يهتم بالآداب و لكنهم قليلون..

- و ما الضرر في أن يكون المهتمون بالأدب فئة قليلة؟! أنا أراه طبيعيا للغاية..

. لا تجادلي.. سأجعل مقالاتك موضع اهتمام إلى أن تتاح الفرصة و أنشرها لك..

- إذن ستكون مقالاتي مجرد كمالة عدد.. إن اتسع المجال سيتم نشرها و إلا تعود إلى أدراجها..

. هذا ما يمكنني أن أقدمه لك.. عودي إلى ساحة الأخبار.. فقد حققت نجاحا.. وكنت أكثر نشاطا..

- شكرا لك أستاذي الفاضل.. و لكني سأمت الأخبار.. لا أجد نفسي في مجالها.. ربما كنت مخطئة عندما اتجهت إليها.. فأنا مكاني في الآداب.. و دراستي أدبية..

- لا تنسي فضل الجريدة عليك.. لقد منحتك اسم من ذهب.. ينتظره القراء.. وكأنهم على موعد معك..

- لا يمكنني أن أنسى.. إنه مكاني وأنا أنتمي إليه.. ولكنه مكان مجدب مقفر..

- كيف وهو يقدم الكثير.. ألا يمكنك أن تلمسي هذا؟!

- إن ما يقدمه في نظري هو شيء سطحي.. يشبه ما يقدمه الآخرون..

- إننا نطرح العديد من الموضوعات التي تهم القارئ.. وتجذب انتباهه..

- نعرضها بشكل غير مجدي له.. مجرد حبر على أوراق...

- هذا دورنا أن نسلط الضوء على القضية لنوقظ الغفلة فينا..

- وهل أيقظناها؟!

- أعتقد ذلك.. وعلى العموم نحن لا نملك إلا أن نعرض الأمر على الجمهور.. وهم يقررون.. لا يمكننا أن نفرض عليهم شيئا..

- لكننا لا نثري القضية بما يدعمها.. إنها لا تأخذ وقتها.. وقبل أن ننتهي منها.. ننتقل إلى أخرى.. لنترك السابقة معلقة.. وهكذا..

- لا تشككي في مصداقية جريدتنا.. وإلا ماذا يتبقى لنا..

- لا أشكك.. لأني أعمل فيها.. وأعرفها جيدا.. ولو لدي شك ما استمريت فيها.. ولكني أراها لا تختلف عن غيرها.. أريد لها التميز..

- أنا أفكر في الأمر منذ وقت.. وسأعقد اجتماعا لنرى ماذا يمكننا أن نقدمه من فكر جديد.. وطرح فعال.. لا يقتصر على مجرد نشر العبارات والجمل في الجريدة لتقرأ..

- لذلك سأمت الأخبار.. وجدت نفسي أمامها مجرد أداة للنقل ليس أكثر..

- وما الذي يمكنه أن يرضيك؟!

- أن أتبنى القضية حتى النهاية.. وألا أتركها معلقة قبل أن أنتقل لغيرها..

قلت له:

- هذا هو الشيء الذي أريده.. والذي فقدته في عملي.. وأصابني بخيبة أمل في نفسي.. فرجعت إلى الفلسفة والمنطق والأدب.. لأكتب مقالات عن قيم مفقودة في حياتنا.. ومازلت في خيبة الأمل نفسها حيث تنشر مقالاتي كل حين..

غيم الصمت علينا فترة..هممت أن أنصرف.. يبدو على جبيني الشعور بالضيق.. فقد تقلصت الخطوط التي تعلو حاجبي..

شعرت بالحرج الشديد في نفسي من لهجته.. وأعتقد أنه أدرك ذلك.. حاول أن يخفف عني.. فغير من نبرته على الفور.. كان يعلم مدى حساسيتي..

زال عني ضيقي.. فطبيعة الحوار هي من فرضت علينا هذه اللهجة.. كما أني احتددت عليه..

وعاد الحوار بيننا أكثر ألفة.. وأحن في عباراته..

. رجاء .. قدري موقفي.. فلابد لهذه الجريدة أن تستمر.. و تستمر بشكل جيد.. و أنت على دراية أن الاستمرار يعني النجاح..

صمت لحظة ثم عاود حديثه:

.أقر لك بأن موضوعاتك لا يقتصر نشرها على وقت معين.. و لكن مجالها مفتوح.. و لذلك أرى أنه لا بأس من أن تنتظر قليلا..

- أعلم أنه سيأتي الوقت الذي تجد فيه مقالاتي صداها في عالم القراء.. أذكرك أن المادية طغت على حياتنا.. و افتقادنا لمعان أصيلة غربتنا عن أنفسنا دعوة للقارئ ليبحث عن الكلمات التي تعيد إليه ما غاب عنه.. و أهملنا وجوده..

.طالما أنك تؤمنين بهذا.. فأؤكد لك من خلال خبرتي أنه في وقت ما ستحقق مقالاتك الهدف المنشود.. و عندها لن أتخلى عنك.. سأساندك بكل ما أملك و أدعمك.. و سوف ترين..

عاودتني ثقتي بنفسي بعد أن كدت أفقدها و قلت له و أنا على يقين:

- نعم سيدي الفاضل.. لدي إيمان بأني سأمحو آلام الكثير بكتاباتي.. شكرا لك مرة أخرى.. و أعتذر أني أثقلت عليك..

.لا تعتذري.. فأنت تعلمين مكانتك عندي.. و دائما أنا هنا من أجلك..

عدت إلى مكتبي ألملم أذيال خيبتي.. و أثناء مروري لاحظت نظرات زملائي لي.. بعضهم من يشمت.. و البعض يشفق.. و إني لأمقت أن يشفق علي أحد.. علمت بحالهم دون أن ألتفت إليهم.. فأنا أعرفهم جيدا.. و سبق لي أن درست أخلاقهم.. ليس عن قصد.. و لكن المواقف التي مررنا بها سويا كشفت لي عن نواياهم.. و عرفت الصديق الحقيقي من الزائف الوقتي..

اندفعت إلى مكتبي أحس بشيء من الإحباط.. فإن كان ما أكتب ليس له قيمة.. فأين نجد القيمة؟!

في تلك المقالات التي لا تهدف إلا لإثارة مشاعر الناس إلى العيوب و المساوئ لمجرد أنها تجذب الانتباه و تحقق الربح.. و لكن .. هل صداها يبقى و يعيش ؟! أم أنها تنتهي بانتهاء يومها؟! و يكون مكانها سلة المهملات عندما تلقى الجريدة بعد قراءتها كما هو معتاد.. أو تنسى في مكان ما مهمل من المنزل حتى يعلوها التراب.. فيصفر ورقها.. و يبهت حبرها.. و تتلاشى أحرفها..

القيمة ليست مجرد حبر على ورق يباع كل يوم.. و لكن وجودها يدوم بدوام تأثيرها في النفوس.. فتظل محفوظة في القلوب لتعطي نتائجها بين الحين و الآخر..

لست عاجزة...

أخرجت من بين الأوراق التي حملتها إلى الأستاذ منير توفيق مقالة أدبية بعنوان : من له أن يسلبني حقي في الحياة.. لم تكن لي ولكنها كانت لأختي هند..

هند تكبرني بسبعة أعوام.. عندما كانت في الخامسة من عمرها.. أصيبت بحمى شديدة.. أثرت على حركة رجليها.. و منذ ذلك الوقت فقدت قدرتها على الحركة.. إلا حركة خفيفة تعطيها الأمل بين الحين و الآخر.. و ظلت قعيدة كرسي متحرك.. من وقتها أغلقت على نفسها.. و رفضت الخروج إلى الحياة.. عذبتنا كثيرا بانطوائها.. و انغلاقها على نفسها.. و رغم محنتها إلا أنها ظلت في دراستها إلى أن حصلت على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية..

اطلاعها في الآداب خاصة العالمية المترجمة.. أكسبها مهارة في صياغة مقالات أدبية.. كتبت عدة مقالات في الأدب لم يقرأها سوى أنا وهى.. احتفظت بها في مذكرة خاصة بها.. تعود إليها كلما أرادت..

كانت ترى في كتاباتها الحياة التي حرمت منها منذ صغرها.. لم تعش فترة مراهقتها كأي فتاة عادية.. و عندما التحقت بالجامعة ما كانت تذهب إلا في فترة الامتحان..

بعد تخرجها لم يكن الحصول على عمل بالأمر الهين.. لهذا فكرت في أن أنشر لها مقالاتها في الجريدة التي أعمل بها.. فهي موهوبة و مقالاتها هادفة..

عرضت عليها الأمر.. ورحبت به.. ولكني لم أستطع أن ألبي لها رغبتها.. لم يكن في مقدوري أن أدخل السرور إلى قلبها.. و أحقق رجاءها..

لا أدري كيف أواجهها بالأمر.. من المؤكد أنها ستحزن.. لا أريد أن أزيد من همها.. فيكفي ما عانته طيلة عمرها من حرمان.. ولكن من يفهم.. من يهمه

الأمر.. هي مجرد فتاة قعيدة من يهتم لشأنها..

هل أعود إلى الأستاذ منير.. ربما يتعاطف معها؟! ولكني أكره هذا.. لا أحب أن أستعطف أحدا.. إنه ضد مبادئي.. ولِمَ أتذلل؟! .. لأجلها .. ولكن .. كرامتي تأبى أن تفعل هذا..

قررت أن أخرج من مكتبي.. و أذهب إليها.. فقد عودتني هي بحكمتها أن أناقشها في كل ما يخصني قبل أن أتخذ قرارا ما..

دائما ما أشعر براحتي كلما تحدثت إليها.. و كأني أكلم نفسي.. لديها من الفطنة ما يجعلني أعود إليها في كل أموري..

لم يكن البيت الذي أسكن فيه بعيدا عن الجريدة التي أعمل بها.. كنت أمشي مثقلة الخطى.. أرغب في ألا أصل.. أفكر كيف أقول لها الأمر دون أن أجرحها.. أو أتسبب لها في ألم يضاف إلى آلامها..

ما أقسى إحساسي بالعجز! ليتني ما اقترحت عليها الأمر.. ما كنت أقف موقفي هذا.. حاولت أن أسعدها بأعمالها.. ولكن سوء الحظ نال مني..

و صلت إلى البيت.. و قفت لحظات أمام باب الشقة.. أنظر إلى الأتربة المتلاصقة في جوانبه.. أمسحها بإصبعي ثم أنفخها في الهواء.. كدت أن أتراجع.. وأعود من حيث أتيت.. ولكني قررت أن أواجه مهما كان في هذا من قسوة..

طرقت الباب طرقتي المعهودة المضطربة.. سمعت صوتها آتيا من الداخل.. تغلفه نبرة تفاؤل و أمل:

- انتظري رحاب.. أنا قادمة..

كانت في غرفتها.. تراجع مقالاتها استعدادا لنشرها في الجريدة.. استقبلتني بابتسامة متلهفة.. حاولت أن أتكلف ابتسامتي.. وكان هذا واضحا.. لقد قرأت ما أردت أن أقوله دون أن أتفوه به.. فدائما ما كانت تقرأ أفكاري.. و تشعر بما يدور بداخلي.. و تبدي ملاحظتها على أحوالي المتقلبة دون أن أسألها..

تراجعت إلى الوراء في صمت.. و مازالت بسمتها تعلو خديها رغم تغير معالمها.. فبعد أن كانت تشوقا لسماع خبر سار انقلبت إلى بسمة خائبة..

حاولت أن أتجاوز الأمر فقلت لها:

- مساء الخير هند..

- أهلا رحاب اشتقت إليك..

كنت معتادة عندما ألقي عليها تحيتي أن أعانقها.. و أقبلها.. ولكني لم أجرؤ أن أفعل هذه المرة..

جذبتني من يدي.. و أجلستني على كرسي.. و جاورتني في الجلوس.. و قالت بصوت ضعيف:

. ما بك حبيبتي رحاب.. أتمنى أن تكون أمورك على ما يرام..

- ليس كما خططت لها للأسف ... أعتذر إليك.. فأنا في غاية الخجل منك..

. لا عليك .. عزيزتي..

ألا يكفي أننا معا؟! وهل هناك ما يساوي تواجدنا معا؟

كل شيء يهون.. ولكني لا أطيق أن أرى وجهك عابثا هكذا..

- تمنيت أن أقدم لك شيئا تحبينه.. يعبر عن مدى امتناني لك.. و ردا لجميلك.. و عنايتك بي..

. كيف تقولين هذا؟! أي جميل تتحدثين عنه؟!

أنت أختي.. و لك حق علي.. كما أني أحتاج إليك.. فوجودك في حياتي أعطاني الأمان.. و انتشلني من وحدتي.. في عنايتي بك ما يريحني.. و يجعلني أحس أن لحياتي قيمة و غاية لابد أن أعيش لأجلها.. لولاك ما كان لوجودي معنى.. فما أجمل أن يحيا الإنسان من أجل هدف يسعى إلى تحقيقه! و كان هدفي أن أحقق حياة كريمة لي و لك حتى لا تفتقدين إلى الدفء الأسري.. أو تسعين لإيجاده في مكان آخر غير بيتنا.. و مادمت نجحت في هذا.. فهو بالنسبة لي أفضل بكثير من أي شيء آخر..

- نجحت.. نعم نجحت.. بكل تأكيد نجحت.. و دليلي أني أحبك.. و أعتبرك مثلي الأعلى..

أمسكت هند بيدي.. و ضغطت عليها ضغطة تنم عن الشكر و الفرحة.. عبرت عن إحساسها بشيء من الخجل.. فقد امتلأت عيناها دموعا.. و نزلت على خدها الأيسر دمعة.. و جاهدت في حبس فيضها..

يا لفرط حساسيتها.. علمت الآن من أين لي بكل هذه الحساسية المفرطة التي أخبئها في أعماقي.. و التي تثيرني لأقل شيء يمر بي..

فهند مصدر إلهامي.. ومصدر حساسيتي.. منها اكتسبت المشاعر الجميلة.. والقيم النبيلة..

فما لقلمي أن ينطق إلا ما تعلمه منها.. كم أنا فخورة بهذه الأخت الصافية..

سادت بيننا فترة صمت .. كان صمت عرفان بالجميل المتبادل..

عاودت حديثي قائلة:

- عندما كنت أكتب مقالا عن الأحداث اليومية.. وجدت ترحيبا لنشر مقالاتي.. و في كل مرة أكتب موضوعا في الآداب أو الفلسفة إما أن ينشر بصعوبة أو أنه يلاقي إعراضا..

ردت هند بصوت اختنق في حلقه قائلة:

. لو كان هناك عمود مخصص للأدبيات.. أو صفحة تشتمل على فروع الأدب.. لكان أفضل من التناوب بين الموضوعات..

- اقتراح رائع هند.. ربما أعرض الأمر على الأستاذ منير.. لعله يرضى..

- أنت عبقرية يا هند..

. لا تبالغي في تدليلي.. ما قلت شيئا يستحق الثناء.. مجرد فكرة طرأت على بالي.. قد تستحق وربما لا..

- بالفعل هي تستحق.. أعتقد أن الجريدة تحتاج إلى إعادة تنسيق.. هناك بعض الأقسام التي تطغى على الأخرى بلا مبرر مقبول.. و بعض الأقسام الفرعية قد تكون أفضل بكثير من غيرها.. و لكنها لا تأخذ حقها في العرض.. كما أننا نعطي مساحة واسعة للإعلانات في كل الصفحات..

- ما توقعت أن تتقبلي الأمر بهذه البساطة.. ظننت أنه سيشق عليك.. ما حزنت لأجلي.. فأنا معتادة على مثل هذه الأمور في العمل.. و لكني خشيت أن تعرضي عن الحياة مرة أخرى بعد أن تصالحت معها..

. لا تخافي أبدا.. فقد خرجت من محنتي بشيء غال.. لا يقدر بثمن.. و لا يستطيع إنسان أن يدركه كما أدركته أنا.. لقد منحني الله الصبر الذي به أتغلب على كل عقباتي.. ولولا لطف الله بي لانهرت.. وما كتبت.. ولا واصلت الكتابة..

في فترة ما من حياتي.. غلبني اليأس.. و سيطرت علي فكرة الموت.. كانت بالنسبة لي الحل الوحيد لأهرب من قسوة أيامي.. لأسحق عجزي.. و أتخلص

منه.. و أنجو بنفسي من وضعي الذي جلبته لي الأقدار..

ضعفت .. بكيت .. و ما استطعت .. وكنت في حالة لا يمكن لك أن تتخيلها.. شعرت بالاختناق الشديد.. كان جسدي يرتجف.. و كاد النفس أن يتوقف مع شدة بكائي.. و دون أن أدري وجدتني أهذي:

يارب ارحمني من هذا العذاب..

أين رحمتك يارب؟

أي ذنب لي لأعاني هكذا؟

لِمَ اختارتني الحياة و تركت الآخرين؟

إن لم ترحمني أنت .. فأين أجد الرحمة؟

في قلوب البشر التي كبلتها أنانيتها.. و فقدت إحساسها بالغير.. أم بين أحضان الثرى عندما أدفن جسدا بلا روح لعلّ التراب يحنو علي..

خرجت مسرعة إلى الشرفة.. تنهمر من عيني دموعي.. نظرت إلى السماء.. و ظللت أقول بهمس مسموع: يارب ارحمني.. و أردد: يارب رحمتك..

رأيت نورا شق السحب و خرج من بينها.. فأصاب قلبي.. و معه شعرت بارتياح غريب.. و جفت دموعي.. و مازالت عيناي شاخصتان إلى السماء أتعجب..

رغم أن الجو كان صيفيا إلا أني انتبهت إلى الغيوم الملبدة في السماء بلونها الرمادي القاتم.. كما أثارني هبوب ريح هاجت معها أتربة الأرض.. و اختلط نقاء الهواء بحبات التراب المتطايرة..

شعرت و كأن الكون تغير لأجلي.. و ما استطاعت الأجواء تحمل دعائي العليل..

أحسست و كأن يد الله مسحت عني هذه الأعباء التي صارعتها في تلك الليلة.. و منذ ذاك الحين تبدل حالي من الضعف و الاستسلام إلى الرغبة في الحياة..

حياة تشبه الأخريات.. فما الذي ينقصني .. قدمان؟!

الحمد لله أني لم أفقد عقلي.. فالعجز لا يكون بفقد عضو من أعضاء جسدي.. و لكنه في عدم قدرتي على أن أكون ما أريد.. و لا يوجد مانع يحول

دون تحقيق رغباتي..

فأنا أمتلك عقلا و إرادة.. و هبني الله ملكة التعبير.. أليس في هذا عزائي؟ . . . عوضني بما قد لا يكون لغيري..

لِمَ لا أسخر موهبتي لأشعر بكينونتي؟ و بدأت أقرأ.. و أجد متعتي في اطلاعي.. و أكتب.. و كلما كتبت أحسست كم هي جميلة نعم الله علينا.. و لكن لكي نقدر هذه النعم.. علينا أن نستشعر مدى تأثيرها على حياتنا..

. فوضي أمرك إلى الله كما فعلت أنا.. و لا تكترثي لهمومك.. و اعلمي أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك.. هذه هي فلسفتي في الحياة..

تركتني هند حائرة.. كنت منذ ساعات أفكر كيف أطيب خاطرها.. و ها هي الآن تبدو أكثر تماسكا مني.. استطاعت أن تهون علي حدة انفعالي..

سبحان الله! من أين لها بهذا الرضا؟!

ربما أن المحنة التي عايشتها صنعت منها نفسا متمردة.. ترفض أن تخضع أسيرة معاناتها.. و تبحث عن خلاصها في عمل يحقق لها ذاتها.. و يعيد إليها وئامها..

أما نحن القادرون قد لا ينقصنا شيء.. و مع هذا نقف عاجزين أمام أبسط أزماتنا.. و لا نملك معها إلا السخط ..

لو أني أملك القناعة الكافية و الرضا الذاتي بنصيبي لكان الموقف أهون في نظري.. و ما انفعلت إلى هذه الدرجة و الموقف لا يستدعي..

فما الضرر في أن تتأخر مقالاتي إلى وقتها؟ لماذا لم أنظر إلى الأمر من زاوية أخرى؟

ربما هناك ما هو أهم و أولى بالنشر خاصة إن كان يرتبط بوقت ما.. أما مقالاتي فممدودة الأجل..

لِمَ لا أتنازل بعض الشيء لأجل غيري؟

أليس هذا هو الإيثار الذي تحدثت عنه في إحدى مقالاتي.. أين أنا منه؟!

إيماني و شقائي...

لقد تعلّقت بك أيتها المرآة.. مرآتي المستديرة التي يعلوها نقوش ذهبية مفرغة.. وكأن هذه النقوش تمثل قطعا من حياتي.. يبدو في ظاهرها الكمال.. وفي جوهرها جوفاء.. لا يلمس جفاءها سواي..

كلما نظرت في مرآتي وجدت ظلالا مترامية من حياتي.. تظهر متمثلة من ورائي.. تنظر إلي عبر مرآتي في صمت وعتاب تلومني..

كنت أخشى هذا الشبح المتجسد في مرآتي.. و لأني امرأة مؤمنة تقدس تعاليم الإنجيل.. و تجد فيه الخلاص.. علقت أعلى مرآتي بروازا نقشت عليه هذه الآية:

تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين و الثقيلي الأحمال و أنا أريحكم.. احملوا نيري عليكم و تعلموا مني.. لأني وديع و متواضع القلب.. فتجدوا راحة لنفوسكم.. لأن نيري هين و حملي خفيف..

و على يسار مرآتي وضعت سلسلتي الذهبية.. تحمل صليبا صغيرا عليه صورة المسيح.. مستسلما لآلامه.. سلسة أهداني إياها زوجي منير في ليلة زواجنا لتمنحنا الحياة الأبدية..

كنت سعيدة للغاية بها.. و اعتبرتها هدية من الله و ليست من زوجي.. لهذا اعتنيت بها عناية خاصة دون باقي قطعي الذهبية.. قدستها إلى درجة أني لم أستطع أن أضعها و لو لمرة حول عنقي.. جعلتها أمام عيني حرصا على ألا يتشوه جمالها أو تفقد بريقها..

هناك شيء ما مفقود في حياتي.. لا أدري ما هو.. ما أشعر به أن إيماني أحال بيني و بين الآخرين..

فمعروف عني أني أقرب إلى القديسة.. حتى أن البعض ممن يعرفونني عن قرب تعجبوا لأمري.. كيف أكون على هذا القدر من الإيمان.. و لم أفكر في الالتحاق بالدير.. لكي أهب نفسي للرب!؟! .. أنا نفسي لا أدري.. كل ما أدركه أني لم أفكر في الأمر أبدا..

ربما لأني نشأت في أسرة متدينة.. حريصة على العلاقات الأسرية التي تربط بين أفرادها.. ترى في أسرتها الصغيرة التي تحافظ على مبادئ دينها الحياة المثلى للحياة المسيحية المنشودة..

تربيت على أن تقديسي لزوجي.. وعنايتي بأولادي.. ومحافظتي على استقرار زواجي هدفا مقدسا..

كما أني لم أحرص على الزواج من رجل دين من رجال الكنيسة.. كنت أرغب في رجل مثل أبي.. رجل صالح.. يراقب الله في تصرفاته.. ويسعى لإسعاد أسرته البسيطة.. و لو بكلمة أو ابتسامة.. و يجد في هذا غاية إيمانه.. يحافظ على صلواته.. و لا يعرف شيئا من هفوات الرجال عندما يتجاوزون سن الأربعين..

في لقائي الأول بزوجي منير قبل خطبتنا.. دارت بيننا جلسة تعارف.. جمعت الأسرتين.. تبادلنا فيها الحديث الخلوق.. لمحت فيه ما يشبه أبي.. لم يكن بالرجل الكاهن.. كان مؤمنا.. و إيمانه بسيط و لكنه عميق.. لمست فيه صدق الحديث.. وبعدها بفترة لا بأس بها تمت خطبتنا.. وأقمنا نصف إكليل بالكنيسة الإنجيلية التي أنتمي إليها.. أما منير فكان ينتمي إلى طائفة الأرثوذكس.. وبعد ما يقرب من ثلاثة أشهر كان زواجنا..

كان زوجي منير يملك حسا مرهفا.. يكتب قصائد شعرية.. و ينشرها في جريدة آفاق.. فهو رئيس تحرير الجريدة.. اختلفت طبيعتنا بعض الشيء.. فأنا لا أقرأ إلا في الكتب المقدسة.. و القليل من الفلسفة.. و أرى أن أي قراءة أخرى غير مجدية لحياتي.. أما هو فكان يهوى الاطلاع في الآداب.. هذا إلى جانب الأخبار الاجتماعية و السياسية و الرياضية.. و أخبار الساحة التي تفرضها عليه طبيعة عمله في الجريدة..

بعد زواجنا كانت حياتنا أشبه بحياة الرهبان في الأديرة إلا القليل من متاع الدنيا و زخرفها.. و كانت لي الكلمة السائدة في حياتنا.. حتى عندما أنجبنا

طفلينا باسم و باسمة وقع اختيار اسميهما علي.. أردت لأطفالي حياة دينية كاملة.. و حرصت على تنشئتهم تنشئة دينية عميقة في شكلها و مضمونها.. لذا ألحقتهم بـ(كورال) الكنيسة الذي يقام يوم الأحد..

كانت حياتنا الخاصة متحفظة.. حرصا مني على نقائها.. بحيث لا ندنو بأنفسنا إلى شهوات النفس.. و تطغى علينا أهواءنا.. حتى أني جعلت لها وقتا محددا على فترات متباعدة.. و بمرور الوقت.. و نظرا لانشغالي بأمور المنزل.. و عملي كـ (مبشرة) تباعدت الفترات بيننا..

ورغم أنه كان يحملنا سريرواحد إلا أني عزمت على الأمر.. وكنت صارمة في قراري.. و طبعا ما راق هذا لزوجي.. فهو لم يكن مثلي في تحفظي..

كان بشرا عاديا.. لا يختلف عن الآخرين.. إيمانه راسخ.. و لكنه يمارس الطقوس الحياتية المألوفة بين أي زوجين..

حاول مرارا أن يناقشني في قراري.. و أنه أمر مشترك بيننا.. لا يصح لأحدنا أن يفرض رأيه.. ولكني ما كنت أسمع.. تعودت ألا أتنازل عن قراريخص مبادئ إيماني تحت أي مبرر..

أراد أن يخبرني أن ما بيننا وليد اللحظة.. و ليس مجرد عملية تخضع لوقت.. و حساب و ما كنت أصغي.. و يبدو أن تمسكي بإيماني كان هو الحاجز الذي باعد بيننا..

و بمرور الأيام قال لي زوجي:

. مادام أن إيماني لا يرقى لإيمانك.. فالأولى أن ينام كل واحد منا في غرفة مستقلة.. فهذا أفضل لقداستك..

صدمتني كلماته.. لم أتوقعها منه.. و استاءتني لهجة السخرية التي خاطبني بها..

صمت للحظات أحس بشيء يؤذي كرامتي..

جاوبته و أنا أحاول أن أتماسك نفسي:

- لك ما تشاء.. ربما هو أفضل كما تقول..

. صدقا.. أول مرة تقرين لي فيها بشيء أبادرك أنا به..

- ربما لأنه كان شيئا يدور بصدري.. و لكني تأخرت في مصارحتك به.. و ها

أنت تسبقني إليه..

.كان يدور في صدرك.. منذ متى؟!

- لا أذكر..

.لِمَ أشعر بأنك غريبة..؟! ما اعتدت منك أن تخفي شيئا عني..

- لا أخفي شيئا و لكني انتظرت الوقت المناسب.. لم أخطط للأمر.. مجرد فكرة طرأت على بالي في وقت مضى.. و طردتها لأنها لم تكن في وقتها..

أطرق رأسه إلى الأرض يقول:

.فقط لأنها لم تكن في وقتها.. لا يوجد أي شيء آخر..

وكأن شيئا ما خطر على باله أغفله سابقا..

- ماذا تعني منير؟ لا أفهم ما ترمي إليه..

.لا أبدا.. لا عليك أيتها القديسة..

- لا تنعتني قديسة.. فلست كذلك..

سادت فترة صمت بيننا ثم عاودني الحديث قائلا:

.ماذا سنقول لـ باسم و باسمة.. خاصة البنت.. تعلمين مدى حساسيتها..

- أعلم أنها تشبهك.. سأقول لها ما ينبغي أن أقوله..

.هل لاحظت عليها أي شيء غير طبيعي مؤخرا..

-لا .. لم ألاحظ شيئا.. فهي على ما يرام.. ليس بها ما يستدعي القلق..

.هل أنت واثقة من كلامك؟!

- بكل تأكيد.. ليس بها شيء يذكر..

.أرجو ألا يكون انشغالك بكيانك المقدس حجب عنك أخطاء أبنائك..

- لِمَ تحاول أن تثير القلق في نفسي.. ما بها..؟! صارحني..

. صدقيني لا أعرف.. ربما لا شيء.. أراها على غير عادتها.. فقط لاحظت تغيرها..

- ربما أنك تبالغ.. فمن طبعها الهدوء..

.فقط أحببت أن ألفت نظرك إلى أننا بشر و ليس ملائكة.. لا يعني التزامنا أنه لا يحق لنا أن نخطئ..

خرج من البيت في صمته.. و أغلق خلفه الباب بهدوئه المعتاد.. وكأنه يقول

لي في سلام: لقد انتهى ...

أقلقني أمر ابنتي.. أخذني مما داربيننا.. هل يحاول أن يهز ثقتي بما غرسته فيها فقط ليشعرني بفشلي؟!

ذهبت في تردد إلى غرفة ابني باسم لأطمئن عليه.. كان جالسا ببراءته المعهودة.. يرسم على ورقة بيضاء أسرتنا.. أثارني ما رسم.. كما أخافني..

رسم والده ينظر في استعطاف.. و رسمني أنا واقفة أمام لوحة (مريم المقدسة).. و رسم باسمة جالسة القرفصاء.. تنظر إلى أسفل.. تتشابك أصابعها..

سألته في جزع:

- ماذا تعني لك هذه الرسومات؟

فقال لي بتلقائية:

- أليس هذا هو حالنا؟

أبي دائما ودائما يسألك وأنت لا تهتمين... فأنت مشغولة دوما عنا بإيمانك الذي لا ينتهي.. وباسمة في انطوائها الدائم واغترابها عنا..

خرجت من غرفته.. أضع أصابعي على شفتي.. كيف لطفل في مثل عمره أن يفكر بهذا الشكل؟!

ودون أن أشعر وجدتني أتجه إلى غرفة ابنتي باسمة.. وكانت في ذاك الوقت في درسها الديني في الكنيسة.. مساء السبت..

جلست على مقعد مكتبها.. وأخذت أتصفح أوراقها.. فوجدتها تكتب جملة وتكررها.. كانت هذه الجملة آية من الإنجيل.. كتبت:

من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر..

شعرت بدوار.. وخرجت مسرعة إلى غرفتي مشوهة الفكر أقول في نفسي:

أي خطيئة تتحدث عنها فتاة مازالت في سن الصبا؟!

رحماك يا إلهي!

لقاء بلا موعد...

في ليلة من ليالي هاتور.. كان الجو باردا.. تتصاعد من الأفواه الأبخرة البيضاء.. ترسم على وجه السماء سحبا مثقلة بهموم البشر.. ونسمات الهواء اللاسعة تداعب خدي المتورد..

كانت الساعة لا تزال السابعة مساء.. و أنا أجوب الطرقات الفارغة من الناس إلا القليل.. شعرت بشيء من السكينة وهدوء النفس.. كنت أمشي دون أن أدري إلى أين أصل.. كل ما أحسسته أني أريد أن أخرج من منزلي.. فعندما تأملت من شرفتي أجواء الشتاء.. شعرت برغبة ملحة في أن أنزل إلى الشارع.. فغاية متعتي أن أتجول وسط الطرقات.. أشاهد التغيرات التي تطرأ على الأحياء.. وكأنها تذكرني بالأشياء التي تعترض خطوات حياتي..

فكم من معاناة مررت بها.. و كم من ابتسامة كلما تذكرت هذه المعاناة التي رحلت عني.. و لم تترك لي سوى ذكرى و ابتسامة.. قد تكون الابتسامة صافية.. خالية من شوائب علقت بها.. جراء ما مررت به.. و قد تكون مازالت في شوائبها.. ورغم ذلك أبتسم لها.. يكفي أني خرجت منها و أنا أبتسم..

ظللت أعبر من طريق إلى آخر بلا هوية.. أتأمل أبنية الشوارع.. لاح لي محل سمك الخليل الذي ينتصف شارع الكورنيش.. تفوح منه روائح الأسماك المطهوة بنكهة الخضروات.. تخترقني رائحة البخار المتصاعد من شوائها.. كم هي لذيذة! قررت أن أذهب إلى المطعم.. أتذوق قطعة من السمك المشوي.. مع طبق من الأرز الأبيض.. وكوب شاي كبير ساخن..

كنت أجلس في واجهة الزجاج الذي يكشف لي المارة في الشارع من أمامي.. أنظر إلى الناس.. أرى الأصدقاء يتشابكون.. يضحكون.. يداعبون الهمسات..

فتأبى إلا أن تسعدهم بمرحها..

هذا الطفل الصغير يصطنع البكاء.. يتعلق بأصابع أبيه في عناد.. يشاكس رغبته في ألا يستجيب له.. و لكنه يصر.. فيشد يد أبيه.. و يأخذ به إلى بائع حلوى غزل البنات.. ليجلب له واحدة ملفوفة برقة و انسيابية على عصاها.. تتطاير شعرات منها مع أنسام الهواء.. فينظر إليها الطفل.. و يضحك ضحكته الحلوة بملء فمه.. و يبتسم له الأب.. و يبتسم معهما بائع الحلوى.. و أبتسم أنا أيضا لأجل بسماتهم.. هذه القطعة الهوائية استطاعت أن ترسم الفرحة على ثلاثة أوجه في آن واحد..غريب هو حال البشر.. يبتسمون للشيء البسيط.. رغم ما يحملون من أوجاع بداخلهم..

فكما علمت عن العم عاطف.. بائع الحلوى الذي استطاع بهذا الشيء الهزلي أن يسعد قلب طفل صاحب قرار.. اتخذ قرارا بسيطا.. في وقت قليل.. و سعى لتنفيذه حتى نال ما أراد.. أطفال.. و لكن..

كان عم عاطف يعاني مرضا في الصدر.. لم يمنعه من الخروج في هذا الوقت القاسي و بيع حلواه.. أصبح عم عاطف بحلوته من أطلال المكان.. يقصده الناس للاستمتاع بالحلوى.. إن غاب افتقد المكان روحه.. و خلا الجو من حلاوته..

كلما نظرت إلى هؤلاء الأشخاص قلت في نفسي:

ما أبسط هذه الحياة! نظرتنا إليها هو ما يجعلها أكثر تعقيدا.. لو أننا تركنا الأحداث تمر علينا دون أن نستوقفها كثيرا.. دون أن نحيل الحدث إلى حكايات مصطنعة.. ليكون الموقف الواحد درسا دراميا لسلسلة متواصلة من التراجيديا المؤسفة..

على جواري الأيمن يجلس رجل يبدو من هيئته أنه قد بلغ الأربعين من عمره.. أو تجاوز قليلا.. يعلو شعره الأحمر بعض الخصلات البيضاء.. يتناول عشاءه.. و بين اللقمة و الأخرى تنهيدة و نفس عميق.. كان شارد البال.. يهيئ لك من اللقيمات التي أكلها.. أنه ما أكل شيئا.. و وراء كل مضغة يشرب رشفة ماء.. ما كان في المطعم إلا أنا وهو فقط..

دخلت إلى المطعم امرأة ترتعد من البرودة.. امرأة فارعة الطول.. نحيفة..

ترتدي معطفا بنيا داكنا من الفرو.. خلعت معطفها ووضعته جانبا.. بدى على زيها ملامح الأناقة الشتوية القاتمة.. جلست منفردة.. إذا نظرت إليها ترى وجها راضيا ينم عن بسمة و إن لم تبتسم.. أشارت إلى النادل ليحضر لها العشاء..

دون أن تدري وجدت نفسها مشدودة إلى الرجل ذي اللحية الحمراء.. لاحظت حالة السكون المسيطرة عليه حتى في تناوله لطعامه.. و فجأة رفع إليها نظره.. وكأنه أحس بها.. شعرت نظراته لها.. فارتعشت خجلا.. حاولت أن تشغل نفسها بحقيبتها.. فأخرجت منها منديلا ورقيا..

بدأت تتناول طعامها.. و هي تنظر خلسة إليه على غير إرادة منها.. و كأن شيئا ما يسيطر عليها.. و يجذبها لتفقد أحواله التي تبدو على وجهه.. ترتبك في نفسها.. و تركز في طعامها.. تتناسى أمره.. لا تدري لِمَ هذه الجاذبية إليه؟ و الأغرب أن بسمتها العفوية قد انتقلت لتستقر على وجهه..

ما شعر الاثنان بوجودي.. وكأنهما فقط في المكان.. أو هكذا بدى لي..

كان المكان خاليا من الناس إلا أنا وهما.. يبدو أن الوحدة هي ما دفعت بهما للخروج في جو هكذا.. ليلة قاسية باردة.. وأعتقد أنه سبب كاف يمنع أحدا من الخروج خشية سقوط الأمطار.. فالسماء ملبدة بالغيوم..

استغربت تواجدهما.. وكأن الأجواء خلت من الحياة إلا من حياة أرادت أن تجمع بينهما..

كان يخيم على المكان الكآبة و السكون حتى أني ظننت أننا في انتظار هطول الأقدار..

بعد أن انتهيت من عشائي.. حملت شنطة يدي.. وخرجت أتبطأ في خطواتي.. أشعر بعدم رغبتي في العودة إلى البيت..

فكرت أن أذهب إلى مقهى سلسبيل لتناول فنجان من القهوة.. أردت السهر لأستمتع بأجواء الليلة.. و ما تحمله من غموض..

أحب مقهى سلسبيل.. فهو مقهى متواضع.. يطل على شاطئ النيل.. أجد به الأنس الجميل.. أهل الأدب و الفن.. له رونق خاص رغم بساطته و طابعه الشعبي.. محال أن تشعر فيه بوحدتك و لو كنت جالسا بمفردك.. ستعبر إلى قلبك أصوات الآخرين بنبرتها الطنانة.. همسات ندية لقصائد ملقاة.. وكل ما

تنشده من طرب..

هناك يجلس أستاذ منير على مقربة من النيل.. يبدو عليه أنه مهموم.. سأذهب إليه لعلي أأتنس به..

.مساء الخير أستاذ منير..

- مساء النور رحاب .. أهلا تفضلي .. اجلسي..

.أول مرة أراك هنا.. خير إن شاء الله..

- نعم أول مرة لي هنا.. نادرا ما أخرج من بيتي في فترة المساء.. يبدو أن المكان سيروق لي..

.هو فعلا مكان أصيل .. دافئ..

- أراك اليوم على ما يرام رحاب.. على غير ذاك النهار.. كنت عنيدة للغاية..

.أنا حقا أسفة.. ولكن..

عاودني شعوري بالأسف تجاه هند.. عندما ذكرني بذاك اليوم.. وأنا التي جاهدت نفسي لأنسى ولكن دون جدوى..

عاودني كلماته المرهفة قائلا:

- ما بك رحاب تكلمي.. أولا دعيني أطلب لنا فنجان من القهوة.. معها نشعر بالدفء.. فالجو يزداد برودة..

.شكرا لك أستاذي الفاضل.. ولكن هذا واجبي أنا.. المكان مكاني.. وهي أول مرة لك هنا..

- لا شكر على واجب رحاب.. هذه المرة علي و المرة القادمة عليك.. لا فرق بيننا..

.هكذا أنت أستاذ منير دائما ما تحرجني بذوقك..

- هيا قولي لي.. ما الأمر؟

.أتذكر تلك الأوراق التي حطمتها برفضك لنشرها..

- لا تبالغي رحاب.. طلبت منك تأجيل النشر لتزاحم الأحداث على الساحة.. و الخبر البائت يفقد جاذبيته..

.كنت أرغب في نشر مقالا أدبيا.. لم يكن لي ولكنه لـ هند هذا ما أهمني..

قال وكأن صوته امتزج ببرودة الجو:

- من هي هند؟!

.أختي التي تكبرني.. تهوى الكتابة خاصة في مجال الأدب..

- لم تكلميني عنها مسبقا.. فكيف لي أن أعرف؟

.لا أحب أن أستعطف أحدا..

- استعطاف.. لا أفهم.. ولِمَ الاستعطاف أصلا؟! لأجل من؟! أنت معتادة على هذه مثل الأمور في مجال عملنا..

.ولكن..

- ما لك رحاب؟! تكلمي من فضلك..

.سأقول لك و أمري إلى الله..

- بربك رحاب.. لقد أثرتني.. احكي ما الموضوع؟

الحكاية أستاذي الفاضل منير: أن هند أختي.. للأسف.. تعرضت للإصابة بالحمى و هي صغيرة.. فقدت معها قدرتها على الحركة.. و ألزمتها كرسي متحرك.. ظلت حبيسته طيلة حياتها..

- تابعي.. فأنا أستمع إليك..

. هند إنسانة حساسة للغاية.. ترفض أن تخرج إلى الآخرين حتى لا ترى نظرات الشفقة و العطف في أعينهم.. و هو ما ترفضه تماما..

- إنسانة مرهفة الحس مثلك رحاب..

.لا أستاذي.. بل أنا التي مثلها.. المهم .. أغلقت هند على نفسها.. و اعتبرت غرفتها مملكتها الخاصة.. وهبها الله ملكة الكتابة.. أثقلتها هي باطلاعها في الآداب.. كتبت عدة مقالات أدبية.. أحببت أن أدخل إليها السرور.. و أجعل من مقالاتها الساكنة على مكتبها أن تنبض بالحياة.. فكرت أن أنشر لها مقالا في جريدتنا.. و أخبرتها بذلك.. فرحبت.. و كانت في منتهى السعادة.. و كأنها تصالحت مع الحياة و لكني عدت إليها للأسف بخيبة الأمل.. و خفت عليها أن تفقد ثقتها بنفسها.. و تتوقف عن الكتابة.. و تخسر أملها في الحياة..

كان ينصت باهتمام.. وكأني أحكي له رواية مأساوية لبطلة في قصة ما ثم قال لي بشغف:

- و ماذا حدث بعد أن علمت بالأمر؟

. لم أكن أتوقع أن تتقبل الأمر بهذه البساطة.. فبدلا من أن أطيب أنا خاطرها.. وجدتها قوية متماسكة.. وكأن شيئا لم يكن..

- لِمَ لم تخبريني رحاب؟! .. ربما اختلف الوضع..

. لا أعرف.. نصيبها.. يبدو أن الفرح لن يعرف لها طريقا..

- لا يا رحاب.. لا تقولي هذا.. فالأمل دائما موجود.. إن لم نقدم نحن الكتاب الأمل لغيرنا.. و نسعى لرسم البسمة على الشفاه.. فأي قيمة لعملنا؟! و أي هدف نكتب لأجله؟!

. أنت على حق ولكن ظروف العمل تقضي بأشياء خارج إرادتنا..

-علينا رحاب أن نطوع العمل وفق إرادتنا..

. بمعنى..

- سنعيد تنسيق الجريدة بشكل يسمح للآداب أن تأخذ حقها في النشر..

. رائع أستاذ منير.. غير معقول..

- ما هو هذا غير المعقول؟! كل شيء ممكن و معقول..

. أقصد أن ما اقترحته هو بالضبط ما قالته هند.. لقد اقترحت علي أن نعيد تنسيق الجريدة بدلا من التناوب بين الموضوعات..

- جميل.. إذن اتفقنا.. فلتكن مشيئة الله.. أحضري لي غدا مقالة هند و سوف أهتم بها..

. لا أعرف كيف أشكرك أستاذ منير.. أنت لا تدري كم يعني هذا لأختي هند..

سادت بيننا فترة صمت.. انتهينا فيها من شرب القهوة..

قلت له و أنا ألمح عليه شيئا ما أشبه بالصرخة المكتومة:

. مالي أراك مهموما هكذا.. لعله خير.. كلنا لدينا في حياتنا غصات.. عليك بالابتسامة فهي أفضل الحلول للتغلب على ضيق النفس.. فقط ابتسم ليس أكثر..

لم يرد علي.. و ظل شاردا يتأمل نهر النيل.. يفكر و كأنه على وشك اتخاذ قرار..

قال لي و هو يتكلف ابتسامته:

- لا تبدأي أيتها الفيلسوفة.. من أين لك بهذه الحكمة؟ يبدو أن قراءاتك في

الفلسفة غرك في نفسك.. و صور لك أنك تملكين الحلول..
.و هو كذلك أستاذي.. أليس من الحكمة تتكون الرؤى.. و ينضج العقل..
- أتعلمين رحاب؟! أنا أفكر في إعداد صفحة خاصة لعرض مشاكل القراء و الرد عليها.. يمكنهم أن يرسلوا لنا عبر بريد القراء.. و نقوم بنشر المشكلة و الرد عليها.. و أعتقد أنك أنسب من يقوم بهذا العمل.. أراك تملكين الموهبة.. فالرد المقنع منحة خاصة تتطلب مرجعية جيدة.. و هذا ما أجده فيك..
.ممكن أطلب منك طلب.. من فضلك لا تخيب رجائي..
- تفضلي رحاب.. أمرك فيلسوفتنا.. أنت اقترحي.. و أنا على التنفيذ فورا..
.لا تزد من إطرائي حتى لا أزداد غرورا كما لمحت سابقا..
- أنت لا تتركين شيئا يمر بسلام.. لديك تركيز عال رحاب.. لا يمر عليك أمر دون أن تنظري فيه.. هل أدركت لِمَ أنا اخترتك؟ لأنك تهتمين حتى لأصغر الأمور..
.من بعض ما عندكم أستاذي الفاضل..
- أخبريني بم تريدين رحاب..
.هند...
- هند..هند..هند.. ما عندك غير هند.. كل هذا الحب لـ هند..
.إنها حقا تستحق كل تقدير.. لو أنك تعرفت إليها لأدركت ما أقول..
- لا خلاف.. أتفق معك تماما.. ما بها هند؟!
.أريد أن تقوم هي بالرد على بريد القراء.. فهي أجدر مني.. أريد أن أقدم لها عملا يليق بشخصها.. و هي تميل إلى مثل هذا النوع من الأعمال..
- و لكن .. رحاب .. كيف؟! هل تقترحين أن يكون لها مكتب في الجريدة.. أم تقوم بالعمل من البيت؟
.لا يهم أستاذ منير.. كما تشاء.. فالأمر لك.. هل تعطيها فرصة؟
- نعم.. و أنا متحمس.. و لكن بشرط ...
.ما هو؟!
- أن يكون تعليقها على رسائل القراء بدون توقيع و يتم في البيت.. إن أثبتت نفسها و استطاعت أن تكتسب ثقة القراء أجعل لها مكتبا خاصا بها في

جريدتنا.. و أمنحها التوقيع أسفل الردود.. أتوافقين؟

. أوافق.. و هذا حقك.. و أشكرك على هذه الثقة.. أعلم أن هند ليس لديها الخبرة الكافية في مجال عملنا.. و لكني أؤكد لك أنها تملك الموهبة و ينقصها الخبرة.. و الخبرة لن تأتي إلا بالتفاعل و النزول إلى الساحة..

- و هو كذلك.. أمهليني وقتا لإعداد رسم تخطيطي لشكل جريدتنا الجديد.. ستكونين راضية تماما..

. أستاذ منير أؤكد لك أن هند أفضل مني بكثير.. فأغلب أرائي تعلمتها منها.. لديها هبة ربانية لاحتواء الغير..و تفهم ما بهم.. و التعامل مع مواقفهم..

- شوقتني لرؤية هند.. كما أني أحسد هند على أخت مثلك..

. سيكون إن شاء الله.. و لكن أجدر بك أن تحسدني أنا على وجود هند في حياتي..

ضحك ضحكة عالية ثم انقطع صوت ضحكه.. و انتهى إلى فراغ عميق..

لم أحاول أن ألح عليه بسؤالي.. يبدو أنه لا يريد أن يتكلم.. فهذه عادته كتوم للغاية..

obeikandl.com

خروج آخر للحياة...

ووضعت وردتها الذابلة على صخرة صماء على شاطئ البحر.. فعلت الأمواج وثار البحر هائجا.. خرج عن حدوده ليعلو فوق الصخرة.. ويأتي بالوردة الذابلة إليه.. تراها تسبح بعيدا على سطحه.. تتقاذفها الأمواج المتلاطمة.. لترحل بها على مرمى البصر.. إلى أن غابت عن عينها..

نظرت إليها في جمود.. تحدق بالبحر الواسع.. وكأن الموج أخذ معه زهرة حلمها ورحل...

تساءلت بينها وبين نفسها: لِمَ تركت وردتي ولِمَ الآن أبكي عليها..؟!

توقفت هند قليلا عن الكتابة.. وأخذها تفكير عميق.. وكأنها تتذكر موقفا مشابها لما كتبه قلمها..

وبعد فترة عادت إلى رشدها.. وشعرت بإحساس غريب.. إنها تكتب قصة.. وتشعر بأنها تخط جزءا من ذاتها على هذه الصفحات البيضاء.. ولكن.. سواء أكانت القصة تشبهها أو تجسدها.. فهي تشعر بفرحة تخالج نبضاتها..فرحة تشبه فرحة الأم بأول مولود لها بعد أن غاب عنها طويلا..

كانت قصة امرأة تبحث عن ذاتها أول قصة لـ هند.. تفرغ فيها مكنوناتها.. وتعبر عن نفسها.. وتجد فيها دنيتها التي صنعتها من محبرة قلمها وأوراقها.. الروح التي لطالما غابت عنها.. وظلت تبحث لتجدها.. ولكنها لم تصادفها إلا عندما بدأت كتابة قصتها..

خرجت هند إلى نافذتها بعد أن أزاحت عنها ستائرها.. جلست إلى الطاولة الموجودة بها.. نظرت إلى السماء نظرة امتنان.. أخذت تنظر هنا وهناك.. وهى تبتسم في نفسها.. والبسمة ترتسم على شفتيها.. وضعت يديها على صدرها..

تحاول أن تخمد نبضات قلبها المنتفضة.. داعبت أزهارها البيضاء بأطراف أصابعها.. واستنشقت رحيقها.. حلقت فراشة وردية اللون بين الزهور.. وأخذت تنتقل من زهرة إلى أخرى بمرح ودلال.. طاردتها هند بيدها.. تحاول أن تمسك بها ولكنها ما استطاعت.. فالفراشة كانت تحلق بخفة وانسيابية.. ضحكت هند ضحكة طفلة تلهو.. ضحكة تنم عن سعادة داخلية.. آتية من إحساسها بالرضا.. كانت نسمات الهواء تداعب خصلات شعرها المنسدلة على جبينها عندما سمعت طرقات هادئة تدق على الباب..

اتجهت هند إلى الباب لتفتحه.. وإذا بشخص طويل القامة يقف أمامها.. شخص لا تعرفه ولكنها تألفه.. ملامحه ليست غريبة عنها.. هكذا شعرت في نفسها عندما نظرت إليه تنتظر حديثه.. ولكنه لم يتكلم وظل صامتا.. استغربت هند من موقفه.. وقالت في بالها: ربما أخطأ العنوان..

لهذا بادرته الكلام قائلة:

- هل من خدمة؟!

- أسأل عن الأستاذة رحاب..

- و من تكون؟

-أنا الأستاذ منير.. رئيس تحرير جريدة آفاق التي تعمل بها رحاب..

- أهلا أستاذ منير..

- أعتقد أنك هند..

- نعم.. تفضل بالدخول..

وبعد عدة خطوات مترددة قال بصوت هادئ:

- أعتذر عن زيارتي المفاجئة..

- لا داعي للاعتذار.. فلك من الاحترام ما يجعلنا نثق بك..

- شعرت بالقلق من غياب رحاب.. كما أني أعلم بأنها تسكن بالقرب من الجريدة.. لهذا قررت أن أمر عليها في طريقي لأسأل عنها..

- رحاب ليست موجودة الآن.. خرجت لتحضر لنا بعض الأغراض..

- أحببت أن أطمئن عليها.. فربما حدث لها مكروه اضطرها إلى الغياب..

- حقيقة.. ليس هناك شيئا.. غير أنها أرادت أن تقضي معي اليوم.. منذ فترة

طويلة لم نجلس معا..

- حدثتني عنك رحاب كثيرا..

- وحدثتني عنك أيضا..

- لديك موهبة مثقولة في الكتابة..

- الكتابة عالمي.. أنا الآن أكتب أول قصة لي..

- عظيم.. وما اسمها؟

- امرأة تبحث عن ذاتها..

سادت بينهما فترة صمت.. حائرة مترددة.. إلى أن قطعت هند هذا الصمت بقولها:

- أعرف أنك تحب شرب القهوة سكر زيادة..

- شكرا لك.. لا تشغلي بالك.. فقد تناولت قهوتي في المكتب..

- هو واجب الضيافة ولا يمكن أن أتخلى عنه..

- كما تشائين..

ذهبت هند إلى حجرة مكتبها.. وأحضرت بعض الأوراق.. ناولت هند الأوراق للأستاذ منير.. وقالت له:

- إليك بعض قصتي لتقرأها إلى أن أحضر لك القهوة.. تفضل إلى غرفة الجلوس..

- اسمحي لي أن أجلس في حجرة المكتب.. إن لم يكن لديك مانع..

- لا أبدا.. فأنت أهل بيت..

اصطحبت هند منير إلى حجرة مكتبها.. وانصرفت لإعداد القهوة..

كانت هند تشعر بحرج قليل من وجود منير في البيت.. فما اعتادت منذ زمن بعيد أن تلتقي بأحد أو تنفرد به.. وأغلب لقاءاتها مع الآخرين نادرة.. ولا تحدث إلا بوجود رحاب..

دخل منير إلى غرفة مكتب هند.. وجلس إلى مكتبها الخشبي.. ونظر إلى محتوياته.. فعلى يمينها توجد مقلمة خشبية بألوان بنية مموجة.. بها مجموعة أقلام.. وعلى اليسار بروازيحمل صورتها هي ورحاب.. بجانبه منبه لونه أبيض محفور عليه صورة فتاة في هيئة ملاك.. وفي منتصف المكتب ثلاثة كتب..

كتاب في الأدب.. وآخر في الفلسفة.. والثالث رواية مترجمة.. هذا بالإضافة إلى بعض الأوراق مكتوب عليها مقولات فلسفية غير مفهومة.. كأنها تجسد شيئا ما.. أو تعبر عن حالة ما..

بدأ منير يتصفح الأوراق التي ناولتها إياه هند.. والتي تمثل جزءا من قصتها.. وجد منير نفسه مستغرقا في القراءة لما وجده في أسلوبها من جاذبية حزينة.. تسلب الوجدان يقظته.. لترحل به في دنيا غير دنياه..

توقف قليلا عن القراءة.. وسرح بخياله إلى هند.. يستغرب نفسه.. يستغرب هذا الشعور الذي حل به بمجرد أن رآها أمامه.. يتساءل عن هذه الجاذبية التي لمحها في عينيها.. عندما التقى بها.. ينظر إلى طلتها التي أصابت قلبه بوخزة مفاجئة لم يكن يتوقعها.. فأسرع قلبه في دقاته دون توقف.. بطريقة ألجمته عن الكلام.. ولكنه قال في نفسه:

- ما هذا الجمال الذي يسكن هند.. أي فتاة رأيتها هنا؟!

حرمتها الطبيعة من الحركة.. ولكنها فاضت عليها بجاذبية وتفرد.. بريق عينها الدامع أشبه بندى وردة.. تنظر إلى أسفل حتى لا يرى أحد حزنها.. وردة خجول تغلق على نفسها.. رغم تفتح ورقها وانتشار عبيرها.. لقد ظلمت نفسك ياهند.. لِمَ خبأك القدر عني؟! ولِمَ ظهرت الآن؟!

فاق منير من شروده على صوت هند المبحوح تقول له:

- أستاذ منير.. القهوة.. أراك شاردا.. خير إن شاء الله..

- أخذتني كلماتك الرائعة..

نظرت هند إلى أسفل.. تشعر بالخجل.. ظلت صامتة.. لم تقو على النطق.. عاود منير حديثه قائلا:

- هند أنت مبدعة.. لك إحساس فريد.. أليس من الظلم أن تحرمي القراء هذا الابداع؟!.. وتحرمي نفسك الوجود في عالم القراء..

- لا أعرف.. أشعر بالتخوف من أمر النشر..

- أعطي نفسك فرصة.. واتركي لكتاباتك حيزا من الوجود.. وبعدها احكمي على الأمر..

- الحياة ... الحياة ... ما أقسى حياتي!

- وما أجملها! إذ أعطتك كل هذا الابداع الذي ليس لسواك..
ربما أنها قست عليك ولكنها عوضتك.. فلِمَ تقسين أنت على نفسك؟!
لم تكن صدفة عادية أن آتي اليوم لزيارتكم..
- لا أفهم ...
- لقد أتيت إلى رحاب لأناقشها في أمر جريدتنا التي سبق لنا أن تناقشنا فيه.. ولقد وعدتها بأني سأنظر في الأمر.. وأعيد بناء الجريدة ولكني عدلت عن الأمر إلى أمر آخر.. وأحببت أن أطلعها عليه.. و لمَّا لم تأت.. قلت أذهب إليها وأناقشها..
- وما هو الأمر الذي عدلت عنه؟
- كنت قد وعدتها بأن أخصص عمودا للأدبيات في الجريدة ولكني توصلت إلى فكرة أفضل..
- وما هى..؟
- أن أسس مجلة أدبية صغيرة.. ملحقة بالجريدة.. أفرد فيها للأقلام الأدبية الموجودة بمكتب الجريدة.. وللقراء.. وللموهبين.. ويبدو أنك ستكونين أول قلم مميز لمجلتنا الأدبية المتواضعة..
سكتت هند.. تفكر.. كأن الحقيقة قلبت خيالا.. دار في ذهنها سلسلة من اللامعقول.. ودون أن تدري همست:
-غير معقول...

مواجهة غير منتظرة...

تعود منير كل مساء أن يجلس في غرفة مكتبه الخاصة بمنزله.. غرفة تشبهه كثيرا في هدوء ألوانها.. و بساطة أثاثها.. فالأثاث الكلاسيكي فيها يوحي بالعهد القديم.. وكأنك رجعت بالزمان إلى الوراء حيث زمن الجيل الأصيل.. بطابعه الفريد.. ورونقه البديع.. تميزه تلك المسحة من الأناقة العتيقة.. فحينما تفتح باب الغرفة تشعر بأنك دخلت إلى فترة الستينيات مع قليل من الحداثة التي تواكب تطور العصر.. ولكن يبقى هناك شيء أصيل يسيطر على المكان..

اعتاد منير في المساء أن يجلس إلى مكتبه.. يقرأ في كتبه.. ويكتب في أوراقه.. كانت الأوراق تعبر عما يدور بداخله من أفكار و قيم و معان.. استنبطها من خلاصة قراءاته في مختلف أنواع الكتب..

في هذه المرة لم تكن قراءته في كتاب.. و إنما في نفس التقى بها على حين غفلة.. فأثرت فيه.. شيء ما توقع أن يصادفه في حياته.. ربما قرأ عنه أو تخيله لكن أن يجده في الواقع.. فهذا ما أثار فكره لأن يرحل بعيدا فيه.. تصاحبه حالة من الذهول و الإحساس بالحسرة..

شعر برغبته في أن يكتب في هذا الشعور المخيف الذي اجتاحه.. و أفقده السيطرة على أن يوقف هذا المد من الخواطر التي انهالت عليه.. فلم يجد بدا من أن يفصح عما يجول بذهنه.. و تضطرب له نبضاته.. أمسك بقلمه الحبري.. حاول أن يكتب شيئا ولم يستطع.. فالتعبير يخونه رغم امتلاء نفسه بمعان لا حصر لها .. حاول ثانية ولم يستطع.. فتوقف قليلا.. يسند رأسه على أطراف أصابعه.. يعود إلى أوراقه..

و أخيرا يكتب عليها اسمها هند .. هند .. هند.. و يكرر الاسم أكثر من مرة

إلى أن تمتلئ الصفحة بكلمة واحدة و هو اسمها الذي علق به عقله.. فمنذ أن خرج من عندها و شيء خفي في داخله يردد اسمها هند هند هند.. و عين لا ترى إلا ثلاثة أحرف.. تغلفها روح محلقة في سماء صدره الملتهب لعارض اسمها على خياله بين الحين و الآخر..

بدأ قلمه يطاوعه.. و يستجيب لنداء فكره.. و أخذت الأحرف تنساق بين أسطره..

غير معقول.. أصحيح أني صادفت الحب الذي أقرأ عنه في الروايات؟! و لكن .. للأسف .. يبدو أن الأشياء الجميلة في الدنيا لا تصل إلى درجة الكمال.. لابد و أن يكون بها ثغرة ما تنحدر بها عن درجة المثالية..

طبعا لا أقصد عجزها.. لأن جمالها و عقلها كانا كفيلين بأن يطمسا أي عجز بها.. ولكن الأسوأ هو..

آه يا ربي!! أن نختلف في الرأي أمر هين.. أن يكون أحدنا عاجز.. فليس بالشيء الذي يذكر.. لأن الحب كفيل بأن يُغمض العين عن مصائب الدنيا.. بل قد يحيلها إلى قيمة تُعلي من شأن صاحبها.. و لكن أن يكون الاختلاف في الدين.. فهذا هو المستحيل بعينه..

كيف سيكون مصير هذا الحب؟!

من المؤكد أنه سينجرف بنا إلى حيث لا نعلم.. و ستكون العاقبة غير محمودة.. و بِمَ سيصف الآخرون مثل هذا الحب؟! هل لهم أن يتفهموا؟!

كل شيء يهون في نظرهم إلا أمر الدين.. فكم منهم سيصب غضبه علينا.. و ينصب من نفسه حاكما يُفتي في أمرنا دون أدنى اهتمام بهذه المشاعر البريئة التي أتت على غير إرادتنا.. و من يمكنه أن يفهم.. مادمتُ أنا المحب الولهان لم أستطع إدراك هذه الحالة التي أعيشها.. و ما كانت في يوم تخطر على بالي..

و لكن .. هل الحب يعرف حدودا أم عليه أن يتجاوز كل الحدود لكي يكون صادقا؟! و من صدق الحب ألا تعيقه عائقة مهما كانت قوتها.. فعليه أن يصمد إن كان حقيقيا.. فمن المستحيل أن يتعارض الدين و الحب.. وقد علمنا الدين أن الحب من أسمى قيم الحياة إن أحسنا فهمه.. فـ الله محبة .. و أمام هاتين الكلمتين تنهار كل القيود.. و يبقى الحب فضيلة القلب.. و مخلص الروح..

غريب أن أتحدث عن شعوري بهذه القوة.. و أصف مشاعري بأنها الحب.. فما كان لقاؤنا غير مرة .. كيف أحكم على ما أصابني بأنه الحب؟! ربما شيء آخر غير الحب.. فما أعرف عن الحب غير تلك العبارات التي قرأتها في قصائد شعرية حفظتها عن ظهر قلب.. فهل من الممكن أن أحكم على مثل هذه المشاعر بأنها حب؟! قد يكون إعجاب.. انجذاب..

غير أني أهملت مشاعرها هي.. ربما ما أثرت فيها.. أو أعرتها انتباها.. لا أنكر أني وجدت في عينها بريقا و هي تتحدث إلي.. ولكن هذا لا يثبت شيئا.. ربما هي نفسها لم تفطن إلى ما أصابني بمجرد أن رأيتها.. قد تكون فسرت الأمر على أنه نوع من الحرج.. و إن علمت بحالي .. فما ظنها بي؟! و هل في حياتها مجال لأن يقتحمها شخص مثلي؟!

تلك الزنبقة الخجول.. لطالما تألمت عمرها.. فهل أزيد من آلامها بهذا الحب المحكوم عليه بالموت خنقا؟!

ولو افترضنا أنها تبادلني الشعور.. رباااه!! ماذا عساي أن أفعل؟!

لابد من لقائها مرة أخرى لكي أتأكد من حقيقة شعوري.. و لأجذم بما أكنه نحوها.. ولكن علي أن أتحرى الحرص حتى لا أفقدها.. فمازلت لا أعرف موقفها مني..

فاق منير من غيبوبته الفكرية التي ملكت عليه كيانه على طرقتين على باب غرفته.. و صوت خافت يناديه:

- منير منير

فطن منير إلى أنه صوت زوجته ماريا و قال في نفسه:

غريبة ليس من عادتها أن تقطع علي خلوتي.. فلطالما باركت هذه الخلوة.. و حافظت على هدوئها.. حتى أنها كانت تمنع باسم و باسمة من الدخول علي.. و التشويش على أفكاري.. كانت دائما تهيئ الجو المناسب لأقرأ و أكتب حتى أكاد أشعر أني وحدي بالبيت.. فما بالها الآن تخترق خلوتي ثم أجابها بصوت جاد حازم:

- لا أريد لأحد أن يدخل علي الآن..

- لقد أعددت لك فنجان من الشاي فاسمح لي..

أنصت منير لما تقول في استغراب ثم حدث نفسه:
فنجان شاي...!
- ولكني لم أطلب شيئا.. ولا أريد أن أتناول شيئا..
- لقد أعددته بالفعل.. فرجاء اسمح لي بالدخول..
قام من مقعده.. و اتجه إلى الباب.. و يده اليسري في جيبه.. و فتح باب الغرفة.. وتلاقيا.. وظلا صامتين لفترة ثم دخلت ماريا.. وجلست على الكرسي المقابل لمكتبه.. ووضعت صينية الشاي على الطاولة.. و قدمت إليه فنجان الشاي.. وكان في ذاك الوقت قد عاد وجلس على كرسيه..
لاحظت ماريا أمامه أوراق.. وعرفت أنه كان مستغرقا في الكتابة ثم رفعت فنجان الشاي إلى فمها.. وشربت منه قليلا.. ونظرت إليه في تردد وحيرة قائلة:
- أعتذر أني قطعت عليك أفكارك..
- لا داعي للاعتذار مطلقا..
- أراك كنت تكتب.. يبدو لي هذا من الأوراق التي أمامك..
- نعم.. أكتب في أمر هام..
- يا ترى ما هو الأمر الهام الذي شغلك إلى هذه الدرجة؟
- منذ متى و أنت تهتمين و تسألين؟
- رأيت على جبينك ملامح الجدية.. فشعرت بأن هناك أمر ما.. أحببت أن أشاركك فيه..
سكت هنيهة يحدث نفسه: يا لسخرية الأقدار! ثم قال لها:
- لا تشغل بالك..
- هل أعجبك الشاي؟ .. لقد أضفت إليه القليل من النعناع الأخضر.. أعلم أنك تحبه..
- بالفعل كنت أحتاج إلى كوب شاي.. شكرا لك..
- ولكنك لم تشرب منه شيئا.. فقط تنظر إليه..
- لا أدري ولكن أستغرب موقفك.. ما الذي أتى بك في هذه اللحظة بالذات؟ ما تعودت منك مثل هذا التصرف..
- ماذا تقصد بمثل هذه اللحظة بالذات؟! كأنك ترنو إلى شيء..

- لا أقصد شيئا ولكن ما تعودت منك مثل هذا التصرف..

- أبدا.. خالطني شعور بأن آتي إليك.. وأتعرف إلى زوجي الكاتب.. أحببت أن أراك وأنت تعمل.. كيف ستبدو؟

- هذا كل ما في الأمر؟

- نعم.. إنه كذلك.. لِمَ أنت مرتاب هكذا؟!

نظر إليها نظرة ثاقبة ثابتة ثم أطرق عينيه إلى فنجان الشاي.. و رفع الفنجان إلى فمه.. مرة تلو الأخرى.. إلى أن انتهى من شربه.. دون أن يتلفظ بكلمة.. ثم أعطاها الفنجان و شكرها في جمود.. وكأنه يقول لها: هيا اخرجي لقد اكتفيت..

شعرت بدوار أصابها.. وأحست معه بعدم اتزان.. في تعبيراته شيء ما جرح إحساسها.. يشبه ذاك الموقف الذي سبق لها أن مرت به.. و أحست معه بالمرارة نفسها.. و الإهانة بتجاهله لها.. و تعمده أن يكون باردا.. و قد تسللت هذه البرودة إلى شرايين إحساسها.. فوخزتها بنفضة المحموم عندما يفاجئه المرض.. أعياها كثيرا ذاك الفتور الذي غلف جلستهما.. وقبل أن تصل إلى باب المطبخ.. شعرت بيد تلمسها من الخلف.. فارتجفت و اعتدلت إلى الوراء.. فإذا بمنير يقف أمامها صامتا.. يريد أن يقول شيئا.. تفحصته قليلا ثم قالت بنبرة ترتجف: لقد أخفتني..

فأجابها في ذاك الفتور:

- أريد أن أتحدث إليك.. الحقي بي إلى المكتب..

دار في خاطرها أنه شعر بمدى الايذاء الذي ألحقه بها.. و لذلك أراد أن يعوضها بجلسة أخرى تجمعهما ليتدارك الموقف.. و على الرغم من أن طلبه هذا اعتبرته شيئا مهينا لأنه مازال فاترا خاليا من الاهتمام.. هو مجرد تعويض ليس أكثر.. إلا أنها لحقته على الفور إلى غرفة المكتب.. شعر بأنها تريد أن تتحدث معه.. فقد افتقدت إلى كلماته.. و تعبيرات وجهه الدافئة..

- أعتذر عن تجهمي في وجهك.. كأني لاحظت عليك أنك تريدين أن تتكلمي في أمر ما..

- لا أعرف.. فقط شعرت بالرغبة في أن أجلس إليك.. حتى و إن لم يدر بيننا

حديث.. ولكني شعرت بشيء ما..
- شيء ما.. ما هو؟
- لا أدري.. ربما اشتياق..
- لِمَ في هذه اللحظة بالذات؟!
- كنت جالسة في حجرة المعيشة.. أقرأ كتابا للفيلسوف الهندي أوشو.. فأنت تعلم أني أؤمن بما يقول.. واستوقفتني عبارة من عباراته..
وأخذت تقرأ عليه.. وعيناها تسرحان.. تنظران إلى العبارات نظرة مدقق محلل.. لديه خبرة بما هو كائن على هذه الأوراق..
لابد للحب أن يكون أرضيا تماما كما الأشجار تعجز عن النمو بدون الأرض .. فإن الحب بحاجة إلى التجذر في الأرض .. على الحب أن يكون أعلى من العاطفة لكن العاطفة يجب أن تكون داعمة له ..
ثم صمتت رويدا تفكر في هذه الكلمات.. أحست أنها أول مرة تقرأها.. كان لتلك المقولات شعور خاص وهي تقرأها على زوجها.. كأنها تخاطبه بها.. أرادت أن تقول له شيئا في نفسها.. ولكن طبيعتها الإيمانية أمسكت بلسانها عن البوح.. فلم تجد بدا من أن تقرأ عليه هذه المقولات دون وعي منها.. لم تخطط للأمر.. ولكن ترتيب الأقدار هو ما دفع بها إلى أن تقرأ هذه الكلمات في هذه اللحظات بالذات.. وأن تتفاعل مع شعورها كأنثى.. وكامرأة نبيلة تحتاج إلى أن تقدم هذه المشاعر لزوجها في شكل غير مباشر.. وهي تعلم جيدا بأن زوجها الكاتب يمكنه أن يقرأ ما تلمح إليه.. هذا التلميح أتى منها من منطقة كامنة في نفسها تسمى اللاشعور..
في خلال فترة الصمت هذه التي كانت ماريا تحدث فيها نفسها.. كان منير ينظر إليها وكأنه يقرأ أفكار قلبها.. وقال في نفسه:
رباه! ترى إلى أي شيء ترمي بهذه المقولات الفلسفية؟! .. هل تريد إحياء الحياة بيننا بشكل لا يمتهن كرامتها؟! أريد حقّاً أن أفهم المعنى الحقيقي للكرامة بين الأزواج.. ما الضرر في أن تأتي إلي وتقول لي بمنتهى البساطة: منير حبيبي دعنا نعانق بعضنا.. ونرمي خلفنا ما فات من اختلاف وتجاوز.. تعال لنبدأ عمرا جديدا نعود به إلى أحلامنا التي ولّت.. ونجدد به أيامنا التي مضت

خلسة منا..

ترى: ما الذي أحدث بها هذه الفوقة؟! و لِمَ في هذا الوقت بعينه؟! كأن حدسها الإيماني ألهمها بشيء ما.. هكذا يكون أصحاب الفضيلة.. الإيمانيون يُكشف عنهم الحجاب أمام أمور قد لا يدركها الآخرون..

طالت فترة الصمت بينهما.. مازالا حائرين يتساءلان في أنفسهما دون إفصاح.. يتبادلان النظرات.. وكأنهما يتحدثان بصمت أجوف..

بدأ منير يتكلم.. مازال يعلو وجهه بعض الاضطراب:

- كيف تؤمنين بهذه المقولة.. وهي تخالف مبادئك.. أعتقد أنك تنظرين إلى الحب على أنه شيء أعلى من أن يتجذر في الأرض..

- أنا قلت أني أؤمن بمقولات أوشو.. و لم أقل أني أؤمن بهذه العبارات بالذات و لكنها استوقفتني.. و أخذتني معها عبر مراحل التفكير.. و مع حيرتي وجدت أنه من الأفضل أن أتحدث معك بشأنها لعلي أهدأ..

- مادام أنك لا تؤمنين بها.. فما الذي أثار حيرتك؟!

- لا أعرف بالضبط و لكنها استوقفتني..

- أما أنا فأعتقد أنها على قدر كبير من الحقيقة.. الحب كالشجرة يحتاج إلى أرض طيبة لكي يتجذر و يتفرع و يثمر.. و هذا لا ينافي فضيلته.. لأنه يمسح على قلوبنا مسحة نقاء.. تجلي بصيرتنا لإدراك أشياء ما كنا نراها سابقا..

أخذ يسترسل في كلماته وهو ينظر إلى أوراقه.. وكأنه يخاطب هذه الأوراق لا يخاطب زوجته.. ظل يقول:

الحب ... ما أنبله من شعور! عندما تتذوقه لأول مرة في حياتك.. يكون له وقع خاص عليك.. أشبه بالطفل الذي ينطق كلمته لأول مرة.. يكون سعيدا رغم أنه لا يدرك.. و لا يعي.. و لكن هناك حركة ما بدأت تدب في أوصاله.. جعلته مختلفا.. يتوق إلى المزيد من الكلام بعد أن اهتدى إلى أول كلمة له.. و بعدها يبدأ في الانصات لصوته: هل هو حقيقة أم مجرد وهم؟ .. إذن .. ما هو الوهم؟! شعور لذيذ.. و خيال ندي.. يرحل بي عبر غموض مثير.. رغبة جامحة تجعلك تغلق على نفسك كل شيء إلا رؤاك الحالمة التي تجسد فيها خلوتك مع المحبوبة.. كما أراها الآن.. فإني أحيا معها في تلك الأغنية التي تجمع بين

كل حبيبين اتحدا في نغمة واحدة.. بل إني ألمحها في رقصة فرسان العصور الوسطى.. ألم يكن لكل فارس سيدة يضع عندها آماله؟! .. فها أنا يا سيدتي أضع بين حلمي بك غاية آمالي.. و قصيدتي التي لن تهمس إلا في أذنك أنت وحدك..

بعد عدة جمل سمعتها ماريا من زوجها منير.. أصابها ذهول لا يمكن أن يوصف.. ففرغت عن فيه.. و حملت أوراقها الفلسفية.. و تحركت بهدوء.. تمشي ببطء نحو باب الغرفة على أمل أن يستوقفها منير.. و لكنه لم يفعل.. فمازال يتمتم بجمل لا تفهمها.. و لا تعرف إلى من يوجهها.. لم تعد تسمع منها إلا همسا.. إلى أن خرجت من الحجرة.. و أغلقت الباب خلفها.. و ظلت مستندة إليه.. باهتة إلى درجة الموت...

obeikandl.com

رغبة متمردة...

فجأة فتحت عينيها بعد أن كانت مستقرة في النوم.. مازال الوقت مبكرا.. والظلام يملأ المكان..

سمعت دقات الساعة الخشبية القديمة المعلقة في الصالة.. تدق ثلاث دقات.. فعلمت أن الساعة الثالثة صباحا..

رحماك يا ربي! ما الذي جعلني أستيقظ في هذا الوقت من الليل؟! صوت الساعة أحدث في نفسي اضطرابا وأثار يقظتي..

تحاول أن تخمد صوت الأرق في عقلها تقول في نفسها: ارتاحي .. مازال الوقت باكرا.. أغمضي عينيك فقط.. وينتهي كل شيء..

لا جدوى.. أشعر بشيء ما تسلسل إلى صدري.. وهاجس يطن في أذني.. دعاني إليه فأسلمت له.. اخسئ يا لعين.. لماذا بين الحين والآخر تدعوني إليك؟ ظننت أني تغلبت عليك.. وها أنت تعود مجددا بعد أن جافيتني فترة من الزمن.. هذا الخيال الذي لا يبرح نفسي.. ويسيطر على كياني.. ما أقساه!

ما الذي حدث؟ من أين يأتي؟ ومن يدعوه؟ ولِمَ أستجيب له؟

لقد تعبت.. أرهقني كثيرا المثول أمامه..

شبح لا أدري له ملامحا.. باهت الوجه.. أشبه بالمومياء الآتية من تابوت مغلق منذ آلاف السنين.. محفور عليه: هنا يرقد جسد.. يفتقد إلى حياة حقيقية.. تراكم عليه التراب فعفر روحه.. وفجأة أراد أن يخرج للحياة.. خرج ثائرا خائفا.. اصطدم في كل شيء.. يبحث عن شيء مفقود.. يشعر بالنقص الملازم له.. فيدعو ضالته إليه ولكنها لا تستجيب.. يحس أن هناك فجوة ما متمثلة أمامه.. يخشى أن يسقط فيها.. يخرج منها دخان أبيض.. وصيحة تصم

لها الآذان.. تسوقني إليها.. وأقاوم بكل ما أملك من قوة..

ألطم على خدي.. وأشق صدري بيدي.. وإذا بقلبي ميت.. فأحمله بين يدي.. وأبكي عليه.. ولكن ما من دموع تنزل.. تتملكني رغبة بأن ألقي قلبي الذي أحمله بين يدي في هذه الفجوة.. لعلي أتخلص مما يؤرقني..

أشعر بدوار.. المكان يتحرك من حولي.. والأرض لا تثبت..

رباه ... ما هذا الخيال المخيف؟! أنظر الآن إلى الأحداث التي مرت بي سابقا.. لا يمكنني نسيانها.. وليس بيدي أن أتجاهلها.. الأفكار تتسلل وتهاجم.. فكرة تصارع فكرة.. وأخرى تخفف من روع أخرى.. صراع مخيف.. وقوى تجذبني في دائرة مغلقة.. دخلت إليها رغما عني.. وبعدها فقدت طريقي في التخلص منها.. كأنه مكان ملعون.. موجود في حيز ما من عقلي.. أو ربما قلبي.. فإنهما يسرعان.. العقل في التفكير.. والقلب في الخفقان.. و صور تمر أمام ناظري.. تصرخ و تضحك.. و تطرق بقوة.. وميض ضوء يبرق وينطفئ.. تحولت رأسي إلى قاعة فارغة خالية من أثاثها.. تحدث صدى يمزق أذني بمجرد أن تعبرها فكرة ما.. اختل ميزان الضمير.. أحيانا يطيش من فرط التفكير.. وأحيانا يذبل من ضعف همته.. عندما يعجز عن مجاراة مصيره..

لست أدري ... لِمَ أعاند نفسي وأحملها معاناة لا تحتمل؟! وكأننا منفصلان.. لا نتحد في قالب واحد.. أعادي نفسي وأدرك ذلك.. وأقسو عليها.. وأكاد أهلك من فرط قسوتي.. ولا أدري ... لِمَ أفعل بها هذا؟! أعرف أني أعذب نفسي عذابا أليما.. ولا أفطن إلى السر وراء هذا العذاب..

ربما أنه من سنن الحياة.. أن نخلق لأنفسنا العذاب الوهمي.. و نعيش حيرة لا أساس لها.. لمجرد أن نتعذب دون القيمة الأسمى للعذاب.. فأي معنى للعذاب إن لم يكن وراءه معنى نسعى إليه؟! إني أتعذب لأدرك قيمة السعادة.. أتعذب لأبحث عن الصفاء.. أتعذب لأجد نعيم الراحة.. إني أعرف أني لن أبلغ ذروة الهناء عن يقين إلا عندما أحيا مراحل العذاب.. فأنا أتعذب لأجل أن أصل إلى سكينتي.. فلن تأتي الطمأنينة إلا بعد قليل من الاضطراب.. وإلا كيف أهتدي إلى قيمة الشيء دون أن أجرب نقيضه..

ولكن أن أتعذب لمجرد العذاب.. وألا أعرف للأمان سبيلا.. فما أتعسني!

إني حقا لشقية شقاء لا نهاية له.. إنه خالد في نفسي بخلود يأسي وقنوطي عن إدراك سر هذا الألم الذي يحييني ويميتني في اليوم والليلة مرات ومرات..

صرخة خرجت منها تقول: هذا يكفي!! انتفضت انتفاضة محموم.. يشعر ببرودة تسري في جسده.. أشعر بالإعياء.. ما الذي انتابني؟! ولكني لست مريضة.. الأفضل أن أغير مكاني لتتغير حالتي..

خرجت إلى الصالة.. وجلست إلى الكرسي الكبير بجوار المدفأة المطفأة.. تعلقت عيناها بالساعة فترة من الوقت.. لماذا يداهمني الوقت؟! توقف أرجوك ولا تمض هباء.. كلما تحركت العقارب.. ومرت معها الثواني أشعر بقبضة تمسك بنبضات قلبي.. فيكاد أن ينخلع من بين الضلوع وأختنق في نفسي..

كل شيء يهون في نظري إلا أنت أيها الوقت.. فإنك عدوي الأكبر الذي أرهبه وأخشاه.. ولا أملك أن أطوعك وفق إرادتي.. أشعر أنك تتحداني.. أصبتني بصدمة لا أستطيع أن أفيق منها.. أو أني أخاف مواجهة ما مضى من عمري..

إني لأكره كلمة ذكريات.. فإن الذكرى بالنسبة لي هي ذاك الشبح الذي يلاحقني حتى يعيقني.. فلا أمضي حيث أريد.. يلازمني كظلي.. وينسج حولي خيوطا متشابكة فلا أفلت منه.. إن الذكرى من الماضي اللعين الذي لازال يجذبني إليه.. إذا ما أردت أن أتخلص منه..

لا أنكر أني حبيسة شيء ما أجهله.. صوت من بعيد.. صوت من الماضي يعيش في أعماقي.. حديثه لي مجهول.. لو أني أنبش ذاك المجهول لأقرأ دعاءه..

دعاء ... ليتني أملك القدرة على الدعاء.. فقد يكون فيه خلاصي ولكن جمود مشاعري حرمني أن الجأ إليه.. وأحتمي به.. وكأنه الشيطان أمسك بيدي إلى الوراء.. وأحكم قبضته عليها.. فشلت يداي عن الحركة.. فقدت القدرة على أن أرفعهما إلى أعلى.. فهما دائما متراخيتان أو مشدودتان إلى أسفل..

سمعت دعاء طائر الكروان يصدر صوتا عذبا.. ارتاحت له.. وهدأت عليه.. وتراخى جسدها ثم أزاحت الستار عن الشباك.. ونظرت إلى السماء لتشاهد ذاك الطائر.. ترقبه بحنين واشتياق.. كأنما كانا على موعد.. وطال الغياب..

ما أجمل حريتك أيها الطائر! ليتني أملك حرية التعبير عن نفسي.. كما أنت

تشدو.. و تبوح في فلك واسع الرحاب.. لا تخشى عتمة الفضاء كما أنا أخشى عتمة تسكن روحي.. تهيم في حب الله وتسبح بحمده.. وأنا هنا ماثلة أمام خداع الشيطان.. وتسلطه على نفسي..

أيها الفطن! من علمك هذه الحكمة وقد عجزت أنا عن إدراكها.. قالوا أن دعاءك هو: الملك لك يا صاحب الملك..

سأذهب لأعد فنجان قهوة كبير.. يبدو أني لن أعود للنوم.. ولا أريد أن أظل معلقة بين اليقظة والغفلة..

هدأت قليلا أثناء تناولها فنجان القهوة.. كانت تشربه ببطء.. وتحمله بكلتا يديها.. ولكنها ما زالت شاخصة.. تنظر إلى عقارب الساعة..

يارب سوف أجن من تعلقي المخيف بعقارب الساعة.. في كل ركن من أركان البيت وحتى في مكتب العمل لابد و أن توجد ساعة أنظر إليها.. يكاد عقلي يطيش من رهبتي التي أشعر بها تجاه الوقت..

فتحت دعاء المجلة الأدبية الموجودة على الطاولة بجوارها.. تقرأ فيها قليلا لعلها تطرد هذا الهاجس.. تقلب صفحاتها على غير هدى.. وقعت عيناها على صفحة عنوانها حديث الروح فقرأت فيها:

إلى الروح المطمئنة في نفسي.. و التي طالما عذبتني ونال مني أنينها.. و كم غابت عني وافتقدتها..

إلى النبض الساكن بين أضلعي.. والذي عانى كثيرا من طيش مخاوفي.. إلى أن احتواه فؤاد الإيمان..

إلى تلك المسحة الكئيبة التي روعت من فكري.. فأبى أن يتوافق ورؤى المنطق.. وظل جامحا في فراغ مقفر..

إلى من يريد أن يحيا بعيدا عن صراع النفس المخجل.. الذي يتوارى خلف فكر مضطرب.. ودموع مخنوقة يشتد بها الريح في ليل عاصف..

في هذه الصفحة المسطرة بحديث الروح.. نلتقي سويا لنصنع من الضياع حالة من الاستقرار والثبات..

من هنا أخاطب الروح التي تحس الضياع لتبصر نور الأمان..

توقفت دعاء عن القراءة.. تحس وكأن هذه المقالة تخاطب نفسها.. رغبة

ما تملكتها في أن تكتب إلى هذه السيدة صاحبة صفحة حديث الروح.. وقبل أن تفقد رغبتها وتزول عنها.. أمسكت بقلم وورقة وبدأت تكتب.. كانت يداها ترتعشان.. وكأنهما تكشفان عن سر خفي مجهول.. ما فكرت يوما أن تميط عنه اللثام.. ولا تدري لِمَ الآن تزيح عنه الستار..

عنونتْ رسالتها بجملة جاذبة:

رسالة تحتاج إلى إمعان النظر فيها...

إلى السيدة الفاضلة صاحبة صفحة حديث الروح .. كل التقدير لك.. ولحديثك الأخاذ.. ولرقي صفحتك..

أما بعد..

فحديثي إليك لا أعلم إن كان نابعا من الروح.. أم من نفس ممزقة تحس الضياع المبين.. ولا تدري العلة..

أنا دعاء.. فتاة شبه ضائعة.. ضائعة بين مخاوفها.. أعيش وحدي في بيتي القديم الذي ورثته عن والدي.. كل ما فيه لا يتغير بل أحتفظ به كما هو.. الأثاث مرتب منذ أن وضع في مكانه حتى هذه اللحظة التي أكتب لك فيها.. ربما تتعجبين لِمَ أذكر لك أثاث منزلي؟! .. ربما لأني أحتاج إلى أن ألفت نظرك إلى أن هناك ساعة قديمة من ضمن أثاث البيت.. أتعلق بها كثيرا.. لابد وأن أنظر إليها.. بل إني أطيل النظر إليها.. وأجلس بالساعات مشدوهة إلى عقاربها حتى أفيق على دقاتها.. ولا أعرف سر هذا التعلق الذي أعتبره تعلقا مرضيا.. أحب شكلها الأصيل لأنه يذكرني بالزمن القديم.. زمن كنت أتمنى أن أعيش فيه.. رغم أنه يختلف عن طبيعتي.. المهم.. إن ما يعذب روحي ويرهقني معه هو أني أفكر أكثر من اللازم.. أفكر تفكيرا مضطربا.. لا أعرف سبب اضطرابه ولكني أحسه وأبغضه لأنه يشعرني بالعجز.. رغم أني لست عاجزة.. بل إني أملك شخصية قوية.. وإرادة لا تقهر.. كل ما أخطط له أفعله.. فإن أصبت أصابني الغرور.. غرور ماكر له شعور لذيذ.. وإن أخطأت لا أشعر بالندم.. ربما شيء من الغيظ ليس أكثر.. ومع ذلك شيء ما يسيطر علي.. شيء مكنون في أعماقي.. أشعره يدور بداخلي.. يحدث لي دوارا فكريا ونفسيا.. أحيانا أعيش فيه دون وعي.. وأفيق منه دون وعي.. كغيبوبة مرضية تأتي فجأة.. ولا تنفعها

أي إسعافات سوى إرادة المريض في أن ينجو بنفسه.. يظل يقاوم ويقاوم حتى يتخلص منها ثم يستغرب: كيف نجوت؟!

حتى لا أطيل عليك.. إني أتعذب لشيء ما لا أدركه.. هو يسكن بداخلي.. ولا يبرح مكانه.. قد يغفو ولكنه يعاود أنينه.. ولقد تحديته مرارا بأن أتغلب عليه ولكن دون جدوى.. علما بأن دراستي في علم النفس.. ولكن ما استطاعت أن تنقذني مما أعانيه.. قرأت في كتب علم النفس كل ما يخص حالتي.. وحاولت ان أطبق مبادئ علم النفس لأتخلص من عقدتي.. ولكن مفاتيح العلم لم تجد مدخلا إلى ذاتي.. كما أني لا أحب أن أخبر أحدا عن حياتي الخاصة.. غير أنه لا يوجد في نظري من يستحق أن أبوح له.. ولا أعلم لِمَ اخترتك أنت لكي أحكي لك عما يجول بخاطري؟! ..

جذبني إليك حسك الحزين.. أو ربما أنه هناك شيء مشترك بيننا.. تلاقى في عالم الأرواح.. عندي شعور قوي أنك ستفهمين ما أعني.. وستدركين كم أقاسي.. و لكني غير متيقنة أبإمكانك مساعدتي؟! أم أن لحديثك حلاوة لا تدوم.. ينقطع أثرها بعد قليل من تذوقها.. أنت من ستقررين الأمر..

إمضاء

دعاء

خرجت دعاء إلى عملها.. تحمل في حقيبتها الرسالة التي سوف ترسلها إلى مجلة آداب.. تدفعها قوى خفية في أن يطلع أحد على ما يؤرقها.. فقد ضاقت نفسها بما تكنه.. وترغب في أن تتخلص منه.. ولم تجد طريقة غير أن تعبر عما بداخلها دون أن تشعر بالخجل من أن يقرأ أحد معاناتها.. فصاحبة الرسالة مجهولة حتى وإن كتبت اسمها.. فمن تكون دعاء.. لا أحد يعرف.. كما أنها بعد ما كتبت رسالتها.. شعرت بارتياح لم تعهده.. أزاح عنها ما يثقل شعورها..

كانت تفكر أثناء سيرها إلى صندوق بريد المجلة:

هل حقا ستهتم بما كتبت في رسالتي .. أم ستنظر إليها على أني إنسانة مريضة نفسيا تحتاج إلى طبيب نفسي؟ وعندما ترد على رسالتي .. هل لي أن أقتنع بما كتبت؟ هل سيلامس أحاسيسي؟ أم أني سأسخر منه كعادتي عندما أحقر من شأن كل شيء.. سأنتظر إلى أن أرى وعندها سأوقن بالأمر..

ظلت دعاء تمشي وهى حائرة حتى فقدت طريقها إلى صندوق البريد.. كما فقدت طريق عملها.. فقد سلكت طريقا آخر غير الذي اعتادته.. إنها تمقت هذا العمل الذي يمكنها من حل مشاكل الغير في الوقت الذي تعجز فيه عن مساعدة نفسها..

اتجهت دعاء ناحية الكورنيش.. تمشي ببطء على غير عادتها.. بخطى مضطربة.. فمن عادتها أن تمشي بخطوات منتظمة.. تتبع نظراتها طريقا مستقيما.. لا تحيد عنه ولا تعرف تأرجحا في سيرها عليه.. فهي كالخط المستقيم الذي لا يقبل انحناء عند زاوية معينة..

و دون أن تدري وجدت نفسها تدخل إلى مقهى سلسبيل.. جلست فيه فترة من الزمن.. لأنها لا تعرف ماذا تفعل في هذا الوقت.. فمن المفروض أنه وقت العمل.. وقد اعتادت أن تعمل فيه.. أو تقرأ في علم النفس لتزداد خبرة.. تثقلها في مجال عملها أو تعد بحثا ما يخدم حياتها العملية.. أما في هذا الوقت بالذات فقد انفصلت عن نفسها.. و تقوم بأفعال ليست من طبيعتها..

ربما الحنين الذي تفرضه الطبيعة الإنسانية على المرء عندما ترغب في التغيير.. حنين إلى عدة أفعال حرمتها على نفسي ولا أعلم العلة في حرمتها.. غير أنها قرارات قاسية اتخذها قانون عقلي الصارم.. الذي لا يرغب في أي مجادلة قد تدفعه إلى أن يعيد النظر.. وهو يرى أن في ذلك هلاكه.. أو ربما أنه فقه حديث تمليه علينا رغبتنا في منهج لا يقبل تغيير..

طلبت دعاء لنفسها فطارا خفيفا.. مع بعض القهوة.. ومازالت تحدث نفسها حديث المفتقد لمن يسمعه.. فاتخذ من نفسه ذاتا أخرى يدير معها حوارا.. لا يرغب في الافصاح عنه ولكنه مضطر إلى أن يحادث نفسه قائلا:

إن الأدب أشبه بالسحر الذي يسلب المرء وجدانه.. و مالي أنا والأدب.. فأنا لا أؤمن إلا بالمواقف العملية.. والأدب شيء هزلي.. لا يتماشى و طبيعتي.. ولا يشبع غاياتي.. بِمَ ستجدي معي العبارات الأدبية؟! طالما أني لا أؤمن بها..

الأدب مكانه في الروايات لا يبرحها.. فهو معلق بغلافها بل إنه يغلق عندما نكتفي من قراءة الرواية.. ونضعها في مكانها المقدس خشية أن تفقد بريقها إذا ما تصادمت والعقل..

لا تفكري مرة أخرى في مثل هذا الهراء الذي أقدمت عليه.. وإياك أن تطلعي أحدا على أمريخصك.. لقد اعتدت الانغلاق.. فاحذري أن تنفتحي على الآخرين..

لن أضيع وقتي فيما يسمونه حديث الروح.. وهل للروح حديث؟!

إن ما يعمل ويفكر هو العقل.. وحده فقط يستطيع أن يسير الأمور بحكمة.. دون أن يحيد عن الواقع.. ويغرق بي في عالم لا وجود له.. عالم المثاليات الذي لا يؤتي ثماره في ظل المادية التي نحياها.. وهل يتوافق عصرنا الحالي وعالم الأرواح؟!

وهل أنا أملك الروح؟! إن غاية ما أدركه عني أني متبلدة الشعور.. لا تثيرني الكلمات المرهفة.. والعبارات الدافئة.. ولا أميل إلى العواطف الأفلاطونية..

الحقائق والوقائع فقط هي ما أؤمن به.. وأعتقد في أن القيم الإنسانية المثلى هي قمة المأساة.. فهي تضع المرء على حافة الواقع المؤلم.. وتنجرف به إلى..... وذهلت دعاء حتى عن حديث صمتها.. ظانة أنه الضياع المبين.. أو هذيان الجنون...

obeikandl.com

غيوم في معبد الحياة...

أيتها السماء امتلئي غيوما كهذي الغيوم التي تملأ نفسي حتى أحسب أن هناك من تشبهني في يأسي.. غير أن غيومك رحمة من الله أما غيومي فلا أدري إن كانت ابتلاء من الرب أم أنها من خداع الشيطان..

أيتها الآثام لِمَ تقتربين مني وإني لامرأة مؤمنة؟!

أشعر أن هناك عقاب يحل بي.. ولا أدري أي جرم اقترفته؟!.. وقد وهبت حياتي لإيماني..

وهل كان على أن حيا حياة أقل من حياتي الإيمانية لكي أشعر بالسعادة؟! ظننت أن منتهى سعادتي يكمن في إيماني ولكني الأن أكاد أن أفقد إيماني بهذه القيمة التي عشت من أجلها عمري.. فإنها لم تستطع أن تنقذني من حالة الضياع التي أعيشها الأن في حياتي الزوجية..

زوجي يتعلق بامرأة غيري.. والكارثة أنها ليست من دينه.. نسي مبادئه.. وأغفل قيمه من أجل امرأة.. هانت عشرتنا من أجل امرأة.. عرف معنى الحب مع غيري.. أي أنه لم يكن يحبني.. وإلا .. كيف يمكنه أن يجمع في قلبه حبا منقسما بين امرأتين؟! .. لابد و أن يعطي إحدانا نصيبا أكبر.. لا يمكنه أن يوازن.. ستغلبه مشاعره تجاه واحدة منا.. ستحمله أحاسيسه لتكون من أجلها.. مادام أنها ملكت عليه نفسه حتى أنسته وجودي وأنا أجلس معه أحادثه عن أحاسيسي..

كيف تجاهلني ولم يقدروجودي؟! .. كان له أن يخفي مشاعره حتى لا يجرح كرامتي.. لقد هنت عليه لدرجة أنه لم يعد يطيق وجودي.. ولم يهمه أن يراعي كرامتي..

لا أعرف لماذا أشعر في هذه اللحظة بالذات بغربة عميقة؟! .. كأني لست أنا.. وكأنه ليس زوجي.. وهل من المعقول أن يغترب المرء عن نفسه لذنب ليس له؟! هل تنهار الحياة لموقف واحد؟! وما مصير الذكريات هنا؟! كنت أظنها الأساس الذي بنيت عليه بيتي.. فكل ركن له حدث في نفسي.. أموقف واحد مؤلم كفيل بأن يطيح بكل مواقف حياتي التي رسمت نهج مصيرنا؟!

مدت يدها إلى مرآتها تنزع عنها سلسلتها الذهبية.. تنظر إليها بحقد غريب ما اعتادته.. تخاطبها هامسة:

لماذا تخليت عني؟! وقد قدستك كل هذا التقديس حتى أني اعتبرتك عناية الرب لنا.. لِمَ لم تحملي عني آلامي وتنقذيني من ضياعي؟! لقد أمنت بك إيمانا منزها.. وتصمتين وكأنك لا تعرفينني..

أأحطمك وأحطم معك كل مبادئي؟! .. أم أظل مخدوعة ببريقك الذي لا ينطفئ؟!

لم يعد لك مكان في حياتي.. سوف أتخلى عنك كما تركتني لمصيري المشؤم.. مكانك هنا بين الأشياء المبعثرة المهملة..

تركت ماريا السلسلة من يدها حتى سقطت على الأرض.. وظلت شاخصة إلى مرآتها تنظر بعمق.. وكأنها تبحث عن شيء.. وإذا فجأة يمتد شرخ طويل في المرآة.. وتسقط قطعة منها على الأرض محطمة متناثرة.. حجبت معها جزءا من وجهها لم تعد تراه..

ارتدت ماريا زيها الأسود.. وخرجت إلى الكنيسة الإنجيلية التي تؤمن بمذهبا إيمان الأعمى الذي يؤمن ببصيرته أكثر من بصره.. إن الأضواء المسائية للمكان أرسلت إليها بعض طمأنينتها.. وعندما دخلت اتجهت لتشعل شمعة.. كانت تنظر إلى الدخان المتصاعد من لهيبها على أنه شبح يطاردها.. وأمام صورة مريم العذراء وكان لأول مرة في حياتها الإيمانية والدنيوية تبكي.. أرسلت دموعها بحرارة قلبها.. دموع كانت تتساقط على شفاه لم تتذوق طعم الدموع..

يا مريم المقدسة أنقذيني مما أنا فيه.. بالله عليك أدركيني.. لقد ضللت الطريق فأسألك الهداية.. أنت أيتها الطاهرة بإمكانك أن تأخذي بيدي.. فأنت تعلمين بحالي.. ولابد لك أن تساعديني.. فمن لي سواك تحس خديعة المرأة..

وقد تعرضت سابقا للإيذاء.. وتجرعت مرارة الإهانة..

كدت أن أفقد مبادئ إيماني لما أحدثه بي زوجي.. إنه يرتكب خطأ عظيما في حقي.. وفي حق ديننا.. فماذا عساي أن أفعل معه؟! إني أخشى عليه غضب الرب.. إنه لا يستحق ذلك.. لقد كان إيمانه عميقا.. ولا أدرك ما الذي جرى له..

شعرت ماريا بأن عيني مريم المقدسة تلمعان.. وكأن دموعها حبيسة تريد أن تخرج ولكن شيء ما يمنعها..

إنك تبكين لأجلي أم لأمر آخر؟! إذن .. لِمَ لا تستطيعين مساعدتي؟! أرجوك تحدثي إلي.. ألست تملكين من المعجزات ما يجعلك تخرجين بعيدا عن هذه الصورة الصماء التي تحبسك بداخلها؟! .. فاظهري لي الآن وأخبريني: لِمَ حدث لي ذلك؟ لِمَ لم ينفعني إيماني؟! .. ولِمَ لم ينقذني مما أنا فيه؟! أأخطأت فهم الإيمان أم أني أخطأت تطبيقه؟ فمن أجل ذلك يعاقبني الرب..! وهل الرب يقف لنا على أخطائنا لينتقم منا؟ أي قسوة أحسها الآن قد نزلت علي؟!

عادت ماريا إلى منزلها.. ودخلت إلى غرفت زوجها.. تريد أن تقرأ ثانية تلك الأوراق التي كتبها زوجها عن حبيبته.. فقد كان منيريجلس كثيرا في فترة المساء.. ليلتقي في خلوته مع هند.. أصبحت هذه الخلوة بالنسبة له شيئا مقدسا.. رغم أنها تحدث في خياله فقط.. كان يقرأ ما كانت تكتبه في المجلة الأدبية من مقالات ونصوص.. ثم يحلق بعيدا معها في خيال لهما وحدهما.. يقول فيه كل ما يريد أن يقوله.. ويكتب في أوراقه رؤاه الحالمة لها..

لاحظت ماريا منذ لقائها معه.. ذاك اللقاء الذي أفصح فيه عن امرأته ولم ينتبه.. لاحظت حرصه على هذه العزلة التي أعدها لنفسه.. فأرادت أن تخترقها ولكن هذه المرة دون وجوده.. فانتهزت فرصة تواجده خارج المنزل.. ودخلت إلى مكتبه.. وأخرجت من الدرج مجموعة الأوراق التي يدون فيها حكايته.. وأخذت تقرأ.. فعلمت كل شيء عن هذه المحبوبة كما صورها خياله.. ووجدت أنه يحتفظ بأعداد من المجلة الأدبية في درجه.. فأخذتها تقلب فيها.. لتقرأ ما تكتبه تلك المرأة.. وكلما كانت تقرأ كانت تشعر وكأن أحدا يشدها إلى الوراء حتى انهارت.. وأخذت تظهر نقمها على كل مبادئها التي ما استطاعت أن تعفيها من الوقوف في موقف كهذا..

وعندما عادت إلى الأوراق ثانية لم تستطع أن تقرأها.. حمل ثقيل تحسه في صدرها كلما نظرت إليها.. كما أن دموعها حجبت عنها الأحرف والكلمات.. فقد تساقطت لتشوه حبر الورق وتمحو بعض معانيه..

وعندما كانت تعاني ماريا مع الأوراق.. دخل زوجها منير ليجدها في مواجهة مع ما كتبه قلمه.. فنظر إليها نظرة اعتذار وقال لها:

- لم أشأ ابدا أن أضعك في هذا الموقف.. إني حقا أسف..

سادت بينهما فترة صمت.. لم يعرفا ماذا يقولان.. حاول منير أن يقترب منها.. فتحرك حركات بطيئة ناحية المكتب ثم توقف.. وهى مازالت في الحالة نفسها من الذهول التي تصاحبها دموع امرأة غلبت على أمرها..

وبصوت مخنوق قالت له:

أين عمري؟!

فأجابها في لوعة الحبيب الذي خذله حبيبه:

- للأسف .. لقد كان ولم يكن..

وفي قمة انفعالها وبكل ما تملك المرأة من قوي للدفاع عن جُرحها قالت له:

- لا تقل لي للأسف.. لا تأسف على حياتي التي أعطيتها لك.. فأنت لا يمكنك أن تقدر ماذا تعني هذه الحياة بالنسبة لي.. إنه العمر الضال الذي عشت أسيرته.. وكنت أظن أني من المهتدين..

فأخفق رأسه إلى الأرض بهدوئه المعتاد.. وكأن ثورتها لم تجد معه.. لقد تأخرت عن موعدها.. ولا ينفع الندم..

قال لها وما زال ينظر إلى الأرض:

ليس الأمر كما تظنين.. إنه فقط في خيالي.. ولم يتجاوز الأمر ذلك..

- لا يعنيني إن كان خيالا أم حقيقة.. إن ما يؤلمني حقا هو تلك الرذيلة التي اقترفتها..

- أي رذيلة تتحدثين عنها؟! اهبطي قليلا من عليائك.. ولا تحيلي الأمر إلى دفاع ديني أقدمه أمام الآلهة..

أنا لا أجلس الآن على كرسي الاعتراف.. أقر بذنبي لتغفري لي بل إني على يقين من شعوري.. ولا أنظر إليه مطلقا على أنه خطيئة..

- كيف تجرؤ على هذا؟!

- إن كنت تعتبرين الحب رذيلة.. فهو غاية فضيلتي..

- أنا لا أقصد هذا بالتحديد..

- أما إن كنت ترين أني مذنب لأني أحب امرأة ليست من ديني فأقول لك: إن الحب أعلى من أي صراع موجود على الأرض..

- ألهذا الحد أنت تحب؟! وتدافع عن حبك حتى وإن كلفك الأمر الكفر..

- الكفر!!! إنه العصيان ولكني لم أصل إلى درجة الكفر.. قد أكون عاصيا ولكني أبدا لم أكفر.. وكوني على يقين أن إيماني لن يتعارض مع حبي.. إن كان هذا هو كل ما يهمك..

- لست أملك من أمري شيئا ... لقد حطمت بحماقتك تلك الصورة المقدسة التي يعرفها عني الجميع ... لقد انهار معبد الحياة الذي أسسته لنا..

- لم أكن يوما ذاك الكاهن الذي يحاسب الناس على أخطائها.. ويتناسى أن يقر هو بذنبه لأنه يعيش حالة من التقمص الإلهي على الأرض.. أنا لم أخدعك.. ولم أزيف الحقائق.. فأنت تعلمين أني من البشر ولكنك تريدين إلها..

- إنك ليس أكثر من مجرد مخادع سلبني أغلى ما أملك..

- ألا وهو؟!

- إيماني!!

- تقصدين كيانك..

فلا بأس أن تعرفي قليلا من الضياع الذي عرفته أنا منذ أن أبعدتني عنك بسبب هذا الإيمان الذي تتحدثين عنه.. إنك حقا مؤمنة.. وأنا كافر.. كافر بكل ما تحيطين به نفسك من هذه الهالة التي جعلت منك مريم المقدسة.. وجعلت مني يهوذا الذي خان عهده.. فاحكمي على بالموت صلبا في معبدك.. ولكن أرجوك لا تحملي عني خطاياي.. فأنا لا أريد لأحد أن يغير مصيري الذي اخترته لنفسي .. وهذا قراري..

و مازلت أبحث عن عاطفتي...

إني أحتاج إلى تلك العاطفة التي تجعل من المرأة كيانا مختلفا.. ذاك الكيان الذي نبحث عنه في أساطير الزمن الجميل أو في خيال خصب تملؤه المروج الخضراء وتغريد الطيور.. نبحث عنه ونحسبه بعيدا وهو جزء من تكويننا.. موجود كطيف عجيب يذهلنا مروره رغم احتياجنا إليه..

فأي معنى للحياة..؟! إن لم أصنع لنفسي كيانا.. يحمل بداخله تلك الحياة التي أعدها من قيمي و مشاعري.. إنه عمري أنا.. فلِمَ أتركه وحيدا؟!

لن أكون امرأة بما تحمله الكلمة من معنى إلا عندما أغذي مشاعري بتلك العاطفة النبيلة والتي بدونها أفقد معنى أن أكون امرأة ليس لها ذاك الكيان الجميل الذي يتوجها على عرش الأنوثة..

ولكني عاجزة.. ويكاد عجزي ينال مني.. فمع كل أمل أحسه و أسعى وراءه.. تأتيني خيبة الأمل لتقول لي: قفي هنا.. فهذه حدودك.. لا تتخطها.. ليس لك حق..

ألست امرأة لها قلب ينبض .. وفؤاد له جوارح تسألني المشاعر؟! إذن فمن له أن يأخذ مني كياني.. من له أن يحرمني أن أكون امرأة لها أحاسيسها الخاصة التي تنسيها أي حقد يحرمها الحياة.. إني لا أكتب كلماتي لأعذب نفسي ولكن لأجد الكيان الذي أتمناه.. وعشت أقتفي أثره.. فربما من هذه العبارات أهتدي إلى ضالتي.. إن عجزي الحقيقي هو عدم قدرتي على مواجهة ذاتي.. عند ما لا أجد نفسي.. وأتوه بين الآلام التي أهيئها موطنا لنبضي.. إنه حقا يوم طويل جدا ذلك اليوم الذي أفقد فيه قدرتي على التواصل مع نفسي.. فلكي أكون ما أريد لابد و أن أجالس نفسي ولو لدقائق.. أصارحها فيها بحقيقة

شعوري الدفين والذي لا يدري به إلا الله..

فتحملي يا نفسي ضياعي.. وجاهدي.. واعلمي أني لن أنجو إلا بك.. فجميل هو الشعور الذي يجمعني بك.. ويردك إلي في لحظات أرادت أن تبرأ من اليأس..

أيها الكيان الذي أحمله بين جنبي.. إني أتحدث إليك لتعلم أني صنعتك من دموعي.. وما أغلى هذه الدموع! إنها دموع امرأة تمردت.. وأعلنت العصيان.. لتحيا بكرامة تحفظ لها كيانها.. وتجعل منها نبيلة من نبلاء عصر لم أعشه بجسدي.. ولكنه كبريائي الذي حملني لأرحل إلى دنيا غير دنيتي.. وأتقمص دورا ليس لي ولكنه لامرأة كنت أتمنى أن أكون هى.. ولأن قدري أحال دون ذلك.. فصنعت من خيالي زيا جميلا.. جملته بأقيم الجواهر.. وأغلى الأمالي.. وارتديته أحس أنه صنع لأجلي أنا.. وليس لأجلها هى.. وهكذا كان كياني الذي أردته..

قرأت ماريا مقالة هند الأدبية.. وشيء ما يؤلمها.. وكأن الدموع التي تحدثت عنها الكاتبة هي دموعها.. فذاك الحزن الذي تناقلته كلمات المقالة.. انتقل إليها.. وخيم على ملامحها.. وكأنها هي كاتبة الرسالة وليست تلك المرأة التي كانت سببا في جرح كيانها..

ولكن الكلمات تلامس نفسي.. وكأنها تتحدث عني.. إن لها من الحزن ما يؤثر الوجدان.. ألهذا هو تعلق بها؟!

إن من تتحدث عن المرأة على هذا النحو.. لابد وأن تكون على دراية بتلك الكتلة من المشاعر الكامنة في ذات المرأة..

لقد واتتني فكرة ... لست أدري إن كانت صائبة.. ولكنها تسيطر على تفكيري.. وتخالج كياني بأن أفعلها.. إني أرغب في رؤية هذه المرأة.. لأرى سر جاذبيتها الذي كاد أن يهلكني معه.. ويحطم إيماني.. إيماني بذاك الكيان الذي تتحدث عنه في مقالتها..

أصحيح أني أفتقد نفسي كامرأة لها أنوثتها.. إن كوني امرأة مؤمنة أحال بيني وبين عاطفة جميلة اسمها الحب..

إني لست مثلك يا هند.. أنت جعلت من كيانك امرأة تشبه النبيلات.. أما أنا فصنعت من نفسي امرأة تشبه الراهبات.. ولم أكن يوما كراهبة.. فالراهبة قد وهبت عمرها للرب.. أما أنا فقد اعتبرت حياتي الزوجية هي معبدي المقدس

الذي لا أبرحه.. و فجأة تصدع هذا المعبد.. وكاد أن ينهار.. ولا أدري إلى من أوجه لومي.. ولكن يبدو في النهاية أني أنا التي جعلت المعبد يصاب بهزة عنيفة.. أغفلت أن أساس المعبد لم يكتمل بعد.. فقد كان يفتقد إلى ركن أساسي.. ليتحمل كوارث الأقدار.. ركن كفيل بأن يصمد لأن يجتاز أي محنة قد تمر بنا..

ذهبت ماريا إلى هند في بيتها.. لتتعرف إليها.. وعندما رأتها رقت لها..

قدمت نفسها على أنها قارئة من قرائها.. جاءت لتدلي بإعجابها بمقالاتها الأدبية.. خاصة تلك المقالة التي تتحدث عن كيان المرأة.. ولتقول لها لقد أثرت في حياتي بشكل لم أكن أتوقعه..

كان في كلامها غموض أثار فضول هند لأن تشك في أمر هذه المرأة.. فهو ليس مجرد لقاء عادي و لكن وراءه هدف ما.. هكذا قال لها شعور خفي.. شعور المرأة الفطنة عندما تدرك بحدسها ما وراء المجهول..

كانت هند قد استقبلت ماريا في غرفة مكتبها الذي اعتبرته مكان عملها.. فمنه اكتسبت ثقة الأستاذ منير رئيس تحرير الجريدة لأن يمنحها التوقيع باسمها تحت مقالاتها وموضوعاتها التي لم تخرج عن نطاق الأدب والفلسفة..

بدأت هند حديثها مع الضيفة المجهولة بهدوء الذي يحادث نفسه وليس غيره.. قالت لها وهي ترسم ابتسامتها على وجهها:

- لدي شعور خفي بأني أعرفك..

- لا أعتقد هذا ولكن أنا التي تعرفك جيدا..

- وكيف هذا؟!

- قرأت لك بعض مقالاتك.. ولقد أثرت إعجابي بحسك الحزين حتى أني تساءلت بيني وبين نفسي عن هذا الحزن الذي كنت ألمحه مع كل مقالة أدبية أقرأها لك.. وأعتقد أني الآن فهمت..

- وهل ترين أن في ذلك ما يعيبني أو يجعلني أتوقف عن عملي ككاتبة؟!

- وهل الكاتب يملك جسدا أم قلما؟!! إن الكاتب الحقيقي هو الذي يستطيع بعقله ورجاحة فكره أن يملك على القارئ كيانه..

وبمناسبة الحديث عن الكيان لقد أعجبني مقالك عن كيان المرأة.. ذاك المقال الذي تحدثت فيه عن تلك العاطفة النبيلة التي بدونها تفقد المرأة

أنوثتها..

- وما الذي أثار اهتمامك إليه؟ أترين أنه كان يخاطب شيئا ما في نفسك؟ .. أم لأنه موضوع يتعلق بالمرأة..

- أعترف لك أنه مس وترا مجروحا في نفسي.. ليس من عادتي أن أبوح.. ولكن...

وسكتت ماريا عن الكلام.. ورحلت بعينها بعيدا.. تتذكر أمرا ما..

قاطعتها هند وهى تنظر إليها نظرة المحلل النفسي الذي كاد أن يكشف خبايا مريضه ويستدرجه ليطمئن إليه قائلة:

- إني مثلك تماما لا أحب أن أحكي لأحد عن مشاعري.. فأنا أعتبرها شيئا مقدسا لا يجوز أن تتعرى أمام الغير.. ولكني لا أطلق الحكم.. لأن لدي إيمان بأني أحتاج إلى من يسمعني و يفهمني و يحتويني.. و أعرف أن هناك من هن مثلي.. و لذلك فكرت في إعداد صفحة في مجلة آداب و فنون.. أطلقت عليها حديث الروح.. و قد نالت من الإعجاب ما جعلني أوقن أني قد نجحت.. فقد وجدت على صفحاتها أحاديث تأن.. و أرواح معذبة.. و أنفس مغتربة.. تحتاج إلى بارقة أمل.. و صدر يتسع لأن يتقاسم معها دعاءها..

إني في أغلب مقالاتي تحدثت عن نفسي.. و عن جزء من إيماني و قيمي.. و كنت أنتظر التعليقات بنفس متلهفة.. فما أجمل أن تجدي من يفتح لك ذراعه و يضمك و لو بمجرد كلمات معبرة!

كانت ماريا تنظر إلى هند.. و تشعر بخيبة أمل تطاردها.. إنها حقا تستحق كل تقدير و احترام.. و من له أن يرى كل هذا الجمال و العقل يجتمع في امرأة و يمكنه أن يقاوم..

إن لديها إيمان مثل الذي لدي.. إذن لست وحدي امرأة مؤمنة.. فهناك أخريات ربما هن أفضل مني إيمانا.. غير أن مفهومي عن الإيمان يختلف.. و من هنا كانت الفجوة التي أحسها الآن..

إن إيمانها صنع منها امرأة يمكنها أن تقهر عجزها.. أما أنا فأصبحت عاجزة.. لأني ظننت أني مؤمنة إيمانا لا يقبل تفاوتا..

- مازالت شاردة تتحدثين مع نفسك.. إنه لا يوجد أروع من حديث النفس..

لو أننا أفسحنا المجال لأنفسنا في لقاء صادق مع النفس لتغيرت كثيرا حياتنا.. ولرأينا أشياء موجودة في مكان ما بداخلنا ما كنا نراها من قبل..

- أصدقك القول: إني أتيتك لتسدي لي خدمة.. و ثقي تماما أني ما كنت أطلب منك ذلك لولا أني وجدت فيك ما كنت أبحث عنه في نفسي حتى قبل أن أراك..

- كيف لي أن أساعد أول صديقة لي..

- وهل أنا صديقتك؟! اتخذت مني صديقة دون أن تسأليني الرأي..

- الصداقة الحقيقية لا تحتاج إلى إفصاح.. ما أشعره نحوك منذ أن رأيتك جعلني أثق بأن هناك أشياء تجمع بيننا مثل تلاقي الأرواح في عالم الفضيلة..

- لا أدري ما أقوله لك.. ليس لدي صديقات مثلك تماما.. و يسعدني أن نكون صديقتين..

- ألم أقل لك أن هناك أشياء مشتركة بيننا؟!

- يبدو أن لديك فراسة.. وهبة ربانية.. وإلهام الشعراء..

- إني الآن مصغية إليك.. على يقين بأن أمرك يحتاج إلى روية حتى تستطيعي تصحيح الأمور..

- أريد أن أكتب مقالة أدبية في صفحتك حديث الروح.. إن هذه المقالة موجهة إلى زوجي.. بإمكانه أن يعرف أنها مقالتي.. فهو يعرف أسلوبي.. ويعرف قيمي.. ويمكنه مما أكتبه أن يهتدي إلى روحي.. وسأمنحه بعض الرموز التي بها يدرك أني كاتبة الرسالة.. كما أني أرغب أن أختم رسالتي بإمضائي.. فما رأيك؟

- وهو كذلك عزيزتي.. ولكن أليس من حقي أن أعرف ما هو اسم صديقتي الوحيدة؟!

- ماريا .. ماريا صادق.. وهذه هي رسالتي .. إني حقا عاجزة عن الشكر..

ثم قالت هامسة: سبحان الله!! إن الإنسانة التي جعلت مني امرأة شقية.. تمد يدها لتعيد إلي حياتي .. يا لصنيع الأقدار!

يا ربي! لم أعد أدري ما الذي يحدث لي؟! إن حياتي تجري على غير إرادتي.. لِمَ تعاندني أقداري؟! إنها تتصرف وفق إنسانة أخرى تختلف عني..

لم أعد تلك المرأة المؤمنة التي كنت أظنها.. أليس من الإيمان الرضا

بالقضاء والقدر؟! ولكني ساخطة.. فأي إيمان هذا الذي أتصوره؟! إنه خداع الشيطان ولاشك..

إن رأسي مشوش.. وصدري ضيق.. إني في مواجهة مع قيمة التسامح التي تعلمتها.. وحاولت غرسها في غيري.. ولكم قسوت على من أخبرني بعدم قدرته على أن يسامح من أخطأ في حقه.. ولكم عنفته وقلت له: إن إيمانك لضعيف.. ويحتاج إلى تزكية للروح..

وها أنا الأن أقف من التسامح موقف المعارض الذي لا يعرف تنازلا وإن فقد إيمانه.. لا يمكنني أن أزكي روحي.. و أجعلها تغفروتسامح..

إن الجرح الذي في قلبي عميق وينزف.. ولن يندمل أبدا.. هناك جروح لا تلتئم.. إنها تظل موجودة.. لا يمكن لأي عوامل أن تمحوها أو تغطيها.. تبقى آثارها تستوطن الذاكرة.. تحوّل بين نبض الفؤاد وصفائه...

obeikandl.com

حكمة اليوم...

لم أكن أدري بأن الدنيا تستطيع هكذا أن ترتب لنا من أمرنا بعض الأحداث التي تؤثر فينا.. وتترك انطباعها لفترات من الزمن.. فمنذ أن عملت في جريدة آفاق.. ورغم أني جعلت من حجرة مكتبي بالمنزل مكان عملي.. إلا أنني كنت في غاية سعادتي.. سعادة لم أعهدها سابقا.. إن وجودها في حياتي أعطاني الكثير كما أعطى غيري.. فقد استطعت من خلال صفحة حديث الروح التي ابتكرها خيال إنسانة تفتقد الروح الحقيقية في دنياها أن أهب بعض النفوس المحطمة شيئا من الآمال.. إنه ليس أملا واحدا ولكنها عدة آمال.. فإن خاب أمل يكون لدينا آخر.. و هكذا حتى لا تتوقف الأيام عند أمل ما فقدناه في لحظة يأس..

إن الله -تعالى- منحنا اليوم لحكمة عنده.. ربما وضعت يدي عليها.. لا أدري.. ولكن هذا ما توصلت إليه.. توصلت إلى أن اليوم يأتي ليجدد شعورنا ناحية الأمل.. ليمحو قساوة الأمس.. إن لم يكن الأمس ذكرى جميلة عالقة في ذهننا تغذي آمالنا بحنيننا إليها..

إن هذا اليوم الذي خلقه الله لنا منذ بزوغ الفجر.. هو حياة كاملة يحياها المرء.. هي لحظات تحدثنا لأن نحياها قبل أن تبيت أمسا.. تحدثنا بأن نبني بعض أمل.. ونسعى لتحقيقه ثم يأتي يوم آخر.. لنبني أملا آخر.. ونسعى لتحقيقه.. وهكذا تتابع الآمال لتحيا النفوس.. فلابد لها أن تحيا.. هكذا قالت الأقدار..

أن نبحث في يومنا عن أمل تسعى إليه أفعالنا.. وتدعمه إرادتنا.. وتحتضنه رغبتنا في غد مشرق..

كل هذا كفيل بأن يجعل اليوم من أجلّ الأشياء التي سخرها الله للإنسان.. هكذا دائما يعطينا الله الكثير.. ولكن أينا يمكنه أن يقرأ ما وراء الأشياء.. أن يبصر الحكم.. ولن أقول حكمة.. فكلنا يرى ما يستطيع أن يراه.. ونختلف في رؤانا.. وتهتدي أرواحنا إلى حكمتها الضالة.. ومع اختلاف الجواهر التي يراها الأشخاص تتعدد الحكم للقيمة الواحدة.. فأنا أرى يومي حياة.. وغيري يرى يومه نجاة من أمس.. وآخر قد يرى يومه مجرد يوم عادي عليه أن يعيشه.. فبهذا قضت سنة الحياة..

اليوم قررت أن أخرج إلى الحياة.. طلبت من أختي رحاب أن تصطحبني إلى ذلك المقهى.. مقهى سلسبيل.. الذي طالما حدثتني عنه.. وعن جوه الذي أجزمت بأنه سيروق لي لأنه يشبهني.. ملامح المكان تشبه ملامح روحي..إنه يحمل الأصالة والاعتزاز بنفسه.. فقد حافظ على طابعه منذ القدم ولم تغيره الحياه العصرية.. ظل مختلفا رغم التطور.. ربما أصابه شيئا من الحداثة ولكن بما لا يهدم طابعه الأصيل الدافئ.. الذي تشعر فيه بأنك في الزمن الجميل الذي غاب عنك.. هناك فقط يمكنك أن تجد هذا الزمان.. أن تهتدي إلى هذا الجمال.. فالروح التي تدخل إلى مقهى سلسبيل.. لابد وأن يترك فيها انطباعه.. و يعود بها إلى ذاك الشيء الدفين الكامن في أعماقها والتي طالما افتقدته.. إنها كانت تبحث عنه طويلا.. ولم تهتد إليه إلا بالكاد و لكنه سرعان ما يختفي بين تطور الأحداث..

إن رغبتي في الخروج من البيت والذهاب إلى المقهى كانت رغبة غريبة ملحة.. تسألني وتناشدني وتحاورني إلى أن استطاعت أن تقنعني.. ولا أدري ما الدافع وراء هذه الرغبة الملحة في صدري؟! شعور ما تفتح في صدري لأن أرى هذا المكان الأصيل الذي يطل على شاطئ النيل.. إني أراه رغم بساطته إلا أنه تميز بين الأمكنة المجاورة بطابعه الكلاسيكي.. و رائحة العطر المعتق التي تنتشر في أرجائه.. واللوحات الفنية التي رسمت بالأبيض والأسود معلقة على جدرانه.. وجهاز الراديو القديم الذي ورثه المكان من الأجداد.. وظل موجودا في مكانه لم يحاول أحد تغييره أو التخلص منه.. إن وجوده كان أمرا هاما ليقول لنا إن هذا المقهى من التراث.. وهذا هو الدليل (الراديو القديم) الذي أعطى

للمكان مسحة أصالة.. تخبرك بأن المكان كما هو لم يتغير ولم يتبدل إلا القليل الذي تجبره عليه تغيرات السنين.. ولكن يبقى شيء أصيل لا يتأثر بالعوارض.. ويظل كما هو كما عهدنا..

إنه يشبه بعض الأشخاص.. فهم لا يتغيرون ولا يتبدلون.. رغم اختلاف الأزمنة.. يظل القلب سليما أصيلا..يعتز بنفسه.. ورغم تطور الحياة لا يمكنه أن يتنازل عن مبادئه.. إنه شيء دفين كامن في شرايين دمائه.. يجري في كل جارحة من جوارحه.. إنه أت من الزمن الجميل ليجعل زمنه أجمل.. أو على الأقل ليحافظ على أصالة الزمن.. فلا تضيع القيم في هاوية الأزمنة..

لقد طلبت من رحاب أن تجلسني في آخر طاولة في المقهى.. ورجوتها أن تتركني لوحدي.. ورغم خوفها علي إلا أنها اضطرت تحت إلحاحي أن تستجيب لرغبتي.. وذهبت إلى عملها..

كان الجو صحوا والهواء رقيقا.. أخذت أنظر من حولي.. وكأني طفلة تكتشف المكان لأول مرة.. تتعرف على أشياء لم تكن تدركها رغم اكتمال حواسها.. ولكن كان ينقصها حاجة.. ربما المواجهة.. ربما التعايش.. المهم أني خرجت للحياة.. الحياة الدنيا..

لم أشغل نفسي في هذا الوقت من الصباح بالقراءة في كتاب.. ولكني أخذت أقلب نظري بين بعض الأشخاص القليلين الموجودين في المقهى.. انتابني شعور بأني أرى الناس لأول مرة.. اشتقت كثيرا إلى ملامح البشر.. وكأني أنظر في أساطير بعيدة.. لم أكتشف ملامحها إلا بالكاد.. فقد اعتدت حياة الجدران المغلقة..

أليس البشر الحقيقيون هم من يحتاجون إلى قراءة؟! يحتاجون إلى حياة حقيقية تهدي أرواحهم الضالة.. وليس مجرد وهم يحلق بهم في عالم الخيال.. فيشتاق أكثر إلى ما يفتقده.. وكأنه سافر عنه طويلا.. وعندما يفيق يجد نفسه ضائعا بين الوهم والحقيقة.. فلم يخرج منه بشيء.. إنه أضاع العمر في لهث وراء ما نظنه أنه الأمل.. وما هو إلا خيبة الأمل.. فيلملم أذيال خيبته ويعود منكسرا..

دائما هناك شيء مفقود.. هو ما يحدث بداخلنا هذا الخلل.. هو ما يفزعنا

ومعه نشعر بغصة تضرب في قلوبنا لجهلنا بها.. لا ننتبه إليها.. ولو انتبهنا ربما هدأنا واستقرت أرواحنا.. إن هذا الشيء المفقود ليس مفقودا.. ولكننا أردناه أن يكون مفقودا..

وهذي أول روح تائهة لقيتها هنا.. إني أنظر إليها رغما عني.. إنها شاحبة مثقلة بهموم لا حصر لها.. هكذا يهيئ لي عندما أنظر إلى نظرتها المعلقة بشيء يسبح في خيالها..

رغبة ما تستبد بي لأن أحادثها ولكن: هل لي الحق أن أقتحم حياة الآخرين؟ وهم حتى لا يعرفونني..

الآن فقط أستشعر قيمة التعارف بيننا.. إنها قيمة تزيل أي حواجز تمنعنا من التخلي عن بعضنا.. أو الوقوف صامتين عاجزين عن احتواء الآخرين لقلة معرفتنا بهم.. أولأنهم لا يسمحون لنا لأنهم يتوجسون خيفة منا..

ولكني أستغرب هذه الروح التي أحملها بداخلي.. والتي تشعر بألفة غريبة تجاه هذه المرأة الجالسة أمامي.. ربما أني أستشعر بها شيئا.. ربما هي الألفة المجردة.. أو الحدس الذي وهبني الله إياه لأن أحس آلام الآخرين..

إنها تتألم.. أشعر بذلك.. إنه يحدثني بأنها إنسانة تائهة.. معذبة لأجل توهانها.. إنها تنشد ضالتها.. تخبرني عيناها الشاردتان بذلك..

أيتها المرأة لا تبتئسي.. إني أقرأ روحك في عالم الأرواح.. ذاك العالم الذي أؤمن به إيمان الأعمى الذي يرى طريقه ببصيرته وليس ببصره.. إنه العالم الذي حدثني عنه الرسول العظيم (محمد بن عبد الله) النبي الأمي الذي قرأ أرواح البشر جميعا وحدثنا بها.. إنه قارئ لا يخيب.. يصيب دائما.. فإن حديثه لا ينطق عن الهوى.. وإنما الوحي الإلهي هو من أخبره بعالم الأرواح الذي نلتقي فيه دون أن نعي ذلك.. ولكن تعلق أرواحنا بهذا العالم المفقود يهدينا في الدنيا إلى تلك النفس التي قابلناها.. وعلمنا من أمرها ما يؤلف قلوبنا..

ألم يخبرنا الرسول العظيم بأن «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف» لذلك وإيمانا مني بهذا الحديث.. فإني على يقين بأني التقيتك أيتها المرأة في عالم خال من أي ضغينة.. إنه لا يعرف إلا حياة العناق..

ليتني أملك قلما الآن لأسطر في أوراقي حديث الروح هذا.. الذي جعلنا في لقاء لم يجمعنا عن قصد.. إنه لقاء روحي على غير ميعاد مسبق.. ولكنه من تدابير الأقدار..

.....

حولت دعاء من عينيها الحائرتين تجاه هند.. فوجدتها تنظر إليها في تأمل عميق.. دون أن ترمش عيناها.. حدثت نفسها قائلة: لِمَ تنظر إلي هكذا؟! نظراتها تنم عن معنى.. كأنها تقرأ روحي.. أهي من السحرة الذين يستطلعون الغيب؟ ترى أهي من الذين يهمسون للودع ليخبرهم بالطريق؟ ليرسموا أقدارنا على حبات من الرمال الصامتة التي تحمل عبء مصير صاحبها دون أن تشكو..

سكن الحديث في نفسها قليلا.. رغم أنها مازالت تنظر إلى هند.. لاحظت على وجه هند ابتسامة خفيفة.. موجهة إليها.. فارتبكت في نفسها قائلة:

لماذا تبسم لي؟ ماذا تريد مني؟ ألم تعلمي أني أغلقت على نفسي منذ وقت طويل؟.. ولم أعد أرغب بأحد في حياتي.. فأرجوك لا تحاولي.. لا أريد أن أبدأ يومي بصدمة تعاني منها كلتانا: أما أنا فبصدي لك.. وأما أنت فبشعورك بالخزي من موقفي منك.. فبالله عليك ارحميني من هذا التعارف الذي لن يجلب لنا إلا الضيق..

وفجأة لاحظت دعاء أن هند لا تجلس على كرسي المقهى.. وإنما تجلس على كرسي متحرك.. فأدركت على الفور حالتها.. ودون وعي منها انتفض قلبها.. ومع انتفاضة قلبها قامت فجأة من مقعدها.. واتجهت إلى هند تسيرها قوي لا تدريها..

ومازالت هند تبتسم.. وكلما اقتربت دعاء منها.. اتسعت ابتسامتها.. و ظل الاثنتان صامتتين.. نهى تبتسم ابتسامة عريضة.. ودعاء تنتفض بداخلها.. كأن رعشة حمى تسري في دمها ببطء.. تسري في تردد: أأقتحم الجسد أم أتراجع؟ إلى أن قطعت هند الصمت بقولها الرقيق:

- تفضلي نتناول سويا الشاي..

وإذا بدعاء تخبرها:

- إنك جميلة جدا..

هند في شيء من الخجل:

- أشكرك .. تفضلي..

دعاء في شيء من اليقين:

- أشعروكأني أعرفك..

هند في اليقين نفسه الذي أحسته دعاء:

- إنه الشعور نفسه الذي انتابني منذ أن رأيتك..

- ربما أراد القدر أن يجمعنا لحكمة ما..

- إنها في حكمة اليوم التي يحملها إلينا.. ويتركها لنا قبل أن يمضي في سبيله.. أبى اليوم أن يحرمني من العلة في مجيئه.. فعندما استيقظت من نومي خالجني أمل ما بأن اليوم سيكون مختلفا.. لا أدري من أين يأتي هذا الشعور الذي يحدثني؟ وكأنه وحي ما أو ملك يصطحب مشاعري ليهدني الطريق..

دعاء في حيرة كأنها تبكي بصمت عزيز مفقود:

- أحسدك على هذا.. ليت لدي ملاك مثل الذي لديك ولكني إنسانة بائسة.. وقعت في خداع قرينها الذي يشمر عن أنيابه ليمزق الروح وليس الجسد.. يا ليته كان الجسد لأستريح.. أما عذاب الروح .. فما أقساه من عذاب! إنه عذاب يضلل صاحبه.. ويكاد يهوي به..

هند تحدث دعاء في جدية:

- إن من يشكر الله لا يعرف عذابا.. إن عذاب الروح الحقيقي هو تخليك عن ثقتك بالله..

دعاء في شيء من الحسرة:

- وكيف أتخلى عن ثقتي بالله.. إني حتى لا أعرف: ما هي الثقة بالله؟! طيلة حياتي وأنا لا أثق إلا في نفسي.. وحتى عندما تخذلني نفسي.. فإني رغم ذلك أرفض أن أتخلى عنها..

هند في ابتسامتها العاقلة:

- جميل منك هذه الثقة بالنفس.. إني لا أرفضها.. على العكس تماما.. إننا نحتاج إليها لبناء الذات.. ولكن الأجمل أن تستمد هذه الثقة من ثقة بالله.. مهما حاولت أن أخبرك عنها.. فلن تحسينها إلا عندما تتذوقينها.. المهم أن

تعرفي كيف تثقين بالله..

دعاء في خوف خفي:

أحس أن هناك شيطان ماكر يسيطر على تفكيري.. ويجعلني دائما أسخط على الأشياء في حياتي.. ولا أدري لشيء قيمة.. كل ما يمر بي من أحداث هو في نظري أمور تافهة.. تلحق بي فتحبطني.. جعلتني أحس أني أعيش فراغا يلاحقني.. جعلني أختبئ خلف أسوار نفسي.. يداهمني الوقت.. ويشل قدرتي على الحراك..

- لقد مررت بهذا الإحساس.. إنه شعور مرير.. كنت أحس أن الوقت يأتيني كشبح عظيم.. يتقدم في خطوات سريعة تجاهي ثم يتحداني.. رغم أنه يراني ولكنه يجتازني.. وكأني لا شيء يستحق أن يذكر أو أن أكون ضمن حساباته.. كأني بالنسبة له مجرد ظل يمكنه أن يسحقني.. فيعبرني ويصطدم بي حتى أسقط على الأرض.. فأصرخ في نفسي.. ويتردد صدى الصرخة في أعماقي حتى أفيق فزعة.. فأحس العجز المبين.. واليأس العتيق الذي لازم نفسي وعقلي وتفكيري.. إلى أن كانت لحظة لا أدري من أين لي بها.. استجمعت فيها كل قواي.. وأخرجت ما في نفسي من رهبة تجاه الوقت.. وأمسكت بقلم كان موضوعا على مكتبي.. وحاولت أن أكتب عبارة «لا يأس مع الحياة» ولكن القلم لم يكتب.. فقد جف حبره من طول انتظاره.. شعرت أن شيطان يعرقلني.. فنظرت إليه.. واستعذت بالله منه.. فإذا بي أجد على مكتبي قلما آخر.. ما كنت رأيته قبل هذه اللحظة التي استعذت فيها بالله.. فأمسكت به وكتبت على ورقة.. ووجدتني أسترسل في الكتابة.. وشيء ما في صدري ينطلق على الورق.. وبعد أن انتهيت.. وجدتني قد فعلت شيئا أحبه..

إني أكتب.. أكتب في الفضيلة.. فتأثرت نفسي لذلك.. وانفعلت بما كتبت.. وأدركت أن الوقت لم يضع.. فمازال هناك بقية لحياة مادامت أنفاسي تتحرك في صدري..

صمتت دعاء طويلا ثم قالت:

- كأني أتحدث إلى حكيمة من زمن فات.. أو إلى فيلسوفة تقرأ ما وراء النفس..

- لست حكيمة أو فيلسوفة.. أنا إنسانة عادية.. ولكني أبصر بنور الله.. عندما تمسكت بأملي في الله بأنه سينقذني.. تحقق رجائي في حياة فاضلة.. ليست لي وحدي فقط ولكن أيضا للآخرين.. لذلك قررت أن أخرج إلى الحياة.. وكان لخروجي عدة مظاهر.. أولها: أني أكتب في مجلة أدبية.. أعددت صفحة خصيصا لأصحاب النفوس الحائرة.. صفحة تحمل حديث الروح.. أما الخروج الثاني لي فهو اليوم عندما أتيت إلى هنا.. إلى هذا المقهى..

دعاء في حالة من الذهول:

- أخبرك شيئا.. إني أول مرة أتي إلى هنا رغم أن المكان مختلف عن طبيعتي.. ولا أدري أي دافع أتى بي إلى المقهى..

هند مفسرة:

- هكذا هي حياتنا.. جملة من الأقدار التي تسوقنا في طريق أعد لنا.. إنه الاختبار الأعظم..

دعاء مازالت في حالة ذهول:

- أخبرك أمرا آخر.. أتصدقينني؟ لقد كتبت فجر اليوم رسالة إلى امرأة.. حكيت لها ما أعاني.. أتعلمين من تكون المرأة: إنها صاحبة صفحة حديث الروح..

هند مستغربة:

- غير معقول .. يا للمصادفة العجيبة! منذ أن استيقظت وأنا أحس أن اليوم مختلف.. وأنه سيحدث لي شيء ما..

دعاء متأسفة:

- ولكني للأسف لم أرسل الرسالة.. ترددت وانتظرت حتى أتأكد من شعوري.. ولكن كعادتي بأن أسخر من كل شيء يمر في حياتي.. و أحقر من شأنه.. فقد عدلت عن الأمر.. ولأني في حالة لا تسمح لي بالعمل.. فقد فضلت ألا أذهب إلى عملي.. ولم أدر أين أذهب.. غير أني وجدت قدمي تحملني إلى هذا المكان..

هند:

- أراد الله أن يعطيك فرصة ثانية.. أرجوك أن تنظري إلى الأمر ببصيرتك..

إن اللقاء الذي حدث بيننا لم يكن هباء ولكنه كان من صنع القدر..

دعاء:

- لقد أمنت بذلك.. يعلم الله أني كنت أحتاج إلى هذا اللقاء..

مدت هند يدها إلى دعاء تصافحها.. فأمسكت دعاء يد هند بكلتا يديها.. كأنها تتشبث بها..

هند بنظرة متفائلة:

- اليوم حصلت على صديقة أخرى .. فيا لسعادتي! منحني الله هبة لا تقدر بثمن.. أن يكون لي صديقة في حياتي.. وقد حرمت من نعمة الصداقة وقتا.. أحيانا نحرم على أنفسنا أشياء جميلة دون مبرر معقول..

دعاء وقد انتقلت إليها نظرة التفاؤل:

- لأن الأشياء الجميلة قد لا تكون جميلة إلا في ظاهرها.. إني مثلك حرمت على نفسي الأصدقاء.. وأعترف لك أنك استطعت أن تخترقي هذا القلب الجاف.. وتجعلي منه قلب يتفتح للحياة..

هند:

- بما أننا أصبحنا صديقتين.. فهل لي أن أطلع على رسالتك أم أنك مازلت تخشين كشف أعماق نفسك؟

قدمت دعاء الرسالة إلى هند.. وإذا بهند تفتح الورقة.. وتقرأ فيها طويلا ثم تنظر بعيدا ثم تحول نظرها إلى دعاء قائلة:

-لا بأس ... لابأس ...

obeikandl.com

رسالة زوجة...

إنه ليس حديث من روحي.. فقط ولكنه من كل كياني.. حديث إليك أنت.. لم أكن أجيده من قبل.. ولم أكن أعرف لغة غير الصمت.. ففي صمتي كان حديثي..

أما الآن أكتب رسالتي هذي.. فأشعر بأنني أستطيع أن أتحدث إليك جيدا.. وأن أقيم عليك الحجة.. فليس لدي مبرر معقول لأن ترفضني.. وقد أعطيتك حياتي.. إن كنت قد رأيتني قد أخطأت.. فعليك أن تقومني لا أن تتخلى عني.. وتذهب إلى أخرى.. وهل من المعقول أن يضيع العمر هكذا لأني أهملتك؟! إني حتى عندما أتذكر إهمالي لك.. فثق أن ذلك يجرحني ويؤلمني.. لأني لم أكن أقصد.. من المستحيل أن أتجاهل حياة هي بالنسبة لي كتاب مقدس.. لقد حرصت عليها بشكل جعلك تختنق.. ولم أكن أعلم أن إيماني بك هو سر عذابي.. لا تنسى أنك أنت أيضا التزمت الصمت كثيرا.. كنت أشعر أنك دائما في حوار معي.. ولكنك تخشى أن تبوح به.. ليتك فعلت ربما تغيرت حياتنا..

إذن فأنت تشاركني الإثم.. لم تحاول ولكنك وقفت على رغبتي.. كسيد يعرف كيف يحترم المرأة.. وأغفلت أني كنت أحتاجك كرجل شرقي.. يثور لأجل رجولته إن عبثت بها أنثته..

لم تذرف عيني دمعة واحدة.. وها هي تغمض.. لتنهمر منها أنهر من أدمع مصدومة فيك.. في الرجل الذي عاهدته على السراء والضراء..

إن هذا الرباط المقدس الذي ربط بيننا لا يمكنه أن يتخلى عنك.. رغم أن كرامتي تسألني الرحيل.. ولكن يكون في رحيلي انهيار حياة بل انهيار كياني..

كيف أمضي لأعيش ذكريات.. ونمسي مجرد ماض و انتهى.. وهل لي أنا أحيا في الحاضر.. وقد تخليت عن ماضي؟! إني بدونك أضل طريقي.. فأنا أهتدي على هداك..

أنت لا تدري كم آلمتني عندما صارحتني بحبك لامرأة أخرى.. حب أنساك وجودي.. و أنا جالسة أمامك.. أحاول أن أقول لك اغفر لي الأيام السابقة.. وتعال نجدد عهد الهوى.. ولكنك ما كنت تراني.. أنت لم تعد تراني.. لقد هان كل شيء.. ولم أكن أتوقع أن يهون..

وماذا يمكنها أن تعطيك أكثر مما أعطيتك أنا؟! إنها لن تعرف كيف تحبك.. لأني وحدي من تجيد حبك.. إنه شيء تحمله أنفاسي ليسري في دمي.. أستنشقه من وجودك بجانبي.. فما بالك لو تركتني.. كيف أتنفس حياتي؟!

في النهاية أخبرك.. وأنت تعلم بقولي هذا.. تعلم أن كبريائي لا ينازعه شيئا آخر سواك أنت.. لذلك ولأجلك سأضعك وأضع عمرنا فوق أي اعتبار آخر حتى وإن كان في هذا تضحية بكرامتي.. ولكن الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن أجزم به: هل سيلتئم هذا الجرح الذي أصاب قلبي بيدك؟ لقد صوبت السهم في أعز منطقة في قلبي.. ألم تكن تعلم بأنك تسكن ذاك القلب.. فكيف تقتل نفسك في قلبي؟!

إمضاء ماريا صادق

طوت ماريا رسالتها.. وذهبت إلى هند لتشاركها الرأي.. قرأت هند الرسالة وأبدت إعجابها بها قائلة لـ ماريا:

- ماريا.. إنها رسالة مؤثرة للغاية.. أتعلمين سر صدقها؟ أنك كتبتها بدموع عينيك..

- ليته يعلم كم تأذيت.. إني لأول مرة أعترف بأشيائي الخاصة.. ما كنت أحب أن أذكرها لأحد.. كنت أعيشها لوحدي.. وأغلق عليها قلبي..

- ولكنها عندما خرجت جعلت منك كاتبة مؤثرة.. هذه الرسالة ستمس قلوب الكثيرات ممن يتعذبن.. وأؤكد لك أنها ستلامس أرواح تتألم لتعيد إليها الثقة بنفسها.. إن الكاتب الحقيقي هو من يستطيع أن يصنع شيئا للآخرين.. وأنت برسالتك هذه ستحيين الأمل.. وتجددين العهود..

- لا أدري ما أقوله لك.. إنك حقا إنسانة رائعة.. تعرفين كيف تحتوين الآخرين.. لقد حباك الرب بجاذبية تعرف طريقها إلى القلوب..

- إني أؤمن بأن الألم العظيم يمكنه أن يصنع المعجزات.. انظري إلى حالك كيف تبدل.. أليس وراء هذه الرسالة الحزينة ألم أشد حزنا؟! استطاع الألم أن يحرك بداخلك جوهرة كانت مفقودة.. وبدأت تفصح عن نفسها.. لدي اقتراح لك.. أرجو أن تقبليه..

- وما هو؟ لعله يأخذني قليلا مما أحسه..

- ما رأيك أن تشاركيني صفحتي حديث الروح.. أو لتكن لك صفحة خاصة تكتبين فيها.. فأنت تملكين القلم والألم.. وهما كفيلان بأن يجعلا منك كاتبة تحس آلام الآخرين.. يمكنها أن تعطي.. دون أن تنتظر المقابل..

- لست أدري! إني حائرة.. أشعر بشيء من التوهان.. خذلني ذلك المقياس الدقيق الذي وضعته لحياتي.. لم أحسب حسابا لأشياء هاجمت عمري فجأة.. ما كانت في الحسبان .. لست أدري..

- إن الخذلان الحقيقي هو أن تعيشي في أحزانك دون أن تتغلبي عليها.. عليك أن تقهريها.. والشيء الذي يجعلك ترضين آلامك هو أن تجعليها تذوب في آلام الآخرين.. انظري حولك ستجدين من هن في حاجة إليك.. فلا تبخلي بهذه الآلام لتنيري بها حياة الآخرين..

- إن طبيعتي جادة صارمة.. تحس المشاعر وتعجز عنها.. بداخلي صراع لا أطيقه.. أحب أن أحتفظ بمشاعري وأخباري لنفسي.. لا لأن أطلع أحدا عليها..

- أنت لن تتكلمي عنك بل عن كل امرأة عانت في حياتها.. وتحتاج إلى تجربة امرأة أخرى.. تنظر فيها.. وتبصر طريقها.. إن الألم بداخلك سيعطيك الكثير الذي عليك أن تمنحيه لغيرك..

- أعدك أني سأفكر في الأمر.. ولكن بعدما أرى وقع الرسالة على قارئها.. واعلمي إن قبلت فستكون بداية كتاباتي مجموعة من الرسائل.. كنت قد تمنيت أن أكتبها في وقت ما..

- وهو كذلك.. إن الرسالة أفضل طريق لقلب يحترق في صمته.. يريد أن يتكلم ولكنه يعجز.. فكوني برسائلك الضمير الحي في كل نفس نال منها

الصمت..

صمتت هند وماريا ذاك الصمت الذي تجيده المرأة المجروحة.. التي تتألم ولا يشعر بها أحد.. فمن له أن يحس غيره إلا من عانى معاناته.. وهل كلنا نعاني الجرح نفسه؟

وتختلف الجراح ولكنه العذاب نفسه الذي يلم بكيان المرأة فيجعلها تقدس صمتها.. لأنه بالنسبة لها حياة.. حياة هي وحدها من تعيشها.. وتعرف كيف تتكيف معها.. إنه عزاؤها وسط كل هذه الأحزان التي تعيش في نفسها.. وتجعلها تحيا بلا روح.. إنه الصمت المحنك الذي يجد نفسه في لسان معقود..

.....

استلم منير موضوعات المجلة الأدبية ليراجعها كعادته منذ أن أصدر المجلة.. وأثاره عنوان رسالة: إلى من عرف كيف يجرحني..

فتح الرسالة.. ودار بعينيه فيها حتى استقر على اسم كاتبة الرسالة.. فأصابه ذهول غير معهود.. وبدأ يعيد قراءة الرسالة مرة أخرى ولكن هذه المرة بشيء من الاهتمام.. لأنه في قرارة نفسه شعر بأنها له.. إنه يعرف هذا الأسلوب جيدا.. يعرف هذه التعبيرات.. فقد سبق له أن قرأها.. يعرف الخط و إن كان به شيء من الاضطراب جعله أقل جمالا مما عهده.. كما أنه جزم بأنها هي عندما رأى اسمها..

بدأ يقرأ ويقرأ.. ويجد في نفسه شعورا ما.. إنها تعلم ولم تثأر لكرامتها.. ليس هذا عهدي بها.. كنت أظن أنها ستهدم المعبد على رأسي.. ولكنها لم تفعل.. إنها تكتب وتعاتبني.. هذه ليست ماريا التي أعرفها.. ربما ليست هي.. إنه تشابه في الأسماء ولكن ... في الروح!

إنه قلمها.. إنه إحساسها.. إنها تقول في رسالتها إنها الوحيدة التي تجيد حبي.. أين هو هذا الحب؟! لماذا لم تشعرني به؟ ما هو الحب بالنسبة لها؟ أهو حالة تعيشها وحدها وتحرمني من عناقها؟! إن في تحفظها الأعمى ما أهلك هذا الحب الذي تتحدث عنه.. إنها ترى الحب في كيانها وفي الحياة التي صنعتها من إيمانها.. ما كنت أريد أكثر من إحساس تحتويني به.. كلمة توقظ في نفسي مشاعرها ولكنها حرمتني حتى الكلمات.. والآن تتهمني بأني مذنب.. وأني من

قتلت نفسي في قلبها..

مازالت على عنادها.. دائما هي أعلى ولا تقبل أي تنازل.. وحتى عندما اعترفت بأنها مذنبة.. أبت إلا أن تحملني شيئا من ذنبها .. أنا لا أريد لجرحك أن يندمل فما عاد يعنيني.. ولم أشأ يوما أن أقتل نفسي في قلبك.. إني حتى لم أكن أعرف أني أسكن هذا القلب.. إنك لم تطلعيني يوما.. وأنا لست ممن يطلعون الغيب..

أردتك أن تفتحي لي هذا القلب.. وتخبريني بأني أسكن به.. هذا كل ما كنت أريده ولكنك بخلت به.. واعتبرت أن الخوض فيه أمر يقلل من شأنك.. جعلتني أحبك كقديسة.. وأنا أحتاج امرأة.. فهل تدركين الفرق بين القديسة والمرأة؟! القديسة تهب نفسها للرب.. والمرأة تهب نفسها لزوجها.. وأنت .. أنت .. لمن وهبت نفسك؟! لقد توهت معك واحترت لأمرك: أنت قديسة أم امرأة؟! نعم لجأت للصمت مرارا.. لأني لم أرفيك استعدادا لفهمي.. كنت لا تفهمين إلا ما تريدين أن تفهميه.. كنا نختلف في مبادئنا.. ولم أرمنك احتواء لما أرى.. كنت أتمنى أن نجد ما نلتقي عنده.. كان علينا أن نتنازل ولكنك لا تتنازلين..

لم يكن من الضروري أن أتكلم.. فمن واجبات الزوجة الصالحة أن تفهم زوجها حتى وإن لم ينطق بكلمة.. ورغم ذلك فقد تكلمت عني عيناي.. تكلم شعوري بك منذ أن تزوجنا.. ولكنك لم تسمعي كلامي.. أهمك فقط أن تضعي القوانين والحسابات التي تنظم علاقتنا.. ولم يكن من ضمن حساباتك أني بشر وليس راهبا في معبدك.. كل ما أأسف عليه في رسالتك هذه الدموع التي انهمرت من عينيك.. والتي لا ذنب لي فيها.. إنه شعورك بالندم هو ما جعلك تذرفين الدمع.. وإن كنت راضيا عنها.. لأنها ربما أعادتك إلى نفسك.. ففي الدموع شيء من الراحة.. وتطهير من الآلام..

أطرق منير رأسه يفكر في حيرة: أينشر الرسالة أم يمزقها؟ هو يعلم أنها كتبتها له.. وها هو قد قرأها.. فما الداعي من نشرها.. ولكنه لا يملك الحق في منعها.. إنها رغبتها وعليه أن يحترمها.. ربما أرادت من نشرها أمرا آخر غير أن يقرأها..

وهند ... أتعلم هند بما وراء هذه الرسالة؟! إنها هي المرأة المقصودة في الرسالة.. أمعقول أنها تعرف وتكتم؟! يا ترى أأخبرتها بالأمر؟ إن هند لا تعرف

حتى شعوري بها.. لم أصارحها حتى لا أفقدها.. إني أريدها في حياتي.. أريد امرأة مثلها في حياتي.. ولكني أخشى أن أجرحها دون قصد..

ما ذنبها.. إنها إنسانة وجدت طريقها في الحياة.. لا أريد أن أكون سببا في تعاستها أو في انغلاقها على نفسها ثانية.. لا أريدها أن تفقد إيمانها بنفسها.. إنها لو علمت بأنها المرأة التي تقف بيني وبين زوجتي لآثرت أن تنطوي في زوايا النسيان على أن تبدأ حياتها بتحطيم حياة أخرى حتى وإن لم يكن هذا خطأها...

obeikandl.com

حياة مقدسة...

هاهى ماريا تكتب رسالتها.. فقد استطاعت هند أن تخصص لها صفحة في مجلة آداب عنوانها: رسائل من جوارح امرأة.. تتحدث فيها بلغة أدبية في حوار موجه إلى مجهول في شكل رسالة.. وكأنها تخاطب شخصا ما.. وقد استطاعت في رسائلها أن تتجاوز محنتها.. فهي لم تعد تقصر الرسائل على أنينها.. ولكنها تجاوزته إلى أي جرح قد يلم بامرأة.. استطاعت من خلال رسائلها أن تحتوي كل امرأة تأن دون أن تنطق بجراحها..

وقد لاقت صفحتها نجاحا لم تكن تتخيله.. وأرسلت إليها الأخريات بعض جراحهن.. ورأت أن الآلام لا تتوقف عندها.. ولم تستأثر وحدها بهذا اللون من العذاب الذي تجرعته بل هناك من ذاقت من كأس أمر من كأسها.. ووجدت في هذا سلوتها.. كما أن لقاءها بـ هند والحياة التي جمعت بينهما أكد لها بأن الأمر لم يكن سوى مشاعر فردية لم تفصح عن نفسها إلا في بعض أوراق وهمسات بما جعل نفسها ترتاح.. وربما شعرت في نفسها عن تحملها شيئا من المسئولية.. رغم أنها تصارع هذا الشعور.. ومازالت لا تريد أن تخضع نفسها للاعتراف به..

ولم تنس خلال رسائلها.. بين رسالة وأخرى.. أن توجه حديثها إلى زوجها.. وبداخلها شعور أنه يعرف ويقرأ.. فكانت تحدثه عن مشاعرها.. كيف كانت.. وإلى أي شيء آلت.. أحيانا تلومه.. وأحيانا تخبره بأشياء لم يكن يدري بها.. كانت تحدثه عن تطور مشاعرها وعواطفها.. كيف اختلفت.. كيف نضجت.. كيف اتخذت اتجاها آخرا..

صنعت برسائلها الحياة التي افتقدتها.. واعتبرت أن هذه الرسائل تعويضا

عن الفترة التي أغفلتها من حياتها.. بدأت حياة جديدة مع زوجها ولكن على أوراقها.. واكتفت منه بأن يقرأ هذه الرسائل.. ويتعرف هذه الحياة ليرى فيها هذه الإنسانة الجديدة التي خلقتها مخيلتها.. واجهتها بكل ما تحمل بداخلها من كيان امرأة مؤمنة.. فهي يوما لم تتنازل عن إيمانها ولكنها بدأت تنظر إليه بشكل مختلف عن السابق.. بدأت تجمع بين الحياة و الإيمان في قلب امرأة.. فلا تبالغ في إيمانها حتى لا تخرج عن كونها امرأة.. ولم تفرط في حياتها فتغفل عن غذاء روحها..

كانت ماريا تقرأ وقع رسائلها على وجه زوجها عندما كانا يلتقيان في منزل الزوجية.. رغم أن الحديث بينهما كاد أن يتوقف.. و لكن لغة العيون كانت كفيلة بأن تنقل أي حديث وتعبر عنه.. كانت أسارير النفس ترسم على ملامح الوجه وتقاسيمه ما هو كامن بداخلها.. فتعبر عن الحزن والفرح.. عن اللوم والعتاب.. عن الصفح والغفران.. عن ابتسامة متراجعة.. أوعن دمعة حبيسة جفونها..

كان الاثنان يعيشان في المنزل نفسه ولكن يلتزمان الصمت الرهيب.. اكتفى الاثنان بحديث الروح.. وهمسات الأعين.. اكتفيا بحديث كان يدور بداخلهما.. يوجهه أحدهما إلى الآخر.. وهو يعلم أن الآخر يفهمه.. ويبادله الحوار.. ردا على حواره ولكن دون أن يلفظ بكلمة.. وربما لو تكلم أحدهما لكان الأمر قد زاد سوءا.. ولكن كلاهما احترم الرباط المقدس الذي جمع بينهما..

وفي ليال خلت فيها ماريا بنفسها.. تجلس إلى مكتبها الصغير في حجرة نومها.. تكتب أحداث حياتها حتى انتهت من كتابها الأول الذي اتخذ طابعا فلسفيا.. وأسمته حياة مقدسة.. كتبت في مقدمة كتابها إهداء إلى زوجها..

إهداء..

إلى الرجل الذي أثر في نفسي.. وعلمني ما لم أكن أعلمه.. إلى من استطاع أن يربي عواطفي لتخشع في محراب فكره.. أقدم لك كتابا يجمع في أوراقه خلاصة ما مررنا به سويا في حياتنا.. إليك كتاب كتبته لأجلي وأجلك.. لتعلم أن العمر الذي جمعنا سويا لا يمكن أن يقدر بثمن.. فإنه غال لأنه جزء مني ومنك.. فلا يمكن لكياني أن يستمر بدونك.. كما أني على يقين بأن كيانك شيء كائن مني..

فكيف لهما أن يفترقا.. وقد علمنا الرب أن التسامح جوهر الاستمرار..

ماريا

تركت ماريا الكتاب على مكتب زوجها منير.. بعد أن ربطته بشريط من الستان الوردي.. وتركت عليه بطاقة مكتوب عليها: رأيك يهمني..

ذهبت ماريا إلى هند لتحدثها بأمر الكتاب.. فقد اعتادت أن تشركها في كثير من أمورها.. لقد استطاعت الصداقة التي نشأت بينهما أن تمنحها حيزا من الثقة بعد أن توطدت المعرفة بينهما.. والغريب أن ماريا استطاعت أن تغفر لـ هند.. لم تستطع أن تحملها ذنبا ليس لها.. ولم تحمل لها أي ضغينة أو مجرد شعور ولو بسيط بالاحتقار والازدراء.. لم تجرؤ عيناها أن تتهمها بشيء.. ولا أن تلومها على شيء.. كل ما استطاعت عليه أن تكن لها الاحترام.. لأنها جديرة بهذا.. وأن تشكرها لأنها كانت جزءا من الروح الجديدة التي حلت بها.. وألهمتها طريقها في الحياة الجديدة التي أعدتها..

استقبلت هند ماريا في حجرة مكتبها بالمنزل.. ورأت في عينيها طلة جميلة.. أحبتها على الفور بمجرد أن لمحتها.. وقالت هامسة لـ ماريا:

- هيا هاتي ما عندك.. أستشعر أمرا ما..

- حياتي مقدسة .. ما رأيك بها؟

- إنها فعلا كذلك.. فالمرأة التي تصنع من المحنة سلاما و اطمئنانا.. لابد وأنها تحيا حياة مقدسة..

تبتسم إليها ماريا في شيء من الاعجاب ثم تحدثها عن أمر الكتاب:

- حياتي مقدسة أو حياة مقدسة.. اسم كتابي الجديد الذي كتبته عن حياتي.. أرسم فيه تفاصيل هامة كنت قد أغفلتها.. ولكني اليوم أنظر إليها وكما لم أكن أراها.. وعندما كتبتها بدأت أرى ما وراءها..

- عظيم! أيمكنني أن أقرأ الكتاب..

- من المؤكد .. فإن لك دور في حياتي.. وقد ذكرته في كتابي.. ومن حقك أن تطلعي عليه.. كما أني أريد رأيك ككاتبة..

- لا أعرف كيف أشكرك.. أحقا منحتني حيزا في كتابك؟! لقد شوقتني إلى قراءته.. أريد أن أرى شعورك بي.. أين هذا الكتاب؟

- حقيقة.. أردت لزوجي أن يكون أول من يقرأه.. ويعطيني رأيه.. لا تنسين أن الكتاب يتحدث عني وعنه.. ومن حقه أن يعرف.. وأن يوافق.. وإلا فلا معنى لوجود الكتاب..

- جميل منك هذا التقدير.. أتمنى من الله أن يقدر زوجك الغاية من الكتاب..

- سيقدر.. فإنه كاتب.. ويعي جيدا قيمة الكلمة.. وتأثيرها على النفوس..

- أتنوين نشر الكتاب؟

- لا أدري.. مازلت أفكر في الأمر.. إنه الشيء الوحيد الذي يحيرني: أأنشر الكتاب أم أحتفظ به لنفسي؟

- وما الحكمة في أن تحتفظي به لنفسك.. لقد حققت نجاحا جميلا من خلال رسائلك.. وهذا الكتاب سيضيف إليك نجاحا آخر..

- مازلت حائرة مترددة .. لا أدري..

- ليس هذا عهدي بك.. فأنت امرأة تعرف ما تريد..

قولي لي:

- هل استخدمت أسماء حقيقية في الكتاب.. أم أسماء مستعارة؟

- لا.. كتبت الأسماء الحقيقية.. إنه كتاب مقدس.. ولا أنوي أن أزيفه بأي شكل من الأشكال.. ولو كان بشكل غير متعمد.. إنه كتابي أنا.. وحياتي أنا.. يرسم كثيرا مما عشته وعانيته.. فلا أريد أن يفقد مصداقيتة ولو بالقليل..

- ربما هذا هو الأمر الذي يجعلك ترددين.. لأنك تشعرين في قرارة نفسك أنك ستطلعين الآخرين على حياتك بإرادتك.. وهذا ليس من عادتك..

- لا أدري! ربما أنك على صواب.. سأتمهل حتى لا أندم..

- وهو كذلك.. وأنا في انتظار قرارك..

صمتت ماريا قليلا.. تفكر في أمرها.. كانت عيناها حائرتان مترددتان.. ولاحظت هند في عينيها سؤالا مترددا.. تريد أن تبوح به.. ولكنها خائفة من شيء ما.. ربما في سؤالها ما يثير الشكوك إلى أمرها.. ولكن يا ترى: ما هو هذا الأمر الشائك في صدرها؟!

وأخيرا سألت ماريا هند في اختناق:

- هند ... أريد أن أسألك سؤالا؟

- هيا تفضلي ... أستطيع أن أرى هذا..

- سؤال أريد أن أسمع إجابته منك على الأخص..

- غريبة ... ولماذا انا على الأخص؟ أترمين إلى شيء ما؟ على العموم لن نختلف .. هاتيه إلي..

- ما رأيك في الرجل الذي يحب امرأة ليست من دينه؟

ذهلت هند قليلا عن ماريا.. وسرحت في خيالها.. ودون أن تدري تذكرت فيلم هجرة الرسول.. تذكرت على الأخص عبارة الفنانة ماجدة في دور حبيبة.. وهى تقول لزوجها فارس عندما أسلم: ما أقبح أن يتحول المرء عن دينه لأجل امرأة! .. ثم نطقت في ثبات وثقة قائلة لـ ماريا:

- ما أقبح أن يتحول المرء عن دينه لأجل امرأة!

ابتسمت ماريا وقالت لها:

- كنت أعلم أن هذا هو ردك.. ولم أشك ولو للحظة.. أنت لا يمكنك أن تقدري ماذا تعني هذه الكلمات.. أشكرك غاليتي..

أخذت هند تفكر في سؤال ماريا.. وتردد في نفسها: ماذا تعني بهذا السؤال؟ ولماذا تريد إجابتي أنا على الأخص؟ لقد قالت هذا صراحة.. وكأنها تشير إلى شيء . . رباه! إنه الغموض .. شيء قاس على النفس.. جعلتني في حيرة من أمري.. ويبدو أني لن أجد عندها توضيحا لذلك...

obeikandl.com

وكم من خروج يعلن عن نفسه...

غريبة أنت أيتها الحياة.. بداخلك تسكن أوجاعنا.. وتنبض ورودنا.. ترغب رغم الغيوم أن تعانق السماء.. أن تحلق كما الطير المغرد في أرجاء الفضاء.. إنه حتما لا يبحث عن أسباب سعادته.. لأنها شيء فطري جبل عليه.. يكفيه أن يطمئن لأقدار الحياة.. ويرضي رغم المعاناة..

قد يعذبنا هذا المجهول الخفي المختبئ وراء أنفسنا.. و تبدأ رحلة عذاب لا نهاية لها.. تأخذنا معها في هوة سحيقة لألوان من الآلام.. فليس الألم سوى أنشودة الروح المعذبة.. تعشق أنات الاستسلام.. لكم عشت حياة عاجزة فاقدة لإرادة حرة في قهر يأسها.. وكأن الروح قد اطمأنت إلى يأسها.. وبدأت أخاف طنة الأمل عندما يخاطبني أن أصحو من غفلتي قبل فوات الأوان ولكني كنت أتجاهله.. وأنظر بعيدا عنه وأحدث نفسي: أما زال في العمر بقية لمزيد من الآمال؟! اعتبرت أن الأمل وعد مزيف.. ولم أثق به.. ولا أدري من أين أتت لي هذه الفكرة.. وكأنني أحببت أن أؤمن بها.. وأصبحت لي قضية لا هدف لها ولا أساس..

أحيانا نعذب أنفسنا بأنفسنا.. ولا ندري لِمَ؟! ربما العذاب شيء من أقدارنا.. ولكن ما حكمة القدر في أن يعذبنا؟! في أن يلقي في أرواحنا نسمات العذاب.. لابد وأن وراء هذا حكمة تقتضيها الأقدار.. ولكني لا أعتقد أنها ترغب في خلق عذاب جديد من عذاباتنا.. فنحيا سلسلة العذاب اللامتناه.. لقد لمست بإحساسي ملامح العذاب.. وعرفت كيف أقرأه في نفسي: هل حقا أنا التي تخلق عذابها بنفسها أم أن العذاب موجود فعلا ولكني أدعمه بإنصاتي له؟ أي شيء هذا يمكنه أن يشوه النفس الإنسانية.. ويرسم ملامح عذابها؟

ما هو الشيء الذي يغوص في الأعماق.. وينبش ليوقظ صيحات مضطربة؟ أي طرقات تضرب على صدري لتحرك عواءه لأردد: أشعر بالضيق.. أشعر بالاختناق..

وكلما صمدت لأواجهه يتملكني الجمود.. ويعتصر الشخوص بصري.. فأطلق عيني أتحداه ويتحداني إلى أن صرت كتمثال أجوف.. تنهشه أنياب الخداعات.. فيمتثل لها.. ويخضع لطائلة الاستسلام.. ويبقى شيء دفين.. يناشدني أن أتمسك ببصيرتي.. أن أحضن نفسي حتى نتلاقى.. ولابد لنا أن نلتقي.. فكلتانا تبحث عن السلام..

وها قد جاءت لحظة سلامي.. ولن أدعها تفلت مني.. لقد وضعت يدي على الحقيقة المبهمة التي كانت تؤرقني معها.. فما أقبح أن يعيش المرء لنفسه فقط! أو ما أغباني! عندما ظننت أن في وحدتي قوتي ولكنه كان ضعفي واستسلامي..

أعترف لك أيها الوقت أنك كنت تقهرني قديما.. ولكني وجدت ضالتي التي بها أحطم عقارب ساعتك التي تدق في عقلي وتحدث به دويا.. أتعلم أني جعلت من أوقات حياتي معنى وقيمة.. وعندها أبصرت طريقي.. وكسرت قيودي.. وحطمت قواعدي الصارمة لأتذوق طعم الوجود الحقيقي لذاتي.. سأعيد بناء حبيبات كياني.. في كل أمل أزرعه في نفسي.. ونفس غيري.. وأسقيه من رجائي.. وعندما ألمس ثماره بيدي.. عندها سيكون كياني.. ذاك الكيان الذي افتقدته عمرا طويلا.. وأمدا بعيدا.. ولكنه أتى أخيرا.. كان لابد له أن يأتي.. فكم انتظرته.. ولم أمله رغم قساوتي..

يارب أعترف بالفضل لك.. عندما لجأت إليك لم تردني.. كنت على يقين بأن وراء صوت الكروان الذي كنت أرقبه في أوقات فراغي أثر في نفسي.. وقد لقيت لهذا الأثر صدى المهتدين..

أعترف أن صفحة ذاكرة النفس صفحتي في مجلة آداب و فنون.. قد منحتني أشياء جميلة.. جعلتني أنظر إلى النفس البشرية على نحو مختلف عما اعتدت.. فإحساسي بمسئوليتي تجاه ما أقدمه لغيري.. جعلني أتأمل ما وراء الشخصية الإنسانية.. أبحث في معانيها وأقيمها.. لأني في قرارة نفسي.. أريد أن أبني لا أهدم.. فهذه النفس التي أحملها بين جنبي إما أن تبني أو تهدم..

رغم أني كنت مترددة في إعداد مقالات هذه الصفحة.. ليقيني بأهميتها في الكشف عن خبايا النفس.. إلا أني في الوقت ذاته كنت على يقين بأن هذا الكشف سيأخذ بيدي إلى الخلاص الذي لطالما انتظرته.. وأدركت أنه آت على يدي ولن يكون بيد أخرى.. وهذا ما لم أتوقعه في حياتي.. لذلك بدأ الصراع يدب في صدري.. ما بين رغبة ملحة في أن أخوض التجربة.. وبين رهبتي فيما أنا قادمة عليه..

لقد عشت عمري لا أقرأ إلا نفسي.. وها أنا أحاول أن أدون قراءاتي في أنفس أخرى.. ما أصعب هذا القرار! .. لو أني أخفقت فيه لكان ضياعي..

فيا ترى ماذا علي أن أفعل؟!

ظل هذا السؤال حائرا مترددا في عقلي طيلة يومي حتى سمعت في المساء صوت الكروان.. فارتاحت نفسي.. وقلت أختبر الأمر قبل أن أمضي في طريقي.. وبالفعل تخيلت أني امرأة تحكي لي.. فأعددت نفسي لأسمعها.. ولم أكتف بذلك بل إني أحضرت عروسة لي قديمة.. كنت قد أهملتها.. وضعتها أمامي.. ومسحت من على وجهها الغبار المتراكم.. وأتيت ببعض وريقات.. وكتبت عليها بعض الأزمات النفسية التي يمكن أن تتعرض المرأة لها في حياتها.. وقمت بلصقها في أماكن متفرقة من العروسة.. واختفت ملامح العروسة.. وبرزت الوريقات أمام عيني.. فقلت: هلمي لتعرفي مدى قدرتك على المواجهة.. نظرت إلى ما كان مكتوب على الوريقات لأرى أي واحدة منها يمكنها أن تستوقفني.. وتأخذني معها.. فوجدتني وقد أخذتني وريقة مكتوب عليها: إني عاجزة.. وسألت نفسي عن العجز: ماذا يكون؟!

هو قيد أقوى من إرادتي أو هو توقف العقل عن ابتكاره؟ وإذا تباطأت الجوارح عن تطلعاتها.. أيعني هذا نهاية الحياة أم نهاية هذا الكيان الذي ظن أنه مات وهو مازال على قيد الحياة؟ ومن يختار موته بيده.. ومازال في قدرتنا أن نشعل الشموع التي أطفأناها بأنفسنا..

إذن هناك حلقة مفقودة.. تجعلنا نسير على خط رفيع.. يفصل بين الموت والحياة أو الموت رغم الحياة.. ما هو ذاك الشيء الذي يجعلني أحس أنني أعيش كالميتة؟ وما الذي يمكنه أن يفقدني الإحساس بقيمة الأشياء؟

وقفت أمام تساؤلاتي عاجزة .. لا والله .. لن أكون عاجزة.. سأبحث في كل كتب علم النفس والفلسفة والمنطق لأجد جوابا لتساؤلاتي.. ولكني سبق لي أن بحثت ولم أهتد.. أهذا يعني أني سأتردد بين البحث وعدم الاهتداء؟! لابد وأن يكون هناك هذا الحل المفقود..

ووقعت عيني على عقارب الساعة ثم عادت و استقرت على وريقاتي.. قمت إلى مكتبتي لأبحث فيها عن شيء.. أشعر أنه موجود.. رغم أني أجهله.. هو أمر غائب عني.. وفي هدوء يقاومه اضطرابي.. أخذت أبحث بنظري.. و أخيرا وقعت على كتاب ديني يحمل اسم عقيدة المرأة و ذهلت أمامه.. وهل للمرأة عقيدة؟! ترى أي عقيدة يتحدث عنها الكتاب.. وحملته معي إلى مكتبي أتصفحه..

عندما كنت أقلب صفحاته.. أنظر مقطتفات من الكتاب.. لمحت حديثا للنبي محمد يقول "استفت قلبك و لو أفتاك الناس و أفتوك" ولقد وقع هذا الحديث في نفسي موقع الرجاء الذي بدأ يتحقق.. وعندها سمعت صوت الكروان يغرد في نفسي.. و أنا أردد معه: الملك لك يا صاحب الملك .. وانتهيت لأن أقرأ الكتاب.. وبدأت رحلتي مع صفحاته.. وانتهيت منه في الليلة نفسها.. ولأول مرة أعرف أن للمرأة عقيدة.. وعقيدتها الأسمى هي: إيمانها بالله قبل إيمانها بنفسها حتى لا تهوي في ظلمة النفس.. وتختنق في عتمتها إذا ما أظلمت عليها جوارحها..

وبدأت تتفتح آفاقي لمعان جميلة كنت أغفلتها سابقا.. لم أهتم لأمرها.. وأدركت الليلة أنها فارقة في حياتي.. وبدأت أتناول الوريقات.. مشكلة مشكلة.. وأقيمها بناء على قاعدة أساسية مريحة للغاية وضعتها لنفسي ألا وهي: "استفت قلبك" .. إنه الضمير أيها النبي محمد.. لقد أحيت كلماتك في نفسي الضمير الشخصي بعد أن كان غافلا..

وبدأت أعود في مشكلاتي التي طرحتها إلى عقيدة المرأة في الإسلام ثم في الديانات الأخرى.. ولم أنس طبعا علم النفس والفلسفة والمنطق ولكن نظرتي إليهم تهذبت كثيرا حيث أني ابتعدت عن زيف الفلاسفة.. و أباطيل المنطق.. وجمود العلوم..

وعلمت أني سأقدر على إدارة صفحة ذاكرة النفس.. على هدى مستنير.. في

رحاب المثل والقيم الآتية من أعالي السماء لتهبط على الأرض.. وتحط رحالها في أجسادنا لتسكن أرواحنا..

ولكن لن أغفل ثانية أو أتجاهل الصراعات التي نواجهها.. خاصة صراع الخيروالشر في نفس مزقها اليأس.. لابد من إحياء الأمل على أساس أن الرجاء في الله لا يخيب..

وبدأت مقالاتي في ذاكرة النفس بمقالة تتحدث عن النفس البشرية في سموها ودنوها.. وعلقت الأمر على مدى إيمانها ثم توالت مقالاتي لأحيي في النفس التي ستقرأها خبايا كانت غائبة وربما كانت مفتاح نجاحها..

وبالفعل حققت الصفحة نجاحا معهودا ولكني لم أستغرب.. فأنا دائما أتوقع النجاح لنفسي في العمل.. هذا ما تعودته.. أفنى في عملي حتى النجاح المبين.. ولكن الأمر المختلف هو انعكاس تلك الصفحات على كياني كامرأة.. كانت تنجح في حياتها العملية رغم فشلها في حياتها الخاصة.. أحسست أن في مقالاتي العلاج الأمين لكياني الذي لطالما حرصت على إنجاحه.. وقد أخفقت في كثير من جوانبه خاصة العاطفية منها حتى ظننت أني امرأة بلا مشاعر.. بدأت أتعرف إلى نفسي بشكل مختلف.. رويدا رويدا.. وبدأت أفكاري تطمئن في مخدعها.. واجتاح العقل نورا غير معهود.. سكن عواء الشيطان الذي عانيته طويلا.. واستقرت حالتي المضطربة.. وكانت غاية سعادتي عندما تصالحت مع نفسي.. واستطعت مصادقتها بعد أن كنت أرفضها.. وأعتبرها المسئولة عن عذابي المجهول.. وزاد في هنائي معرفتي بأن بعض القراء من النساء قد تمكن من التحرر من مكرهن وخديعتهن لأنفسهن..

وأجمل ما كان في مقالاتي أني ربطت بين الحياة النفسية والحياة الأدبية.. مما جعلني أفتح كتب الأدب لأنهل منها.. وأحببت الحس الأدبي في نفسي.. فقد وجدت أن له مذاق لذيذ.. أمدني بنعومة غريبة.. وكأني أنثى واقفة أمام مرآتها.. تتزين بأجود الحُلي التي تمتلكها إلى أن بدت كأميرة في مملكة السحروالجمال...

جلسة مسائية...

وقد حدث ذات يوم أني طلبت منه أن أجلس إليه.. لا أدري الدافع وراء ذلك.. ولكنها كانت رغبة ملحة تملكتني على غير عادتي.. وكان من طبعه الذي عهدته به أن يراعي مشاعري إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره منطق.. ولكني صدمت عندما وجدته لايشعر بوجودي.. وذهلت حتى عن نفسي.. ولا أستطيع أن أصف بالكلمات تلك الغصة التي اعتصرت نبضات قلبي.. إذ لمحت في عينيه امرأة غيري.. ودلني على ذلك أنه ما كان يراني وأنا جالسة.. كان ينظر إلى صورة ماثلة أمام عينيه.. كأنه يخشى أن تغيب عنه لو أحال بصره عنها.. ولمست بإحساسي كامرأة أنه في هذه اللحظات كان يعيش معها بوجدانه رغم وجودي بجانبه..

إنه كان غائبا عن الوعي وأنا بجواره.. غائبا بكيانه في شخصها.. مازلت أتذكر ذلك.. إنها كانت في ذاك الوقت تحتل تفكيره.. ولم تترك لي مساحة.. حتى أنه كان يحادثها بصوت عال.. ولم ينتبه أني هنا.. وما أقصى خيبة الأمل ساعتها! عندما سمعته و هو بجواري يحدث امرأة غيري في وجودي.. أظلمت كل معاني الحياة التي جمعتنا سويا في خاطري.. وانطفأت شموع العمر في نفسي.. وذهب وهجها إلى بعيد.. إلى حيث لا أعرف إلى أين سيأخذنا ما تبقى لنا..

وكانت صدمتي.. و ما بعدها صدمة أخرى.. ما عاد في نفسي أن أهتم لأي أمر آخر.. كل ما همني أن أحطم مبادئي.. سخطت على قيمي.. وذاك الإيمان الذي وهبته نفسي.. وجعلت من حياتي معبدا له.. وظللت أترنح في غرفتي.. ودموع لا عهد لي بها وما عرفتها جرت على وجهي.. لا تريد أن تتوقف.. تساقطت على شفتي لأتذوق مرارتها.. وتصورت في يوم أنها عذبة.. لن يشوها شيء.. ولن

تتعكر بغبار الحياة.. فقد كانت أنقى من أن تهبط إلا لشيء مقدس.. وليس من أجل دنيا..

ودارت الأيام .. وذاكرة حياتي تعرض نفسها على مخيلتي.. صورة صورة.. ورأيت أشياء ما كنت أراها.. لست أدري .. لِمَ انتبهت لها فجأة؟! ...

وأغلقت هند الكتاب.. وكانت تقرأ على ماريا ودعاء بعض صفحاته.. فبعد أن تعارفن وتوطدت العلاقة بينهن.. حيث استطاعت أقدار الحياة أن تجمعهن على غير موعد.. فوجدن أرواحهن تتشابه.. ودعمت أقلامهن ومقلاتهن في مجلة آداب و فنون ما سعين إليه من احتواء لأنفسهن.. والبحث عن حقيقة كانت غائبة عنهن وبدأت تتمرد.. ترغب في أن تفصح عن نفسها.. فقد ملت الاختباء وراء الغموض.. إن دموع العمر كانت كفيلة بأن تزيح عنها غيوما وسحبا..

وصمتت هند كما صمتت ماريا و دعاء.. ورحلن إلى ذاك الشيء المعذب في ضميرهن.. كانت هند تجلس إلى مكتبها عندما كانت تقرأ الصفحات.. بينما ماريا تجلس على كرسي كبير بجوار المدفأة المطفأة.. أما دعاء فكانت تجلس على الكرسي المواجه لمكتب هند.. تمسك بقلم وبعض أوراق لتدون تحليلها النفسي لما سمعته.. فقد عرضت هند الفكرة على دعاء.. طلبت منها أن تقوم بتحليل نفسي لصفحات الكتاب.. هي تقرأ.. وماريا تستمع.. ودعاء تحلل.. ثم يتناقشن في الأمر.. ويبدين رأيهن.. وقد راقت لهن الفكرة.. واتفقن على أن يلتقين مساء كل خميس في مكتب هند في بيتها.. يقرأن فيه صفحات الكتاب.. ويتحاورن من الناحية الأدبية والنفسية.. وقد بدأت دعاء حوارها عندما التفتت إلى ماريا تسألها في شيء من الحيرة:

- أوَ استطعت أن تحتملي موقفا كهذا بوجود امرأة أخرى غيرك في حياته؟!

وفي كثير من المرارة ردت ماريا عليها:

- لم يكن اعترافا لي.. لقد كان يتخيلها جالسة معه.. وكان يحاورها هى..

- ياه ... ما أقساه!

- نعم.. ما أقساه! .. وما أقساني! طيلة حياتي معه..

قاطعت هند حديثهما موجهة كلامها إلى دعاء في لهفة لأن تتعرف إلى تحليلها

النفسي:

- دعاء أرجوك اقرأي علينا ما كتبت.. فإنه سيفتح مداركنا لأشياء هامة..

وبدأت دعاء تقرأ عليها ما كتبته من تحليل نفسي حول الأسطر التي قرأتها هند..

رأيت في عباراتك كأنك تتحدثين عن امرأة أخرى.. لا تمت لك بصلة.. وكأنك ترفضين أن تسلمي بأنها حدودة حياتك.. قلت أن رغبة ما دفعتك إلى الجلوس إلى زوجك.. يبدو أنك استشعرت الأمر.. أي أنك عندما جلست إلى زوجك لم يكن هذا من دواعي اهتمامك به.. ولكنها الرغبة في

معرفة المجهول.. الشيء الذي يخفيه عنك وأنت تحسينه..

عندما كتبت استخدمت بعض الأفعال الماضية.. ربما اعتبرت أنها حكاية وانتهت.. أو أنك أردت استبعادها من ذاكرتك.. إذن اعتبرتها من الماضي..

تحدثت عن مدى مراعاة زوجك لمشاعرك.. وفي هذا إقرار منك بأنه كان يهتم لأمرك ولكن ما الذي جعله يقف منك هذا الموقف؟ هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه علينا.. وعليه علامات استفهام كثيرة..

وعندما قلت جملة: وذهلت عن نفسي..أكنت تقصدين أنه زوجك هو نفسك؟ فعندما سمعته يتحدث عن امرأة أخرى أصابك الذهول .. أم كنت تعنين بنفسك التي ذهلت عنها هي كيانك أنت؟ كيانك الذي عشت عمرك كله تؤسسينه.. وكانت هذه الصدفة هي التي أطاحت بهذا الكيان..

فلابد للمرء أن يتعرف على الأشياء الغائبة عنه حتى يضع يده على هذا الجوهر المفقود و الذي إذا اهتدى إليه تكون نجاته..

وعندما تجاوبين عن السؤال.. وتلمسين الحقيقة المفقودة.. عندها تستطعين أن تعلمي عن تلك الغصة التي اعتصرتك.. أكانت عن فقدان حبك.. أم فقدان كبريائك.. أم كان الاثنان معا؟!

وتلك اللمحة التي لاحظتها في عين زوجك أن يرى امرأة أخرى رغم وجودك.. عندما حادثها بصوت عال.. دليل على اغترابه عنك.. مما أدى به إلى أن يرحل إلى غيرك.. حتى وإن كان ذلك في خياله فقط.. فكما علمت من حكايتك أن الأمرلم يتجاوز الخيال.. أي أنه يعاني فراغا عاطفيا شديدا.. دفعه أن ينفصل

عن واقعه.. ليتمركز حول نقطة واحدة ألا وهى إشباع عاطفته المفقودة.. وعدم إحساسه بوجودك في تلك اللحظات أمر يوحي بالقلق.. ويدلنا على مدى معاناة زوجك.. وفقدانه لتلك المشاعر التي لا يمكن أن يجدها إلا في قلب امرأة تعرف كيف تحتويه.. وهو قد بحث عن هذا القلب ليرتمي في أحضانه ولكن بخياله.. ونحن لا نستطيع أن نحرم الخيال على أنفسنا.. وعدم تجاوز الأمر حدود الخيال في ذلك دليل احترامه لك.. ومراعاته لمشاعرك.. أما عن تلفظه ببعض كلمات عنها في وجودك.. فليس وجودها في فكره هو ما حجبك عنه.. وإنما على ما أعتقد أن وجودك لم يعد يثير في نفسه تلك العاطفة التي يفتقدها.. ويبحث عنها.. ولا يمكن أن يجدها إلا عند امرأة.. فإما أن تكوني أنت أو غيرك.. أما استخدامك لأداة تعجب في كلماتك يدلنا على مدى الثقة التي كنت تعيشينها وتضعينها في حياتك الزوجية.. لدرجة أنك تعجبين تعجبا بينا وملحوظا.. تكادين معه أن تذهلي عن الحياة.. يوحي بمدى صدمتك والتي لم تكن في حسبانك.. وهنا يأتي سؤال آخر ليطرح نفسه: أكانت ثقتك هذه آتية من إيمانك بقداسة الرباط المقدس الذي جمع بينكما والذي تعتبرينه من أسمى العهود؟! .. أم من حياتك الإيمانية التي فرضتها على حياتك الزوجية والتي من مبادئها أن السقوط في الرذيلة جرم لا يمكن غفرانه؟! .. أم أنها أتت من مشاعر كانت تربط بينكما تحسينها رغم أنكما لا تفصحان عنها؟!

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات.. سيكشف لنا خبايا مهمة في النفس الإنسانية التي تصدر أحكاما دون وعي منها..

كما أنك استخدمت بعض الكلمات الرومانسية.. رغم أن حياتك الزوجية كانت خالية من العاطفة.. كلمات مثل: وأظلمت في نفسي كل معاني الحياة التي جمعتنا.. وانطفأت شموع العمر..

إن مثل هذه التعبيرات تدل على رومانسية خالصة عايشتها.. فهلا ذكرت لي عن ملامح المرأة الأنثى بداخلك.. لأني لم أنتبه إليها.. لم أجد سوى امرأة قديسة.. عاشت حياة المرأة الراهبة.. وليس المرأة العاشقة.. ربما مفهومك عن العاطفة يختلف عن المفهوم المعتاد لدى المرأة.. أو ربما الجزء الإيماني في شخصيتك قد طغى على عاطفتك دون أن تشعري.. أو ربما ترجمتك للعاطفة

فيه خلل ما.. كلها احتمالات وحدك أنت من تستطيعين توضيحها إذا ما استطعت أن تواجهي نفسك مواجهة صادقة حقيقية.. بعيدا عن الانفعال الذي يصور لنا أننا في وضع إهانة للنفس والكرامة..

وعند هذه الكلمات انتهت دعاء من تحليلها كما تراه.. وسادت فترة صمت بينهن.. لم تستطع واحدة منهن أن تتكلم.. وما كان يسمع إلا صوت أنفاسهن وتنهيدتهن..

أخذت هند بتلقائية تقلب صفحات الكتاب.. وفجأة وقع بصرها على اسمها الذي ورد ضمن فقرة من فقرات الصفحة.. ولاحظت تكراره ثلاث مرات.. قرأت ضمن الكلمات هند هند هند.. وبحركة تلقائية عادت عيناها إلى أول الصفحة.. لتنظر إلى أين سيأخذها الحديث.. فقرأت الفقرة التالية: وبعد لقائنا المؤسف هذا.. عندما كنت أعاني من حالة ذهول شديد لما لمسته أثناء تلاقينا من وجود امرأة أخرى.. كانت رغم غيابها تجلس بيننا.. ورغم أني عرفت بوجودها من حديث زوجي لها في خياله.. إلا أنني أردت أن أتعرف إليها أكثر.. برغم أنه كان قرارا صعبا علي.. وكنت قد لاحظت في أول حوارنا أنه كان غارقا في كتابة بعض الأشياء على أوراق ظلت موجودة على مكتبه.. وحدثتني نفسي أني إذا قرأت ما هو مدون على الأوراق سيتضح الأمر لي أكثر.. وانتهزت فرصة وجودي بمفردي في البيت ودخلت إلى مكتبه.. وبالفعل كانت الأوراق موضوعة على مكتبه.. يبدو أنه لم يحاول أن يخفيها.. وبدأت أقرأ أول ورقة.. وكان قد كتب عليها اسمها.. وكرره.. وكتب هند هند هند.. وكان أول تعارف لي بها.. بالمرأة المجهولة في حياة زوجي هو اسمها.. وقرأت ما كتبه عنها.. والغريب والذي لا أجد له تفسيرا منطقيا.. أني أبدا لم أحقد عليها.. بل إن كلماته جعلتني أتعاطف معها.. أحسها أنها في محنة ولكنه في كلماته ما أوضح.. تحدث عن شيء ما بها.. ربما هو ما جعله يتعاطف معها.. وهو ما جعلني أتعاطف معها .. ولكن .. هو يعلمه وأنا لا أعلمه.. وكأني أحسسته من عباراته.. وربما كان هذا من عناية الرب بنا.. وكان هذا هو السبب الأساسي الذي دفعني إلى أن أذهب إليها لأراها.. وأعرف سرها المجهول.. وعندما رأيتها أصابتني لمحة اطمئنان بمجرد أن نظرت إليها.. فهي وديعة للغاية.. وتبين لي من قراءتي لروحها أنها غافلة عن الأمر..

وهذا ما أدى بي إلى احترامها.. ودفعني إلى أن أصبح صديقتها.. إنه لمن عجائب الأمور.. فمازالت الأقدار تحمل لنا الكثير..

اعتصرت هند غصة غير عادية لما لمحته في هذا الحديث الذي لم يكن في الحسبان.. وبدون أن تدري تلفظت ببعض كلمات: إني أكرهه.. أكره هذا التعاطف الذي أحال حياتي إلى جحيم.. ولا أريد أن أقع فريسته ثانية.. رحماك يا ربي! غير معقول..

و بهذه الهمسات.. انتبهت ماريا ودعاء من خيالهما إلى هند في ذهول..

وفي أثناء هذا الصمت الرهيب الذي كان يجول بين السيدات الثلاث.. دخلت رحاب عليهن.. وقد وقفت أمامهن تنظر إليهن في ذهول لما رأته من شرودهن.. فقد هيئ لها أنها أمام تمثال فني في إحدى المعارض .. ثم ألقت عليهن التحية.. وعندها بدأن ينتبهن إليها.. وكانت تعلم عن لقائهن هذا.. وقد سبق لها أن حضرت بعضه.. وأعطت تقيمها.. إلى أن بادرتها فكرة ولكنها لم تفصح عنها إلا بعد أن أعدت لها .. حيث أخبرتهن بأنها قد قامت بإعداد حوار تديره مع ماريا حول الكتاب.. تستطيع من خلال الأسئلة التي تطرحها في الحوار أن تكشف عن مدى قيمته.. والفكرة من وراءه.. والتجربة التي عايشتها ماريا أثناء كتابته.. وكيف أثرت فيها.. وإلى أي مدى وصلت ماريا بعد انتهائها من كتابة صفحاته.. وما الذي اكتشفته من تحليلها لأسطره.. و قد عرضت على السيدات الثلاث الحوار الذي أعدته فلاقى إعجابهن.. و اتفقت مع ماريا على أن تجري الحوار في شقتها.. وهكذا انتهت بهن الجلسة المسائية ذات خميس...

حديث من القلب...

عندما تتحدث المشاعر.. فلابد لكل قوي العقل أن تصمت.. وتمتثل لتلك الأحاسيس التي تنتفض داخلنا.. فهي أصدق من همسات العقل التي لا يفهم لها معنى ولا ملامح.. غير أنها فراغ سحيق.. يقذف بعواطفنا إلى المجهول.. مجهول يظل يطاردنا.. يجري في دمائنا.. ليعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي.. فكم سأمت أقوال العقل.. وهى تحلل لي حياتي.. وتضع لي حسابات دقيقة.. ظننتها أنها لا تقبل التفاوت ولكني أحتار في نفسي: ما الذي جعلني أهرب من المشاعر والأحاسيس.. وأعتبر ترجمتها إلى معان ذنب لا ينبغي لمثلي أن تقع فيه؟! ما الذي أوحى لي بهذه الفكرة التي تلاعبت بي سنوات من عمري؟! من أين أتت هذه الهوة بين مشاعري كامرأة وعقيدتي كمؤمنة؟! أحقا أخطأت مفهوم العاطفة أم أخطأت فهم العقيدة؟

هناك تناقض حدث لي.. فلم أستطع التمييز.. رغم مدى تقديسي لحياتي الزوجية.. ورفعها إلى مرتبة سامية.. أردت أن أرتقى بها فوق الدنيا.. نسيت أني أحيا في الدنيا.. كان علي أن أتفاهم مع شطوح أفكاري التي أرادت أن تعلو بكينونتها عن حماقات أهواء النفس.. خوفي من سقوط من حولي.. جعلني أتشبث بعنادي.. وإصراري على ألا أسقط.. لقد رأيتهم يدعون الإيمان.. وهم أبعد ما يكون عنه.. ودلني على ذلك أفعالهم.. فالمرء منهم يذنب ثم يذهب إلى كرسي الاعتراف.. ويجلس عليه.. ويقر بذنبه.. ويذرف دموع الندم.. ثم يخرج إلى الحياة الدنيا ليسقط في الذنب نفسه.. ويعاوده الندم.. وكنت أستقبح هذا الأمر خاصة إذا جاء من امرأة.. كنت لا أتصور نفسي تعيش هذه اللحظات القاسية.. أقع في رذيلة ما.. وأقر بذنبي ببعض دموع.. وينتهي الأمر.. كنت أقسو

على هؤلاء إذا علمت بحالهم.. وينتابني إحساس غريب.. و أتساءل: أيقدر لي أن أقف مثل هذا الموقف؟ فيزداد عنادي.. وأقسم ألا يحدث ذلك.. فينعكس إصراري على حياتي خوفا عليها.. أردت أن أثبت أنه هناك من لا يضعف.. ولا يوجد مبرر للضعف.. وتقمصت هذا الدور.. وتدرجت فيه.. ونسيت أني امرأة.. أخذني إصراري إلى مرحلة أخرى.. مرحلة الهبة.. قررت أن أهب نفسي وأسرتي للرب.. و أن أكون مثالا يحتذى به حتى يتخذنا الآخرون قدوة.. أردت أن أقول للآخرين أنه مازال هناك خير فينا.. مازال هناك أناس معصمون من الخطأ.. يتحدون إرادة الشيطان.. لأن إرادة الإنسان أقوى..

أردت أن أقول أن من يسقط في الرذيلة.. ما هو إلا مخادع.. فقد خدع نفسه.. لأنه سمح لها بأن تسقط.. وكنت أشعر أن الله يمنحني الروح التي تشد عزيمتي.. هذه المشاعر الإيمانية قد خلصتني من أشياء كثيرة.. كنت أكرهها في نفسي.. ولكني لم أفطن إلى أنها من ضروريات الحياة.. وكان من الممكن أن أجد نقطة التقاء أتعايش بها مع تلك الضروريات الحياتية مع بقائي على إيماني.. ولكني عجزت لأني لم أسمع إلا صوت عقلي يحدثني: من عاش بلا قلب.. نجا من غرور الأماني.. وطول الأمد..

لن أستطيع أن أسخط على إيماني.. لأنه المعنى الحقيقي لحياتي.. هو الذي يمنحني البصيرة لأرى جواهر الأمور.. وأبتعد عن زيفها ولكني سأعود إلى نفسي بشكل مختلف.. سأحيي بداخلي تلك المرأة التي غابت عني وافتقدتها.. امرأة توازن بين العاطفة والعقل.. تبحث في مجريات الأمور بعين المرأة الإنسانة.. وبعين المرأة القديسة.. فلن أتخلى عنهما.. إنهما أصبحا لي عقيدة.. فهما يحتاجان إلى تقويم بعضهما..

لن أقسو على هؤلاء أصحاب الرذيلة.. لأني لا أملك التفويض لذلك.. سآخذ بأيديهم.. فهذا الدور في الحياة هو الأجدر بي.. لن أتجاهل الحياة الدنيا.. لأسجن نفسي في زنزانة.. أختنق وراء أسوارها.. فالحياة مليئة بأشياء تحتاجني وأحتاجها.. ولكن ينقصني أن أتفهمها وأحتويها.. وأنظر إليها نظرة أخرى..

إن من يجلسون على كرسي الاعتراف.. هم بشر يستحقون كل تقدير.. لأنهم يملكون الشجاعة.. ويتعلقون بالأمل في النجاة.. لم ييأسوا من رحمة الرب..

و رغم انجرافهم وراء أهوائهم إلا أن ذلك لم يحول دون إحساسهم بالذنب.. فكيف لي أن أستهين بدموعهم وهي دموع من أجل الرب.. دموع من شأنها أن تطهرهم.. ليتني كنت أملكها.. ربما أزاحت عني غشاوة القلب.. ووهبتني روحا حقيقية بدلا من تلك التي كنت أعتنقها.. ربما غيرتني دموعي لو كنت أرسلتها.. ولكني حبستها بداخلي حتى جمدت.. وأصبحت كجبل من جليد.. يثقل صدري.. ويختنق به حلقي.. وأعاني دون أن أدري.. ربما هؤلاء المذنبون الذين يذرفون دموع الندم هم من فهموا المعنى الحقيقي للإيمان أما أنا فعجزت.. وعشت عمري عاجزة.. ولم أدرك ذلك..

.....

بعد هذا الحوار النفسي لـ ماريا.. بدأ الحوار بين ماريا ورحاب.. وقد أحبت ماريا أن يكون الحوار في مكتب زوجها منير.. لشعور خفي بأن المكان الذي بدأت فيه معاناتها حتما ولا بد أن يشهد ميلاد كتابها حياة مقدسة.. هو حوار يكشف عن معاناة امرأة.. أرادت أن تجعل من معاناتها حياة مهذبة.. هذبتها مواقف مرت عليها.. قد تكون أصابت فيها أو أخطأت.. المهم أنها أوجدت لنفسها نقطة انطلاق إلى حياة أخرى.. تستمد كيانها من تلك الحياة السابقة التي عايشتها.. وتجرعت حلاوتها المزيفة ومرارتها الخادعة.. ولكي تحقق ذلك سطرت مواقف حياتها على صفحات تأخذ منها العظة.. تتوقف معها في ذكريات قد تكون مؤلمة ولكنها هامة كنقطة تحول في حياتها..

بدأت رحاب حوارها مع ماريا على النحو التالي:

- أستاذة ماريا علمت منك عن أمر كتابك الذي تكتبينه حياة مقدسة.. حدثيني عنه...!

- قصتي مع الكتاب كانت صدفة.. لم يخطر في بالي يوما أني أكتب سطورا من حياتي على صفحات.. كنت دائما أفضل أن أحتفظ بها لنفسي. حتى أني أخشى أن أحدث بها نفسي.. ولا أدري ما الذي جعلني أتجاهل حديث النفس.. فهو أفادني كثيرا في الفترة الأخيرة من حياتي..

- أنا عن نفسي أؤمن بمدى تأثير الصدفة على حياة الإنسان.. كما أؤمن بحديث النفس.. فهو يساعدنا كثيرا على تبين أشياء لم نلحظها سابقا..

- هذا أمر ما كنت أؤمن به من قبل ولكني آمنت..

- كيف ولدت هذه الصدفة التي أوحت لك بفكرة الكتاب..

- كنت قد مررت في الأونة الأخيرة من حياتي بمحنة.. أخطر ما فيها أني ما كنت أتوقعها.. جعلتني في حوار مع النفس لا نهاية له.. سلسلة من التساؤلات والاعترافات انهالت على فكري.. حتى كدت أنهار من تزاحم الأفكار في عقلي.. ولكن بفضل الرب هدأ اضطرابي.. واطمئن بعد عاصفة هاجت في نفسي..

- ربما يحتاج المرء منا في حياته هزة من نوع ما ليفيق من سباته..

- لا أدري ما الذي دفعني أن أمسك قلما.. واكتب ما أحسه على أوراق.. وما كانت لي أوراق من قبل.. فأحيانا يتعرف المرء على نفسه.. وكأنه ما كان يراها.. أو أنه تعرف على جانب في شخصيته.. لم يعي بوجوده سابقا.. وهذا ما حدث لي عندما وجدتني أكتب.. وأدون جملا وعبارات تكونت منها فقرات.. هي فقرات من حياتي ولكني أراها بشكل مختلف..

- ماذا تقصدين بشكل مختلف؟ أكان هناك فارق أحدثته تلك الكتابة؟

- بالطبع .. فمجرد أن كتبت أول جملة لي.. ورغم صعوبتها.. إلا أني وجدت قلمي يجري على الورق بشكل أخافني.. كأن أحاديث الصباح والمساء أعلنت تمردها.. وخرجت تحدثني بأشياء ما كنت أبصرها..

- سبحان من جعلك تحتملين تلك المساحة المبهمة بداخلك..

- أجل مبهمة.. والأمر من إبهامها أننا من طمسنا عليها.. ظنا منا بأنها منتهى السلامة..

- ماذا حدث بعد أن كتبت أوراقك؟

- ظللت أكتب و أكتب.. وكنت كلما أكتب أعيد قراءة ما كتبت.. لأراه بشكل مختلف.. وأحيانا كانت تنتابني نوبة من البكاء.. وفكرت لحظات أن أمزق تلك الأوراق ولكني عجزت.. شعرت أنها شيئا مني.. فكيف لي أن أمزقها؟!

- وبعد ذلك..

- وبعدها بدأت أتحكم في انفعالاتي.. أدركت أن هذه الأوراق ستعيد لي أمرا هاما كان مفقودا.. أردت أن أنتهي من هذه المعاناة التي أعيشها.. فغير منطقي أن أظل هكذا ممزقة.. دون أن أداوي الجرح الذي ينزف.. عزمت ألا أتركه يتبلد

مني..

- كانت أوراقك تحمل حكايتك الحقيقية..

- عندما بدأت أكتب.. كنت أكتب بطريقة عشوائية.. غير منظمة.. مواقفا في حياتي.. ولما استقرت نفسي.. أحسست أن هذه الأوراق غالية.. ولا يمكن تجاهلها أو تناسيها.. كما أني لو تركتها مهملة.. ربما تفقد قيمتها بمرور الوقت.. فراودتني فكرة أن أنقلها إلى كراسة.. وأحتفظ بها كمذكرات.. لذلك كان علي أن أعيد صياغتها بشكل أفضل.. بقلم أدبي.. مع الاحتفاظ ببعض الجمل التي خرجت مني عفويا.. تركتها كما هي لأني وجدتها أكثر تعبيرا عن المواقف..

- تقولين إنك أعدت صياغة الجمل بحس أدبي.. أتملكين هذا الحس الأدبي أم أنك اكتسبته أثناء كتابتك على الأوراق؟

- أعتقد أنه كان موجودا في مكان ما في شخصيتي.. دلني على ذلك تذوقي الأدبي في القراءة.. فكنت دائما ما أقرأ كتابات زوجي الأدبية.. وتأثرت كثيرا بالأسلوب الأدبي لأقلام مجلة آداب و فنون.. فقد قرأت فيها موضوعات حركت بداخلي الحس الأدبي.. كما أني كتبت بعض الرسائل في المجلة.. فجرت أحاسيس ومشاعر كانت مكنونة.. أعتبرها نبع الآداب..

- كيف تقرئين كتابات زوجك الأدبية.. أكان يعلم ذلك؟

- للأسف لم أخبره أني أتابعه أدبيا..

- ولِمَ لم تخبريه؟

- لأني قلت له يوما: أن للأدب سحر يسلب العقل رشده..

- أوَ تؤمنين بهذه المقولة؟!

- أعتقد في ذلك.. وإلى حد كبير..

- ماذا عن أسماء الشخصيات المتضمنة في الكتاب؟

- هي أسماء حقيقية لأصحاب المواقف الذين مروا في حياتي.. لا أستطيع أن أستعين بأسماء وهمية.. فهو كتاب صادق بكل تفاصيله..

- ألم تفكري ولو للحظة أن ذكر هذه الأسماء على هذا النحو من الصراحة قد يؤذي أصحابها؟ .. وأقصد إيذاء نفسيا..

- ولِمَ يؤذيهم؟! لا يوجد شيء في الكتاب ينتهك كرامة الشخصية المذكورة..

بل إني نظرت إليهم نظرة إيجابية.. احتراما لهم ولقارئ الكتاب..

- قارئ الكتاب! وما علاقته بأن تكون الأسماء حقيقية؟

- المصداقية! من الممكن أن يكون القارئ قد صادف الأزمة نفسها.. وربما تساعده الأحداث الموجودة في الكتاب على تخطي أزمته.. خاصة لو علم أنها حدثت بالفعل.. وليست مجرد خيال..

- تحدثت في الكتاب عن حياتك الزوجية.. وأنت ترين أنها أسرار مقدسة.. لا ينبغي البوح بها.. كما علمت منك.. فلِمَ عدلت برأيك وتريدين أن تتكلمي عنها؟

- كلامي عنها في حدود الأصول.. ولن يتجاوز الأمر ذلك.. أتكلم عن المواقف التي يمكن أن نقابلها في حياتنا.. وقد تكون موجودة لدينا جميعا.. ولكن هناك من يمكنه أن يتعامل معها ومن يعجز..

- وغرضك من الحديث عنها!!

- أحببت أن أكشف النقاب عن أشياء ربما تغيب عنا.. أردت أن أنفع الناس بتجربتي.. أحسست أن هذه المعاناة التي عشتها.. يمكنها أن تجدي في حياة غيري..

- كيف فكرت على هذا النحو؟

- أفادتني كثيرا رسائلي التي أكتبها في مجلة آداب و فنون.. لمست ثمارها بيدي.. فقلت في نفسي: فما بالك بحياة كاملة.. بمواقفها.. وأحداثها.. إذا ما قرأها الآخرون.. كيف سيكون تأثيرها عليهم؟! .. وأنت تعلمين مدى تأثر القارئ بكاتبه..

أتفق معك تماما.. القلم والكلمة لهما تأثير مذهل في إحداث تغيير ما في فكر القارئ..

- إيماني بهذا جعلني أحرص على مصداقية الصفحات في كل ما تحمله من معنى.. بما في ذلك الأسماء..

- هل ترك عملك كمبشرة أثر على صفحات هذا الكتاب؟

- بمعنى؟!

- إلى أي مدى تأثرت كتاباتك بشخصيتك الدينية؟ أعتقد كونك مبشرة هيأك للغوص في أعماق النفس البشرية.. لتلمسي فيها جانب الخير.. فتوقظيه

من غفلته.. وهذا يحتاج إلى مهارة ما..

- لا أنكر أن عملي كمبشرة قد أفادني شخصيا ونفسيا.. وقد ترسب ذلك بداخلي بشكل لا إرادي.. في نقطة ما في اللاوعي.. ليخرج ويثري كتاباتي.. ولكنه تغير.. فغير تأثيره عما كان يحدث في حياتي الماضية..

- أحب أن أعرف ملامح هذا التغيير..

- إنه تغيير جعلني أقرب إلى المرأة الأنثى من المرأة الراهبة.. جعلني أنظر إلى الذنب بعيون الغفران.. لا بعين لائمة ساخطة.. ساعدني أن أطبب الجراح بدلا من أن أزيد من نزفها.. أزاح الحاجز الذي كان يعزلني عن غيري..

- تمام .. ما الذي أحدثته تلك الصفحات من تأثير عليك كإنسانة؟

- هذا أجمل ما حدث لي.. تغيري كإنسانة.. لمست في نفسي أشياء جميلة.. كانت غائبة عني.. أهمها أني وجدت لدي قلم وكلمة.. و أصبحت كاتبة.. وجدت في نفسي الأديبة..

- وهو شيء كنت تجهلينه في نفسك!

- جهلته كثيرا.. ولا أدري العلة..

- غريبة! فالأدب موهبة تفرض نفسها على صاحبها..

- ربما .. وكم كان يجذبني.. خاصة في كتابات زوجي.. ولكني نحيته جانبا..

- أي أنك تقولين أنك اكتشفت في ذاتك الكاتبة الأديبة التي كنت تجهلينها.. وجاءت لتحدث في كيانك انقلابا عجيبا..

- فعلا هو انقلاب.. ولا يمكنني أن أسميه غير ذلك..

- هل علم زوجك بأمر الكتاب؟

- نعم..

- و ما رأيه؟

- تركت له الكتاب على مكتبه.. ووضعت عليه بطاقة مكتوب عليها: رأيك يهمني..

- وما كان رده عليك؟

صمتت ماريا.. وأخذتها عبارات كانت قد كتبت لها من زوجها.. أخذت شفتيها ترددها بصوت مسموع:

الآن تذكرت أنه كان لدينا حياة.. أشكر الله على ذلك.. صفحاتك هذه كانت بمثابة صفعة لي.. ولكني أقر وجودها ... وفقك الله..

وإذا بدمعة حائرة تنزل على خدها الأيسر..

- في اعتقادك: ماذا كان يعنى زوجك بكلمة صفعة؟

- لا أدري .. ربما أنه اكتشف أشياء كانت غائبة عنه مثلي..

- أو ربما أنه صدم في كثير مما كتبت..

- يجوز! لا أستبعد هذا الأمر..

- كيف سيؤثر هذا الكتاب على علاقتك بزوجك؟

- ما رأيك أن ندع الأيام تدلنا!

- وهو كذلك..

- إني راضية تماما عن صفحات الكتاب..

- قلت أن هناك مفاجأة يحملها لنا كتابك.. ألن تخبرينا؟

في ابتسامة ممزوجة بشيء من الحزن ردت ماريا:

- أنت تعلمين أن الكتاب يحمل بعض الصور التي تجسد معانيه..

- نعم أعلم ذلك..

- هذه الصور رسمها ابني باسم..

في شيء من الاستغراب قالت رحاب:

- صدقا.. ! حدثيني عن الأمر..

- ابني باسم لديه موهبة غير عادية في الرسم.. كنت أجلس إليه أخبره بأني أريد أن أحكي له حدوتة.. وهو يعبر عنها برسمه..

- مذهل! وهل كان يعرف أن هذه الحدوتة هي حكايته؟!

- لم أخبره ولكن يبدو لي أنه استشعر ذلك.. فهو ولد ذكي..

- هي فعلا مفاجأة.. وأي مفاجأة! أتدرين أنك بكتابك هذا خلقت فعلا حياة؟!

وفي هدوء الواثقين ردت ماريا:

- نعم أعرف..

وانتهى هنا الحوار.. حوار حياة مقدسة.. وأي منا لا يرى أن حياته مقدسة؟!

obeikandl.com

فكلنا نرى أنفسنا ملائكة.. أوَ ترتقي الحياة إلى مرتبة القداسية إن خلت من أخطائها أما أن قداسية الحياة تكمن في تعلمنا من أخطائها؟! ومتى كانت الحياة مقدسة إلا بوجودنا فيها.. فنحن من صنعنا مواقفها المقدسة لتكون لنا حياة.. وستظل الحياة تصنع منا مواقفا .. ولكن .. علينا أن نحرص على أن تكون مواقفنا مقدسة.. وأن نحسن فهمها ولا تلتبس علينا حقيقتها...

obeikandl.com

الزائر الغريب...

كانت هند تجلس في حديقة بيتها.. تقرأ رواية عالمية مترجمة بعنوان بقايا قهوة.. عندما دخل إليها رجل في الثلاثينيات من عمره.. أنيق المظهر.. ذو عطر نفاذ.. طويل القامة.. نحيل الجسد.. خمري البشرة.. له عينان واسعتان.. تلمعان ببريق جذاب.. و كأنهما تسكبان قطرات من الدموع النادية.. صوته رجولي.. تصاحبه بحة غريبة.. تترك أثرها في القلب بمجرد سماعها..

وقف على مقربة منها.. يتأملها.. و مازالت لا تشعر به.. أخذتها أحداث الرواية.. فمازالت القراءة دنيتها.. و عالمها الحقيقي الذي لا يمكنها أن تتخلى عنه مهما كان خروجها إلى دنيا الواقع.. فهي ترى في القراءة القوى الخفية التي تعينها على مواجهة الأيام.. و إذا به يقطف وردة من حديقة المنزل.. و يضعها بين صفحتين من صفحات الكتاب.. تنبهت هند إلى الوردة.. و في بطء رفعت عينيها إليه.. إلى رجل مجهول آخر.. جاء على حين غفلة.. تغلق الكتاب على الوردة دون أن تشعر.. وتضعه أمامها.. صامتة.. ذاهلة: فمن يكون يا ترى هذا الضيف الغريب؟! ... ربما هو عابر سبيل.. يطلب شيئا.. و ما الذي يمكنني أن أقدمه له؟! ... لكم أخشى عطايا الحياة التي لم تخبرني عنها مسبقا..

مازال الصمت حائرا يتردد بينهما.. و يحاول أن يسترق ما يدور في خلدهما من حوارات.. تنطق بها عيناهما.. فمن يملك أن يفهم لغة العيون سوى امرأة حالمة.. و رجل فارس آت من زمن جميل؟! .. إنه في ملامحه يشبه ممثلا قادما من فيلم أبيض و أسود.. يبدولي وكأني أرى صالح سليم في فيلم الباب المفتوح.. ياااه .. لكم أحب هذا الفيلم .. لكم أحب طلته.. و رقته بينما كان يخاطب

حبيبته ليلى.. لكم تعلقت مشاعري برسائله إليها.. وهي تقرأها بشغف.. ولكم تمنيت أن أعيش هذه المشاهد حقيقة ولكن ...

من يمكنه أن يمنحني هذه المشاعر الدافئة الحانية الممتزجة برجولة حقيقية في استطاعتها أن تحتوي امرأة مثلي من الصعب احتوائها.. وتلمس ما بها من أحاسيس مختبئة خلف جمودها.. رغم أن لديها عاطفة فياضة قادرة على العطاء ولكنها عاطفة مهملة.. تحتاج إلى من يستفزها لتكون له.. بدلا من أن تضيع في خيالات و أروقة لا وجود لها.. فهي من أشيائها الوهنية.. وظنونها المترنحة.. العالقة بدنى لا تنتمي إليها.. و بهمس مجروح همست هند: يارب ... هي لي أمل في هذه الحياة؟!

- تحية طيبة أستاذة هند .. مررت من هنا.. فأحببت أن أبلغك إعجابي بما تكتبين .. بعد أن لمحتك تجلسين في الحديقة..

- أهلا بك .. أحقا تقرأ ما أكتب..

- نعم سيدتي .. و أنتظره بشغف لا تتخيليه..

- ما أكتبه موجه إلى المرأة لا إلى الرجل..

- ربما .. ولكني وجدت فيه شيئا مميزا يسلبني عقلي..

- لا أعرف كيف أشكرك..

- بل أنت التي تستحقين الشكر.. إنك تبنين بداخلي صرحا من المثل..

- أتمنى هذا .. تفضل اجلس..

- أشكرك سيدتي على هذه الثقة..

هند في بسمة مذهلة:

- لِمَ تهتم بما أكتب رغم أنه لا يخاطبك؟!

- ببساطة سيدتي .. أنا رجل متعجرف.. لا يمكنني أن أحتوي امرأة.. و دائما ما أفشل معهن.. حتى الإنسانة الوحيدة التي احتملتني بما فيه الكفاية فقدتها..

- كيف ...؟!

- لا ألومها.. فأنا صعب المزاج.. متقلب الشعور..

صمتت هند ثم قالت:

- سبحان الله ..!!

- معك حق أستاذة هند.. فربما أن هيئتي تختلف عن طبيعتي.. وهو جوهر مشكلتي..

- وكيف ذلك..؟!

- أي امرأة تراني تنجذب إلي.. وبمجرد أن تتعرف علي.. تقع في هواي..

- وبعدها...

- وبعدها تتعرف علي أكثر.. تظن أني خدعتها..

- خدعتها ...!!!

- لأني في البداية أعاملها معاملة أنيقة.. وأشعرها بأنها ليدي.. وكلما اقتربنا لمست في تغيري المفاجئ..

- ماذا تقصد بتغير مشاعرك؟!

- حقيقة سيدتي .. ربما أنا أيضا لا أفهم ... إنه شعور يسيطر علي.. ويدخلني في حالة أو يخرجني منها ... هل لي أن أطلب فنجان قهوة سادة؟

بهتت هند لطلبه المفاجئ:

- بكل تأكيد.. يسعدني طلبك.. أستأذنك..

- تفضلي سيدتي..

انطلقت هند لتعد فنجان القهوة لهذا السيد الغريب الذي أقحمها في خصوصيته دون سابق معرفة بينهما.. إنها تشعر بفرحة تخالج نبضها عندما طلب منها فنجان القهوة.. وكأنه منحها ثقته أو أنه يخبرها بأنه واثق في قدرتها على إعداد فنجان قهوة.. وهذا منحها شعور زائد بالثقة.. قد يبدو الموقف بسيطا ولكنه يعني لها الكثير.. يكفي أنه أدخل السعادة إلى قلبها.. إنها تهتم بعمل فنجان القهوة لتخرج على نحو يرضيه .. ولِمَ تهتم برضاه ...؟!

تركتها على نار هادئة.. وانطلقت إلى غرفتها تنظر إلى شعرها المرسل المعلق بكتفيها.. تعيد ترتيب بعض خصلاته التي تطايرت على جبينها بفعل أنسام الهواء.. تحدق في المرآة وتحدث نفسها :

ترى لِمَ أهتم بمظهري كامرأة وقد أغفلته؟! أكنت أحتاج إلى من يوقظ في نفسي هذه الغفلة؟! لم أنتبه سابقا إلى الأنثى بداخلي.. دائما ما كان اهتمامي

يتمركز حول شخصيتي العملية.. اعتقدت أن نجاحي كامرأة لها كيان مستقل يتمثل في عملها.. يكفي لأن يغذي عاطفتي طالما أني أكتب في الأدب.. و لكني اكتشفت الآن و لا أدري لِمَ الآن بالذات أني كنت أجري في فراغ عميق.. في طريق بلا نهاية.. في شارع طويل يملؤه الضباب..

لماذا يرتجف شيء ما في صدري هكذا؟! هناك أحاسيس غريبة علي لم أعهدها.. تتجاذبني الآن.. مثل: أني أصبحت أحب القهوة أكثر.. و ارتبطت بها أكثر.. فقط كنت أراها في فيلم أبيض و أسود.. كذاك الفيلم الذي لا يبرح خاطري أبدا.. فيلم الباب المفتوح.. ربما لأن البطلة تشبهني.. ربما لأنها استطاعت أن تحقق ما أخفقت فيه أنا.. ربما لأني أحتاج لمن يفتح لي الباب.. كان الفيلم يخاطب مأساتي.. و لكني لم أنتبه إلا الآن.. عندما فتحت له بابي.. لهذا الزائر الغريب..

تذكرت هند أمر القهوة.. فأسرعت إليها تحدث نفسها: يا الله..

كانت القهوة على وشك الفوران.. و لكنها هدأت عندما أطفأت هند عليها النار.. و وضعتها في فنجان.. و تحركت بها إلى الضيف.. و قدمتها إليه.. و هي تبتسم له في خجل..

ضحك الضيف ضحكة عالية أنيقة و قال لها:

- لم أكن أعرف أن القهوة تستغرق كل هذا الوقت في عملها.. ظننت أنك نسيتني..

- لا أبدا.. و لكن..

- على فكرة أنا خبير في عمل القهوة.. و أعرف جيدا أنها لا تستغرق كل هذا الوقت إلا في حالة واحدة..

و في لهفة سألته:

- ما هي؟!

- عندما نستغرق في تفكيرنا أمامها.. و كأنها ربة التفكير لدينا.. ألم تلاحظي ذلك أبدا؟!

أخرج سيجارة من علبته ليدخنها.. أخذ منها نفسا عميقا.. ثم أطلق دخانها في وجه هند.. و ابتسم لها.. و استطرد كلامه:

- أخبرك أمرا.. إن السيجارة و فنجان القهوة بمثابة حياة لي.. بهما أعيش حالة يمنحاها لي..
- قديما قالوا: إن ربة الحكمة مينرفا.. وأنت تقول: إنها السيجارة و القهوة..
- أصدقك القول هذا ما أحسه.. ولا أدري العلة.. ربما لأنها تملك السيطرة علي.. ربما لأني لا أرى أفكاري إلا بها.. أليست هذه هي سمات الربات؟!..
- جائز..
- كيف تقولين جائز؟! .. إنك أديبة .. ولديك الربة نفسها .. فأجيبيني من فضلك..
- و بم أجيبك؟!
- حدثيني عن هذه الربة التي تتملكني.. و لا أملك أما مها إلا الخضوع..
- لا أدري..
- ما الذي أصابك؟! أراك تذهلين عني..
هند تحدث نفسها:
- ما الذي دهاني أمام هذا الرجل؟!
- عفوا سيدتي .. هل أزعجتك في شيء؟!
في انتباهة:
- لا أبدا بالعكس و لكني شعرت..
- بم شعرت؟! .. أتمنى أن تفصحي..
- أشعر و كأنك تتحدث بأسلوبي نفسه.. كأنك لامست شيئا ما في نفسي..
- إنه توارد الأفكار و الخواطر..
- نعم.. إنه كذلك.. وربما هذا ما دفعني لأن أجلس إليك و أنا لا أعرفك..
- أتدرين سيدتي أني كلما قرأت مقالاتك أشعر و كأني أحدث نفسي.. أنت جعلتني في حوار دائم مع النفس..
- ما هو عملك؟
- مخرج سينمائي..
- صحيح..
- نعم سيدتي.. يشغلني كثيرا أمر التحليل.. و الغوص في أعماق الأعمال

الفنية..
- أعرف أن المخرج عصبي المزاج..
- هكذا أنا سيدتي للأسف صعب المزاج..
- ربما تكون مقالاتي الآتية حولك..
- حولي أنا!!
- ليس بالضبط .. ولكني تعرفت على الأمر من خلالك.. ويمكنني أن أقدمه من وجهة نظري..
- وهو كذلك سيدتي.. وسأتابعك بشغف كعادتي بك.. فربما أتعلم منك شيئا..
- ربما.. من يعرف..
- أنا أعرف أستاذة هند.. فقد تربى جزء مني على كتاباتك..
- غير معقول..
- ربما أنك لا تدركين..
- ربما..
- كتاباتك خلقت حياة لدي.. فرجاء استمري.. ربما يكون هناك غيري..
- ولكني أحتاج لأن أسمع منهم.. أنت لا تدري كم أسعدني وجودك هنا..
- أعلم سيدتي.. فالخروج إلى الآخر أمر يدعمنا نفسيا.. خاصة عندما تتلاقى أرواحنا.. عندما نكمل شيئا ما بيننا لا تشعر بخصوصيته إلا الروح..
- ما اسمك أيها العابر؟
- خمني..
- رؤوف..
- لا..
- عزيز..
- لا..
- نادر..
يضحك ضحكته الحلوة ويقول لها:
- تلعبين معي لعبة الأسماء..

obeikandl.com

- لا أجيدها..
- فراستك..
تضحك هند ضحكة لم تعهدها من قبل ثم تقول له:
- بالله عليك أخبرني..
- ما رأيك في ... رشدي؟!
- حقا..
- سليم..
-صدقا..
- إيهاب..
- هذه أسماء ممثلين أحبهم فكيف عرفت بالامر..
يضحك لها غامزا بعينه:
- أعرف..
- وكيف عرفت؟!
- من مقالتك أبيض و أسود..
- هيا أخبرني..
- وجدي..
تنظر إليه بلوم و كأنها تستحلفه بأن يصدقها القول.. يبادلها النظرة بغمضة من عينيه تأكيدا لها..
تحدث نفسها: وجدي .. ما أجمله من اسم!
- اسمحي لي أن أطلع على هذا الكتاب الذي تقرئينه..
- و لِمَ ترغب فيه؟!
- أحب أن أتعرف على ذوقك آنستي ..
- هي قصة مترجمة بعنوان.. بقايا قهوة..
- جميلة كما أنت..
تبتسم في خجل و تمنحه القصة وكأنها تمنحه إراداتها:
- تفضل..
أمسك الكتاب بيديه الكبيرتين بقوة.. حتى انطبعت رائحة عطره على

obeikandl.com

غلاف الكتاب.. و أخذ يقلب ببطء بين صفحاته.. و يمر عليها مرور الكرام.. لم يستغرق طويلا عند صفحاته.. و لكنه توقف عند هذه الصفحة التي أغلقت هند فيها على الوردة.. أخذ يحدث نفسه: نعم إنها فتاة من دنيا الخيال.. فما أجملها من دنيا! .. لا يسكنها سوانا.. ليت الزمان يتوقف عند هذه اللحظات التي تحتضنا.. لا أدري لم أشعر بسكينة في وجودك؟! إنها السكينة نفسها التي أحسها كلما قرأت مقالاتك.. ربما أنك الهدية التي منحها الله لي بعد طول عناء..

ربما الحديث نفسه يدور في نفس هند عندما همست دون أن تدري: يا مالك الأمر.. هل انتهى أمري أم ابتدأ معك؟!

ربما أنك الأمل المنتظر.. لم أكن أتوقع أنك ستأتيني على حين غفلة هكذا.. إنه الحلم نفسه الذي كنت أراه في غفلتي.. و سنين عمري الآتية.. لقد تحقق.. و لكن.. إلى أين سيأخذني معه؟!

إن الأحلام دائما ما تكون جميلة.. و لكنها مستمدة من زمن أخاف ألا أجده في واقعي.. و إذا ما تحققت أتفقد شيئا ما؟! يا ترى أيهما أجمل: حلمك أم واقعك؟! لا أعلم عن واقع الحب.. و لم أهيئ له نفسي.. إن علاقتي به فقط في تلك الروايات و الأفلام التي تربت مشاعري عليها.. و آمنت أحاسيسي بها.. أخاف أن أفقد إيماني إن اصطدمت بواقع أليم.. و لكني عاهدت نفسي ألا أخاف أو أحزن ثانية.. تحررت من عجزي.. فهل الحب قيد أو عجز؟!

و مضى الضيف الغريب.. بعد أن قلب لها حالها.. و تركها تعاني صراعا نفسيا جديدا عليها.. اسمه الاشتياق له... رحل و ترك بقايا قهوته في الفنجان.. و بقايا من عطره في أرجاء المكان... إنهما سلوتا هند في غيابه... يذكرانها بهذا المشهد الرومانسي الذي عاشته.. و كأنها تشاهد مشهدا من فيلمها المفضل... احتضنت هند الكتاب و تساءلت في نفسها: ترى أتراني أراك ثانية أيها الطير الشريد؟! و أحست دفئا يسري في أوصالها.. حرك معه قدميها حركة خفيفة.. شعرت معها برغبة في أن تقف و تتحرر من كرسيها..

شيء ما يضطرب في صدرها منذ لقائها مع وجدي.. ذاك المخرج السينمائي الرائع.. الذي لا نراه إلا عبر شاشات التليفزيون.. أو في العروض السينمائية.. أو ربما عندما يسرح خيالنا بحثا عن رجل ودود نسكن إليه في رحلة عبر المجهول..

نتلذذ بالرحيل عبرها لنصنع حياة خالدة في ذكرانا..

لماذا تأخر كثيرا هذا الأمل؟! لكم أحببت وجوده في كياني.. إنه يداعب شيئا ما كان ساكنا.. كان صامتا.. وأخشى من صحوته غير المعهودة.. واندفاعي إليه على هذا النحو.. وكأني ما صدقت أن وجدته..

لم أر في نفسي هذا الجانب الملح.. لطالما كنت أنظر في الأمر.. و أترقب أحداثه.. وأنا على يقين بأن الحكمة منه سترشدني.. وتهدي أفكاري إلى الشيء الصالح الذي يمكنني أن أعتمد عليه في تقديراتي للموقف..

يااالله .. لكم أحب وحدتي .. إنها ملاذي و مأمني عندما تشتد بي مواقف الحياة.. و لكم أحتاج إلى كل جوارحي.. لتهديني إليه أو تبعدني عنه.. و لكن هناك جارحة ما تسيطر على بأن أقترب منه.. وأتعرف عليه أكثر.. وأتلمس ما به من أحاسيس..

إنه حذرني من هذه الأحاسيس المتقلبة.. ورغم ذلك لم يزعجني تحذيره.. و لم ألق لها بالًا.. مر على سمعي مرورا عابرا.. لم ألتفت إليه.. رفضته تماما.. ربما لأنه صرح لي بتغيره الذي يعتريه كلما قرأ مقالاتي.. ربما لأني في قرارة نفسي شعرت باحتياجه لي.. إنه يتعلق بي.. وكله أمل أن أغيره.. فكيف أخذله.. و أتخلى عنه لأجل هذه الهواجس التي تحدثني.. إنه دوري الحقيقي الآتي من كتاباتي.. والساكن في غاياتي..

إنه بدأ يتحقق.. و يؤتي ثماره.. أن أحدث تغيرا ملموسا في حياة غيري.. و ألمسه بيدي.. إنها قمة السعادة.. وأي شيء أبتغي غير ذلك..

يااااه .. يا ربي .. لقد منحتني جواهرا لا يسع فرحتي أن تحتملها.. إنها ثمرة عنائي طيلة عمري.. لقد صبرت يارب طويلا.. وأعطيتني جزاء صبري جميلا.. و لا يدري بحالي سواك..

إنها البشرى التي وعدت بها عبادك الصابرين عندما قلت في كتابك العزيز «و بشر الصابرين» إن هذه الآية بدأت تتفتح في نفسي كأني لم أقرأها من قبل.. وأستشعرها بجوارحي على نحو يختلف لقراءتي لها سابقا.. فلك الحمد و الشكر يارب.. دائما كنت معي و لم تتخل عني.. رغم هفواتي في حقك.. و اعتراضي على مأساتي.. و لكنك جميل.. تصنع من القبح جمالا.. لم نكن

نلتفت إليه إلا بواسطة إلهامك لنا.. ولكم ألهمتني في حياتي.. لأصنع من عجزي الذي أراه قبيحا جمالا.. لا أعرف كيف أتى من هذا القبح.. إلا أنها رحمتك التي شملتني.. و انتشلتني من ضياعي..

صباح الخير هند.. ما لي أراك منزعجة هكذا..

هند تنتبه إلى رحاب:

رحااب!! صباح النور صغيرتي..

لم أعد صغيرة يا هند.. لقد كبرت أعواما من مآسي الناس..

هوني على نفسك يا أختاه.. ما أتينا الحياة إلا لنتعلم منها كيف نواجه مصائرنا بعقيدة ثابتة..

دائما أنت على حق...

و دائما أنت أختي المشاكسة .. أتدرين رحاب؟!

أدري!!

كم أتوق أن أرجع بالزمن إلى الوراء!!

ولِمَ؟! أتريدين أن ترجعي إلى حياة الفراغ؟!

بل أريد أن أستعيد عمري الفائت من أجله هو...

obeikandl.com

مأساة عاشق...

يا سيدتي.. إني رجل عاشق.. يحب من النساء امرأة واحدة.. هي له كل النساء.. ويكتفي بها عن سائر النساء.. ولكنها امرأة تعذبني معها بكل اللغات.. آه يا سيدتي لو تعرفين كم أتعذب في حبها.. إنها تحيرني معها.. و لا أجد منها جوابا..حلفتها بكل المعاني الجميلة التي جمعت بيننا.. و لكن للأسف لم تستجب لندائي.. و أنا في حيرة من أمرنا.. أحبها و لا يمكنني أن أستغني عنها.. و في الوقت نفسه أنا رجل أحتاج إلى أنثى تفهمني.. و يمكنها أن تحتويني.. و تعصمني من زلاتي...

انتهت رحاب من قراءة هذه الرسالة المجهولة.. ترى: من هو هذا العاشق؟! و ما هي قصته؟! رسالته قصيرة للغاية لدرجة أني لم أفهمها.. يحدثني عن عشقه.. وعذابه فيه.. ولم يبين لي طبيعة عذابه.. أو حتى سببه.. هل قالوا له عني أني ممن يطلعون الغيب؟!

انتظرت قليلا.. تشعر بقلق لا تدري سببه.. غير أن هذه الرسالة أثارتها كثيرا.. تشعر بأن ورائها شيء ما.. ترغب في أن تكشفه.. أمسكت بقلمها وكتبت في ظهر الرسالة..

أيها العاشق..

تحدثني عن مأساة لا أفقه عنها شيئا.. فكيف لي أن أدلك؟! وكل ما يمكنني أن أقوله لك: إن هذا العذاب الذي تحدثني عنه في رسالتك هو الذي سيهديك.. فمن الألم و العذاب ينضج الفكر بداخلنا.. انتظر حتى يحدث الله شيئا...

رحاب

أرسلت الرسالة و بداخلها قلق من أمر ما تجهله.. ربما غموضها.. ربما غموض من أرسلها.. ربما أنها تريد أن تعرف أكثر.. ربما أنها ترغب في أن تساعد صاحب الرسالة.. ربما أنها تأثرت بما كتبه..

ظلت طيلة الليل حائرة.. تتساءل في نفسها يا ترى: أيعاودني رسائله؟!.. أم يأخذ بما كتبته في رسالتي له.. و ينتظر ما يصنعه به العذاب .. لماذا أشغل نفسي به؟! و أنا حتى لا أعرفه.. لماذا تسلل هذا الرجل هكذا إلي و احتل حيزا كبيرا من فكري؟! هناك شيء غائب يؤرقني في رسالته.. ربما أني أهوى الغموض و البحث ما وراء المجهول..

أمسكت بالرسالة لتقرأها ثانية..غريبة.. ما هو الغريب يا رحاب؟! لماذا شعرت بغيرة عندما قرأت عن حبه لهذه المرأة؟! لماذا يشغلني حاله هكذا و أنا لا أعرفه؟! هل تعاطفت معه؟! و ما الذي أدي إلى تعاطفي؟! كم من رسالة مرت علي.. ولم أتعاطف على هذا النحو.. ولكني أعترف أنها الرسالة الوحيدة التي مرت على في بريد القلب و خاطبت وجداني.. لم أعهد رجلا أحب امرأة بهذا الشكل من الإحساس الذي انتقل إلى عبر رسالته..

جاهدت نفسها لتنام.. و لكن النوم جافاها هذه الليلة.. و تمردت عليها وسادتها.. ولفظها مخدعها.. كلما أغلقت عينيها لا ترى فيهما إلا صورة باهتة.. و ملامح لرجل لا تعرفه.. ترسم له ملامحا من رسالة قصيرة.. من مشاعر معذبة مطوية بين الكلمات.. من رجل يخاطبها عبر اللامكنة.. طال الليل عليها.. ترغب في أن تطوي الساعات طيا لترى إن كان سيراسلها غدا أم سيمضي إلى سراب..

أخيرا.. غفلت عينيها و هي تصارع اليقظة و النوم.. الغفلة و الانتباهة.. إلى أن استسلمت تماما.. مستلقية على ظهرها بعد جهد نال منها.. لتراه في منامها رجلا واقفا في صمود غريب.. يمد لها يده.. و يده الأخرى يطويها خلف ظهره.. و عندما تقترب منه و تقدم له يدها.. تظهر فجأة امرأة مغمضة العينين.. تمشي ببطء بينهما مادة ذراعيها إلى الأمام.. و بدلا من أن يمسك بيدها.. بيد رحاب.. كما تمنت في حلمها.. يتجه بكلتا يديه إليها.. إلى تلك المرأة الماضية بينهما ليعيدها في اتجاهه.. يمسك بكلتا يديها.. و يجلس على ركبتيه.. ويضع رأسه بين يديها.. و إذا هو يجهش ببكاء طويل..

استيقظت على صرخة في صدرها من بكائه.. قامت من مضجعها تضع يدها اليسرى على صدرها.. تحس خفقان نبضها..تناولت كأس ماء من جانبها.. شربت منه كثيرا.. وضعته ثانية مكانه.. ثم جلست على طرف السرير تفكر: ما هذا الحلم الغريب؟! من هو هذا الرجل؟! أمعقول أن يكون هو صاحب الرسالة؟! من أين لي بملامح شكله و أنا لا أعرفه؟! و من تكون تلك المرأة؟! هي التي حدثني عنها؟! و لماذا كانت مغمضة العنين؟! ما الذي تخشاه لتغلق عينيها ولا تراه؟! إنها أحالت بيني و بينه.. فما الداعي لذلك؟! .. يااالله..

كانت تتناول فطورها و هي شاردة.. و اكتفت منه بقطعة بيتي فور و فنجان نسكافيه.. لاحظت هند غيابها.. و انتقلت حالة الشرود التي تعانيها إلى هند... حاولت هند أن تخاطبها لتعرف بالأمر.. ولكن شيء ما أسكتها.. ربما تنتظر منها أن تكلمها.. ربما هي أيضا ليست في حالة مرضية لأن تسمع منها.. هناك حالة من الملل و الفتور و الاغتراب تسيطر على الأختين...

خرجت رحاب تسرع في خطاها.. و بمجرد أن وصلت إلى الجريدة حتى اتجهت مباشرة إلى صندوق البريد.. فهي تنتظر رسالته بفارغ الصبر.. وجدت رسالة منه.. و تملكها الخوف.. ولكن لابد أن تقرأها.. لتعرف ما بها.. و إلى أين ستأخذها رسائله المجهولة.. قرأت أسطرها القليلة:

إنه العجز يا سيدتي.. هو سر مأساتي.. هو الذي أودى بحبي إلى مأساة.. و لطالما تحدثت فيه.. تحدثت عن هذا العجز الذي يمكنه أن يدمرنا لو أننا لم نتخلص منه.. حتى لا ننتهي عنده كما انتهيت أنا...

أنا ذاك العاجز البائس

يااالله .. مالي هذا الرجل يعذبني معه برسائله؟! لماذا يضعني في حيرة أكثر؟! ما الذي يقصده من ذلك؟! لماذا لا يلقي إلي بهمه و ننتهي؟! إنها ثاني رسالة له.. و رغم ذلك أوصلني إلى قمة حيرتي.. كيف يمكنني أن أساعده و أنا لا أعرف عن عجزه شيئا.. إنه يمهد لي الأمر أم أنه لا يطيق الكتابة؟! قد يكون ملولًا و حكايته طويلة.. أي عجز هذا الذي يتحدث عنه؟!.. كلنا آتينا إلى الدنيا و فينا شيء من العجز.. أريد أن أخبره بهذا..

أمسكت بقلمها و كتبت على ظهر الورقة.. يا ذاك العاجز البائس.. لا تخلو

إرادتنا من عجز.. ولكن عليك أن تقهر عجزك.. إن كنت ترى في شخصي القدرة على مساعدتك.. فأرجوك بأن تلقي لي بحكايتك كلها حتى أنظر فيها.. و في هذا العجز الذي يصاحبها.. رجاء لا تحيرني بمقتطفات من قصتك.. أقف أمامها في تساؤلات مثيرة لا أجد لها أجوبة إلا عندك..

رحاب

قرأ ضياء رسالتها و فهم ما تعنيه.. إنها تستعجله بالأمر.. و لكنه متردد: أيخبرها بقصته أم لا يحق له؟! فـ نيروز شريكته في الحكاية.. و هي تعترض على ذلك.. عندما حاول معها أن تتكلم مع إحداهما رحاب أو هند.. فهو يتابعهما منذ أزمته مع نيروز.. رفضت بشدة..

ولكنه كان على اقتناع ذاتي بأن هذه الرسائل ستحدث شيئا في حياته.. ربما بها الحل الأمثل.. الحل المفقود.. هو مجرد شعور.. قد يصيب و قد يخطئ.. المهم أن هذا الشعور كفيل بأن يحيي الأمل.. و من إحياء الأمل تستمر الحياة.. و لابد لها أن تستمر.. و بالذات حياة نيروز.. لابد أن يعيد لها الأمل في الحياة.. إنها إن فقدت الحياة تموت.. و يموت هو معها.. إنه لا يتصور حياة بدونها..

دخل ضياء على نيروز في غرفتها.. كانت تعزف مقطوعة على أنغام الكمان.. ظل صامتا أمام عزفها.. لا يمكنه أن يقاطعها.. ففي هذا غضبها.. و هو لا يريدها أن تغضب منه..

انتهت من عزفها الذي تغيب فيه عن حدود العالم إلى عالم آخر.. لا أحد يدري عنه شيئا.. تنتقل فيه من المعقول إلى اللامعقول.. من المعقول إلى الجنون.. و ما الجنون إلا نوبة من نوبات الالهام.. لا يتذوق لذتها إلا فنان ملهم.. و إلهامه جاوز المدى.. هي لا تدري إلى أين تذهب بها روحها.. هناك شيء ينتزعها منها لتحلق بعيدا.. إلى أبعد مدى يمكن لعقل أن يتخيله.. و إن لم يكن للعقل دور هنا.. و هل يصح أن يلتقي العقل و الجنون؟!

فبعد تلك الليلة المشؤمة.. تلك الليلة التي طاش فيها العقل.. و ترك مكانه للجنون.. في ليلة صيفية اختفى فيها القمر.. و ترك السماء معتمة مع قليل من الضوء الرمادي.. حيث كان ضياء و نيروز يستقلان العربة.. في ليلة

فاقت النشوة فيها الروح و الجسد.. لتلتقي الشفاه و تتعانق الألسنة.. حتى غابا عن الوعى.. ليفيقا على اصطدام شديد.. اصطدمت رأساهما في مقدمة العربة.. إلى أن جري على وجههما بحر من الدماء.. يغيبان فترة عن الحياة.. و يعودان إليها.. لتجد نيروز نفسها و قد أمست أقرب إلى الضريرة.. لا تطيق حياة العميان.. فتهرب إلى غرفتها لا تخرج منها أبدا.. و يتعافى ضياء ليعيش عذاب ضميره.. و يشعر أنه السبب.. و أنه باستهتاره جعل نيروز تفقد شيئا عزيزا عليها و هو بصرها.. فماذا عساه أن يفعل مع هذه الحبيبة التي هجرته؟!.. إنها تعاقبه على ما فعله بها.. و أي ذنب له؟! لو أنها كانت هي مكانه.. تسوق العربة.. و حدث ما حدث معه.. ما كان يغضب منها أبدا.. لأنها مسألة قضاء و قدر..

كانت نيروز تغلق على نفسها غرفتها المظلمة بمفتاح تضعه في مكان يصعب على يدها أن تصل إليه.. حتى لا تخرج من غرفتها إلا بالكاد.. نسيت أن ضياء يحمل مفتاح غرفتها.. فقد كانا يتشاركان الأشياء الخاصة بهما حتى و لو بشكل وهمي.. في أزمتها الأولى كان يطرق باب غرفتها لتفتح له و لكنها لم تفعل.. فقد عاشت حالة صمت و كأنها أمست ضريرة صماء.. أدخلت نفسها في دائرة الصمت الذهول.. و رغم ذلك لم ييأس ضياء.. كان يخاطبها من وراء باب الغرفة.. و لا يمل من حديثه حتى يسقط من الاعياء.. يتوسل إليها بالحب الذي جمع بينهما.. و لا يمكن لأي محنة أن تعصف به أن تغفر له.. كان يقول لها:

حبيبتي نيروز.. إن كان يرضيك أن أهبك عيني لفعلت.. يكفيني أن تري أنت و لا أرى أنا.. و أعلم أنك لن تتخلي عني.. و ستأخذين بيدي.. و تكونين عصاي التي أتكأ عليها.. سيحملني ذراعك إلى حيث أشاء.. لن أشكو.. و لن أعترض.. طالما أنك سترافقينني في كل خطوة أخطوها.. بل ربما أنعم بسعادة بالغة لوجودك الدائم بجواري... فلا تغلقي الأمل علي.. و لا تغلقي بابك في وجهي.. افتحي لنا بابا آخر نبدأ فيه من جديد.. أكون فيه عينيك الناعستين.. و تكونين فيه قلبي النابض بهواك.. فلا تحرمي القلب نبضه فيتوقف عن الحياة..

و لكنها ما كانت تستجيب.. غير أن صوت بكائها كان يأتيه من وراء بابها المغلق عليها.. فيزده عذابا على عذابه.. إنه يشعر في قرارة نفسه أنه المسئول عما حدث لها.. و لكنه لم يكن يقصد.. و لا يدري كيف يمكنه أن يجبر هذا

الكسر.. لو أن بيده أن يعود بالزمن إلى الوراء ليوقف مد ما حدث لفعل.. و لكن ما بيده حيلة غير أن يدب بيديه على باب غرفتها في ضربات قاسية تكاد تمزق شرايين يديه...

تذكر أخيرا أن لديه مفتاح لباب غرفتها.. كانت قد أهدته له في عيد الحب.. وضعه تحت وسادته.. كان قد نسيه في مجري الأحداث المؤلمة التي مرت به منذ ذاك الحادث الأليم.. أدار المفتاح في باب الغرفة بخوف.. في خوف ألا يجد نيروز حبيبته.. و يجدها امرأة أخرى غيرها.. و لكن قد خاب ظنه.. إذ وجدها ملك قد جاء من السماء ليسكن الأرض..

كانت تعزف مقطوعتها المفضلة (أنت لي).. هذه المقطوعة الموسيقية المذهلة التي ألفتها من أجله.. و قدمتها له في ذكرى حبهما.. لتخبره بأنه لها وحدها.. بأنه سلما موسيقيا تعزفه على ألحانها.. بأنه نوتة موسيقية تستمد عبقريتها من شعور ملهم به.. بأنه كل النغم الأصيل الذي يمكنها أن تبدعه.. و مازال في جعبتها الكثير له...

فرح ضياء في نفسه.. و بكى بعينين صامتتين.. احتبست بداخلهما بعض دموع و صوت تشنج.. أراد ألا يزعجها.. خاف أن تثور عليه.. و تطرده من غرفتها.. فيصدم!! و أي صدمة يمكنها أن تحل به؟!

و أخيرا انتبهت نيروز إلى وجود أحد في غرفتها.. عرفته من رائحة عطره.. فهو عطرها المفضل الذي انتقته له.. فكيف لا تعرفه و قد اعتادت عليه حتى أدمنته.. و استوطن عبقه مجرى شرايينها...

صمتت.. و توقفت عن العزف.. تدور عينيها في مقلتيهما.. شعر بها و عرف أنها تبحث عنه.. اقترب منها.. و احتضنها من الخلف.. فاضطربت.. و ارتعشت.. و ابتعدت بكتفيها قدر ما تستطيع.. ولكنه تشبث بها كما الغريق يتشبث بطوق نجاته...

و بدأ حوار من الأنين المتبادل يدور بينهما:

نيروز.. نيروز.. نيروز..

تحاول نيروز أن تخرج من دائرة الصمت التي طوقتها.. ولكنها تفشل فتظل صامتة.. جامدة..

يقترب ضياء منها.. يمسك بيديها.. و يضع وجهه بينهما.. و يجهش ببكاء طويل.. وكأنه يسألها الغفران عن ذنب لم يقصد أبدا أن يقترفه في حقها...

نيروز.. سامحيني.. أعرف أني أخطأت في حقك.. ولكني لم أكن أقصد و لا يمكنني...

إنها مسألة قدر.. لعب القدر لعبته معنا.. فلا تجعليه ينتصر علينا...

إن لم يكن حبنا أقوى من القدر.. أقوى من الحياة.. فلم يكن هو حب..

و إني لأثق في حبنا أكثر من ثقتي في الحياة.. في القدر..

حبنا هو أقوى من الحياة.. أقوى من القدر..

انتفضت نيروز بين يديه.. اندهش لأمرها.. و توسل إليها أن تجيبه و لو بكلمة.. أو حتى بصفعة على وجهه.. إن ما يهمه الآن أن تتكلم.. اشتاق إلى صوتها.. إلى نبرة حنينها.. تتدلل عليه في همسات حبيبة إلى نفسه...

أمسكها بقوة من كتفيها.. و أخذ يهز فيها بقوة و هو يقول لها:

- تكلمي.. تكلمي.. تكلمي..

وقفت نيروز من مقعدها.. فخاف أن يفقدها.. جري وراءها.. و أمسك بها من خلفها.. و قال لها:

لا عليك.. يا حبيبتي.. لا تتكلمي.. إن كان يرضيك الصمت.. سأرتضيه أنا أيضا.. ولكن ابقي بجواري و لا تفارقيني.. كل شيء يهون إلا فراقك..

و إذا بـ نيروز تجلس إلى مكتبها.. و تخرج بأوراقها.. و تمسك بقلمها.. تكتب في ورقة:

- لا تقل هكذا ثانية عن القدر..

تعطيه الورقة ليقرأها.. يأخذها في ذهول ثم يقرأ ما بها و يجيبها..

- لا أفهم..

تكتب له:

- إنك تؤذيني..

- أنا.. و هل أجرؤ..؟!

- نعم..

- و كيف؟!

- لا تلعن القدر ثانية..
- لِمَ؟!
- لأنه بيد الله..
- ما قصدت.. ولكني حانق عليه..
- إياك أن تفعل..
- لِمَ؟!
- حتى لا نعاقب ثانية..
- نعاقب!!
سرحت قليلا ثم كتبت:
- اكتفيت..
- لست بفاهم ما ترمين إليه.. ما الذي اكتفيت منه.. اكتفيت مني.. لا أصدق ما تقولينه..
صمت الاثنان وعيناهما حائرة تبحث عن معنى..
كتبت نيروز:
- لقد عاقبني الله..
- عاقبك..!! كيف..؟! أخبريني.. أتعتبرينني عقاب حل عليك؟!..
- أخذ مني بصري..
- لا يا حبيبتي.. لا تقولي هذا.. مازلت أنا بصرك.. ونورك في الحياة..
- لا أقبل أن تشفق علي..
- أشفق عليك!؟ أتهذين أنت؟!
-أرجو أن تفهمني..
- أفهم ماذا؟! أفهم أني أشفق عليك؟! هذا الذي تريدين أن أفهمه..
- أريدك أن تفهم..
-نعم.. إني مصغ إليك..
اضطربت وهي تكتب:
- العطفة التي كانت بيننا تحولت إلى شفقة منك..
قرأ ما كتبته ونظر إليها..

obeikandl.com

- وهو ما لا أقبله..

- ولا أقبله أيضا.. ولا يمكنني أن أشفق عليك.. أنت مني.. هذا ظنك ولا أبالي..

سرحت نيروز بعينيها بعيدا.. وكتبت:

- أنت لا ترغب في أن تفهمني..

- لا تعقدي الأمريا نيروز.. ما عاد في العمر بقية.. يكفينا ما سرق من عمرنا.. أم أنك تصرين على مشاهد تراجيدية فقط في حكايتنا؟! .. أم نسيت عندما أقسمت عليك أن نتزوج ورفضت؟! ..

- رفضت.. لأني وجدت في الحب ما هو أسمى من الزواج.. ولكن الله عاقبني..

- ولماذا تعتبرينه عقاب؟!.. ربما يكون شيئا آخر أجل من العقاب..

- لا بل هو العقاب نفسه.. إنه الله أراد أن ينتقم مني..

- ولماذا ينتقم منك أنت ولم ينتقم مني أو منا؟!

- لا أدري.. ولكني لا أنوي أن أجادل القدر..

انتفضت وغاصت عيناها في خوف مجهول..

أمسك بيديها وقال بصوت مخنوق:

- نيروز حبيبتي.. ما الذي يخيفك هكذا؟! لماذا ينتفض بداخلك شيء؟!

- وقفت معترضة.. وأدارت له ظهرها.. وعيناه معلقتان بها.. جلست ثانية و كتبت له.. ودموع حارة تجري على خديها:

- ضياء.. رجاء انساني..

وضعت القلم جانبا.. و وضعت عليه ذراعيها.. و انكفأت تبكي بحرقة لم يملك أمامها إلا الذهول.. إنه عاجز بائس.. ينساها.. أني له أن ينساها.. إن روحه معلقة بوجودها في حياته.. إنها امرأة تختلف عن سائر النساء.. هكذا هو يراها.. إنه عمر من الأحلام انتمي فيه إليها.. فكيف له أن يحلم بامرأة أخرى أو حتى يحلم معها.. بدونها يفقد الحلم جوهرها..

قال لها قبل أن يخرج ويقفل الباب وراءه:

- بدونك أفقد الحياة.. ولا داعي لوجودي فيها.. عليك أن تختاري: إما موتي أو حياتي..

و خرج و قفل باب الغرفة عليها.. و أدار المفتاح و رحل..

رفعت نيروز وجهها من بين ذراعيها بعد أن انكفأت طويلا حتى راحت في غفوة إثر البكاء الطويل.. و انتبهت فجأة على معنى طرأ لها.. جعلها تذهل و تضع أصابعها على شفتيها.. لتخفي آهة خرجت منها و همست:

- ضياء .. معقول .. لا يمكن .. أيفعلها و ينتحر؟! .. غير معقول .. رباااه!!

و اتجهت ناحية الباب تتلمسه.. حتى وصلت إليه.. و وضعت خدها عليه.. تمسح بيدها.. و تبكي رغم احتباس دموعها.. و هو يسمعها من الخارج.. فيبكي قلبه لبكائها.. و تأبى عيناه أن تذرف دموعها.. فقد احتبست بين جفنيها..

كتب ضياء إلى رحاب رسالته الأخيرة:

هذه هي قصتي.. و هأنا لا أملك من أمري شيئا.. إنها عنيدة إلى أبعد مدى يمكنك أن تتخيليه.. لقد لعب القدر لعبته معنا.. و جعلني أدمر حبيبتي بيدي.. و هي الآن تسقط عاجزة يائسة بائسة.. فقدت الرغبة في الحياة.. و هي التي كانت تملأ الدنيا مرحا.. لقد استكانت في مخدعها.. كغانية تحس العار.. فتحاول أن تختبئ من ذنبها.. و كل ذنبها أنها غرقت معي في شيء من النشوة.. فلم تمهلنا الحياة.. و انتقمت أشد انتقاما.. أصحيح ما تعتقده نيروز: بأن الله غاضب علينا؟! .. و لكن الله وحده يعلم مدى صدقي معها حتى و إن أخطأت الطريقة.. أنا الآن ممزق بين الحياة و اللاحياة.. لدي رغبة في أن أنتزع روحي من جسدي.. و ألقي بها إلى الفناء.. و لكني أضعف من أن أفعل هذا بنفسي.. و لا يمكنني أن أترك نيروز وحيدة.. لو أني مت لما احتملت الحياة بدوني رغم غضبها علي.. و من المؤكد أنها ستلحق بي.. و في الوقت نفسه لا يمكنني أن أتخلى عنها.. و أرتمي في أحضان أخرى..

.....

هناك غصة تعتصر نبض رحاب .. و حسرة لا تفهم لها معنى .. تفكر في نفسها: ما أنبل حبك أيها الرجل! أمعقول أن مثل هذا الحب موجود على أرضنا؟! إن السؤال الذي يحيرك يحيرني أيضا و أتساءل: لماذا دائما ما تنتهي أي قصة حب بلعنة؟! أهي أعين الحاسدين أم أنا لم نرتق لمستوى فهم الحب بعد أم أنه ولد من رحم الشيطان و تضليل العقل؟!

من يمكنه أن يجيب عن تساؤلاتي .. ويمنحني الفهم الحقيقي لما يحدث لنا لماذا يعجز الخطاب الديني عن الإجابة عن تساؤلاتي؟! .. إن كان الحب رذيلة .. فلماذا أوجده الله في قلوبنا؟! .. ولماذا يعاقبنا على ذنب لا نملك فيه شيئا؟! ألا يكفينا حسن نوايانا حتى ننجو من مصائبنا القدرية؟! .. أم أنه الاختبار الأعظم للحب .. فقط من يجتازه هو من يناله..

يااااالله .. إليك المشتكى .. إليك نهرب بأنفسنا قبل أن نضيع في الحياة بين الفضيلة و الرذيلة.. قبل أن تتشابه علينا الأشياء.. ونسقط في أهواء النفس.. ما عادت بي رغبة في أن أتساءل و أبحث و أتحرى الأمر .. لقد أهلكتني الآراء معها..

اسمح لي يالله بأن أخبرك شيئا.. لكم أحب أن ألجأ إليك .. و أن أتحاور معك .. فربما أجد ضالتي عندك وربما لا .. لدي تساؤلات كثيرة.. أحس أني لن أجد أجوبتها إلا في حواري معك.. وحدك ستشعر بي على النحو الصحيح دون تأويلات.. و اتهامات من الغير.. لست في حاجة إليها.. لا أحتاج إلى من يفهمني خطأ .. أو يوهم نفسه بأنه اطلع على نواياي وعرف ما بها.. وأعط الحق لنفسه أن يتكلم بلساني.. ويحكم علي..

و هأنا أبدأ حواري معك بحديثي عنه .. عن هذا الرجل الذي ملك علي كياني دون أن أراه.. بمجرد أن تعرفت إليه.. وإلى هذا الحب الكبير الذي يحمله لحبيبته.. فما ذنبي أن يتعلق قلبي بإنسان ليس لي؟! .. ولماذا لم يكن لي؟! .. لقد عشت حياتي أبحث عن مثل هذا الحب .. وعندما أجده لا يكون من حقي.. أي منطق هذا؟! .. لكم تمنيت أن يكون لي أو ألا يظهر أبدا في حياتي .. كنت مطمئنة وراضية.. والآن أفقد تركيزي.. وتختل أمور حياتي من أجل وهم.. ربما يكون لي أو لا يكون..

هل أرسل إليه برسالة أخبره بأني هنا في انتظاره؟! .. وليدع الأخرى وشأنها.. فبإمكاني أن أقدم له حبا مثل حبها .. أم أنتظر لأرى؟! فقد يحالفني الحظ و تأتيني الأقدار به.. أيهما أولى: أن أسعى أم أنتظر سعى الأقدار؟! ومنذ متى تأتي الأقدار بما نشتهيه.. إنها دائما ما تعاندنا.. أيتها الأقدار بالله عليك خففي من وطأتك علي قليلا.. فما اعتدت مواجهتك...

قراءة في لوحة..

في معرضه (لوحات من الحياة) جلس السيد سالم.. يتأمل لوحاته الفنية المبعثرة في أرجاء المعرض.. هي عبارة عن قطع متناثرة من حياته.. فهو يهوى تجسيد بعض أحداث حياته في لوحات يقتنيها في معرضه الخاص.. يعتبرها تاريخه.. ثروته الفنية.. لوحات تربطه بالماضي.. و توطد حاضره.. و تبقى شاهدة على مشواره الفني.. إنه يؤمن بأنه لا مستقبل حقيقي دون هذا الماضي.. و أني له أن يستنير في غده إن لم يأخذ العبرة من أمسه.. هذه كانت حكمته في الحياة: ألا يضيع اليوم دون أن أنتبه إلى الحكمة منه..

جلس كعادته يتناول فنجان قهوته.. ويدخن سيجارته في هدوء و اطمئنان.. جلبه له انتهائه من رسم لوحة فنية.. تحمل صورة ابنته الغائبة.. تعكس ملامحها الصبية.. كان يتأمل اللوحة بكثير من الاحتواء.. بدموع صافية.. سكنت في جفنيها خشوعا أمام براعة اللوحة المرسومة..

مازالت ملامحها عالقة في ذهنه.. و كيف له أن ينسى جرحه لها؟! منذ رحيله و ملامحها الجازعة لا تفارقه.. كلما حاول أن يستبعدها من خياله جاءت وهاجمته بلا رحمة.. فينتفض شيء ما في صدره.. و يأن نبضه أنينا تنكسر له كل جوارحه في صمت و خشوع.. فقد اعتاد الخشوع تحت وطأة الشعور بالندم و الذنب.. فلا يجد سلوى لجبر ذنبه سوى أن يمسك بقلمه الفحمي.. و يرسم صورتها المنطبعة في نفسه.. منذ تلك الساعة المشؤمة التي رحل فيها رحيلا أبديا..

كان يخصص من وقته ساعة يختلي فيها مع لوحة ابنته.. الساعة نفسها التي كان يجلس فيها إليها.. يتسامران سويا..كان متعودا في كل مساء أن يجلس

في شرفة المنزل المطلة على نهر النيل.. يسامر ابنته حتى يحدث بها بعض التعبيرات التي يحبها فيها.. ثم يمسك بقلمه الرصاصي ليرسم على ورقة بيضاء هذه الملامح العذبة التي يذوب لها قلبه..

يدخل أستاذ منير إلى المعرض.. ويلقي التحية على السيد سالم.. يترك أستاذ سالم فنجان القهوة من يده في شيء من الاضطراب.. ويستقبل أستاذ منير.. فقد تعرف إليه من صورته التي تنشر بجانب مقالاته الصحفية في جريدة آفاق قائلا:

- أهلا أستاذ منير.. يسعدني وجودك هنا..

في شيء من الإعجاب يرد عليه منير:

- كيف تعرفت علي؟!

- أما تعلم أني من هواة قراءة مقالاتك..

- لا للأسف لم أكن أعلم..

- ولكنك بالتأكيد تعلم أن هناك من يحرص على متابعة قلمك..

- نعم أعلم ذلك.. فأنا أقابل يوميا بعض الأشخاص.. وأتحدث معهم..

- ما رأيك بمعرضي المتواضع؟

- يبدو لي أني سأجد فيه ضالتي..

- أي ضالة تتحدث عنها؟!

- أبحث عن موضوع يتحدث عن اللوحات الفنية وكيفية قراءتها..

- ولِمَ تهتم بالأمر؟!

- لدينا في الجريدة مجلة ملحقة بها.. تصدر أسبوعيا.. نقدم فيها موضوعات أدبية و فنية.. ربما أنك اطلعت عليها..

- نعم وأنا من أشد المعجبين بصفحاتها..

- عظيم .. أريد أن أقدم موضوعا شيقا يجذب القارئ.. ويطرح عنه الملل.. ووقع اختياري على تعليمه كيف يقرأ لوحة فنية بمجرد النظر إليها..

- لماذا اخترت معرضي من أجل الفكرة؟!

- حقيقة.. أنا أزور أكثر من معرض إلى أن أستقر.. وربما يكون الموضوع متعلقا بأكثر من معرض.. أن يكون سلسلة من الحلقات لعدة لوحات لمجموعة

من الفنانين.. فكل منهم لديه ما يقدمه..

- بالتوفيق إن شاء الله..

- آمين..

- اسمح لي أن أصطحبك في جولة في المعرض.. نتعرض فيها للوحات.. ثم نجلس نتناول فنجان قهوة.. لأحكي لك عن فكرة لوحتي القادمة..

- وهو كذلك سيد سالم.. لقد شوقتني..

اصطحب السيد سالم أستاذ منير في جولة في معرضه.. يحدثه عن لوحاته.. وأن أغلبها يعبر عن فترات من حياته.. و الباقي بما استوحاه حسه الفني من مواقف الحياة.. و قد لاقت لوحات المعرض استحسان الأستاذ منير.. خاصة أنها تعبر عن الحياة.. و هو ما تهفو إليه ميول القارئ.. أن يرى نفسه في شيء يشبهه..

وقف سالم يحدق في لوحة.. اللوحة تحمل ملامح صبية.. الصبية تنظر في ذهول.. ثم تتحول نظرتها إلى الجزع.. إنها شاخصة محدقة.. تخشى شيئا ما ماثلا لها.. و كأنها تقرأ عبر المجهول مصيرها المجهول.. إن نظراتها تصرخ في صمت.. و ملامحها تستغيث من أمر.. كل ما فيها من خطوط يبدو قلقا.. تشعر أمام صورتها أنك تحتاج إلى أن تمد لها يدك..

استوقفت اللوحة منير.. يحدق فيها.. و بحركة تلقائية يمد لها يده.. هامسا و كأنه يخاطب سالم:

إنها بحاجة إلى من يخرجها من هذا الصمت و يطمئنها.. ترى: لِمَ هي جازعة هكذا؟

لقد وجدت ضالتي.. سأعرض لهذه اللوحة.. و سنكتب عنها.. لعلنا نهب صاحبتها الكثير من المساعدة.. يمكنني أن أستشعر بأنها حقيقية.. موجودة على أرض الواقع.. و قد عاهدت نفسي في هذا الموضوع بالذات أن أقدم للقارئ الأمل و الرجاء في الحياة.. ربما أيضا هناك من تشبهها.. يحتجزها الصمت و الجزع.. و تنشد حريتها في عالم مليء بالمتناقضات و الصراع النفسي الذي يحمله لنا هذا التناقض.. ربما أنها تحتاج إلى أن تتخلص من عجزها و لكنها تنتظر من يفتح لها الباب.. فكم نغلق على أنفسنا من أبواب.. و كم نحتاج إلى أن نفتح أخرى...

في معبد الفن...

دخلت إلى معرضه.. تمشى بخطى مضطربة.. يبدو لها المكان خاليا من أي حياة.. غير هذه الحياة التي تلوح لها من بين اللوحات المبعثرة على أرضية المرسم.. إن كل لوحة منها تحمل بداخلها حكاية غامضة.. تشبه غموضه المحنك الذي لا يفارق همسات شفتيه.. ونظرة عينيه.. عندما ينطقان بغموض يذهل القلب عن نبضه في طلته المتعجرفة.. لقد احتفظت بكل رسوماته التي نشرها في مجلة آداب وفنون.. وكلها لوحات تسكنها امرأة ما.. تختلف ملامحها ما بين السمراء و الشقراء.. و لكن يخصها بتلك النظرة الحزينة البائسة.. أحيانا تبتسم ولكنها لا تخلو من حزن يقف وراء ابتسامتها.. هو يعبر حياة المرأة بواسطة حزنها.. ليخرج مكنوناتها في لوحاته كجوهرة ثمينة هجرتها الحياة.. لتتركها جسدا بلا روح.. جوارحا بلا نبض.. بكاء بلا دموع..

دائما هناك ملمحا مشتركا لنسائه.. كأنه على علم بحال نساء العالم أجمين.. كأن هناك من أخبره عن بؤس يغلف روحهن.. خلقت النسوة ليعذبن في الحياة.. ويكون عذابهن مصدرا لإلهامه حتى يتسنى له أن يبدع لوحاته على هذا النحو من الإبهار.. ليخاطب بريشته أي امرأة تأتي إليه..لتبحث عن نفسها فيخبرها أني وحدي من يمكنه أن يهبك هذه الروح الغائبة عنك أيتها العليلة.. إنه الطبيب الذي يملك فك طلاسم المرأة.. و قراءة خفاياها التي عجز رجال العالم عن الاطلاع عليها.. و أخفقوا في تقديرها..

كانت أول مرة لها تدخل مرسما.. قرأت كثيرا عن حياة الرسامين.. و عن أحوالهم.. و تابعت بعض أعمالهم من خلال الصحف و المجلات.. لديها هوس من نوع ما يجذبها جذبا إلى ملاحقة أخبارهم.. لأنها تؤمن بمدى مقدرتهم على إبداع الملامح الإنسانية.. و تجسيدها بإبهار لا متناه.. لا تملك معه إلا أن تطيل

النظر إلى هذا الاعجاز الذي يتجلى لناظريها..

ظلت تتأمل ملامح تلك المرأة الساكنة على لوحة مهملة في ركن بعيد من أركان المرسم.. رأت فيها شيئا يشبهها.. إنها امرأة حبيسة الدمع رغم ابتسامتها الذاهلة.. تبدو دموعها في عينيها كنهر يرغب في الجريان ليروي وجنتيها الشاحبتين ربما دبت فيهما الحياة.. ربما عاودها الأمل المفقود في فضاء اليأس..

كان مرسمه يشبه دنيا لا يسكنها إلا النساء.. نساء فريدات.. يبدو أنه انتقاهن بعناية فائقة ليزدان مرسمه بوجودهن فيه.. إنه عاشق للنساء.. و يقدر وجودهن في عالمه.. من أجل ذلك أوجد لهن دُنى تحتضنهن.. جعل حدودها لوحاته.. و من فضائها سكن لهن.. و تألقت أنامله في أن تهبهن تلك الروح الهائمة في مخيلته..

ما أقدره من رجل! بلمسة من ريشته يخترق خفايا المرأة.. و يبدع ألوانه في حذق.. خبير هو و متمرس بدرجة غير معقولة.. و كأن آلهة الجمال الآتية من خرافات الفلاسفة قد منحته مفاتيح كل شيء.. ليكون هو بذاته آية خرافية من زمن الأوهام..

- سيدتي..

تلتفت إليه و هي لا تكاد تصدق نفسها.. أمعقول أني معه؟! .. مع هذا الرجل الذي شغلني عبر أوراق المجلة.. و تمنيت أن أكون إحدى لوحاته.. لماذا يرتجف شيء ما في صدري؟!

- مرحبا..

- أأعجبتك اللوحة؟!

- أكيد .. و لكن ..

- و لكن ماذا سيدتي..؟!

- لِمَ هي مهملة هكذا دون باقي اللوحات؟!

- هو أمر غير مقصود.. صدقا..

- أصدقك.. لأنه غير معقول أن تهمل لوحة على هذا النحو من الإبداع..

- شكرا لك على حسن تقديرك..

- لا حقيقة.. أعجبتني اللوحة بشكل غريب.. لا يمكنني وصفه..

- إنه لمن دواعي سروري..
- أتسمح لي بسؤال ...؟!
- بالطبع ... تفضلي..
- هل وراء اللوحة قصة ما؟!
- اسمحي لي سيدتي.. لست أنا ممن يبوحون بأسرارهم.. إنه أمر خاص عليك أن تكتشفيه بنفسك..
- ولكني لا أستطيع.. أوربما قد أختلق قصة غير القصة الحقيقية..
- و هو كذلك سيدتي.. أنا أرسم اللوحة على نيتي.. و أترك للقارئ حرية التفكير و الاختلاق.. و من هنا يأتي الإبداع.. فقد ترين ما لا أرى..
- ولكني حتما لن أرى ما رأيته أنت..
- ليس بالضرورة.. فقد يهديك شعورك إلى اكتشاف الحقيقة.. و تتوارد أفكارنا عند القصة نفسها..
- لماذا تعتبرها سرا و تخشى أن تبوح به؟!
- لأنها هي كذلك ... انظري إلى اللوحات المعروضة.. جميعها ستخبرك بشيء.. و هو شيء حقيقي يقف وراء حزنهن..
- ولِمَ اخترت المرأة الحزينة لتكون بطلة لوحاتك؟!
- لأني من عشاق التراجيديا.. و أهوى أن أحتضن بؤسهن في لوحاتي.. و أسبر أغوارهن بخطوطي و ألواني..
- معذرة ... اللوحات مبعثرة في أرجاء المكان.. أليس من الأفضل لها و لك أن تعتني بها.. و تأخذ كل لوحة مكانها في الحجرة..
- أحبها هكذا ... مهملة..
- لا أفهم ... إنها تنتمي إليك.. و أخذت شيئا من عمرك.. فكيف تهون عليك؟!
- هي ليست مهانة سيدتي كما تتصورين.. هي على طبيعتها.. جزء غير قليل من كياننا مبعثر و لا يمكننا جمعه.. و اللوحة حياة مثلنا تماما تبعثرها الأمكنة..

صمتت تنظر إليه في حيرة.. تستمع إلى صوته الآتي من فراغ قلبها ليحدث بها دويا تهتز له كل أركان جسدها.. من أين أتى هذا الرجل؟! و لم هو مختلف هكذا عن الآخرين؟! فيه شيء مستتر يجذبك إليه جذبا.. أهي صفة الفنان

المبدع على مر العصور توارثها عن أسلافه المبدعين؟! لكم خشيت من لقائه.. و أخبرتني سريرتي بأني لن أقوى على مجاراته.. فهو يملك وسائل الإبداع جميعها لتجتمع في شخصية تجاوزت بتفردها شخصيات أخرى قرأت عنها.. و ظننت أن الزمن انتهى بانتهائها..

اصطحبني في جولة هادئة لأرى حجرات المرسم.. وجدت حجرة مكتوب عليها «مشاهد من أفلام أبيض و أسود» لم أدرك المعنى من وراء العنوان إلا بعد ما عبرت إلى داخل الحجرة.. لقد بدى لي أن حجرات المرسم ما هي إلا جسور نعبرها إلى أمكنة أخرى تعيش فقط في مخيلتنا.. فمع كل لوحة شاهدتها في المكان رحلت عبر أفكاري و خيالاتي إلى دنيا أفتقدها في واقعي.. وحده الفن هو من يهبنا نعمة الحياة المثالية.. تلك الحياة الفاضلة التي تحدث عنها أفلاطون في مدينته الفاضلة.. مدينة ليس لها وجود إلا في عقولنا.. أبدع أفلاطون مدينته على أوراقه لتنتقل عبر الأزمنة إلى خيالنا.. فنذوق حلاوتها بدلا من طغيان الواقع بقساوته على حياتنا.. فنفقد المغزى من الخيال الجامح الذي خلق فينا..

بمجرد أن دخلت من باب الحجرة.. رأيت لوحة معلقة أبهرتني معها.. رأيت بها مشهد من فيلم نهر الحب.. رأيت تلك الرقصة التي جمعت البطل و البطلة في رقصة ليلة رأس السنة و لكن الصورة كانت مرسومة على نحو أكثر إبداعا من مشهد الفيلم.. فقد أضاف إليها لمسات مختلفة جعلتها تبدو أكثر إثارة و جاذبية.. وكأن أسطورة عمر الشريف و فاتن حمامة في هذا المشهد قد استمدت عبقريتها من لوحته.. لولا اختلاف الأزمنة لكنت جزمت بذلك..

كانت عينا عمر الشريف أكثر عمقا مما هما عليه.. و بهما بريق يخبرك بأن هناك حب من نوع فريد يختبئ وراءهما.. حب غير معهود في زماننا.. حب رجل يعرف كيف يداعب محبوبته على النحو الذي يرضيها عنه.. و يجعلها تؤمن برجلها إيمان المتيم بأغنيته المفضلة.. فيتجاذب معها أطراف حديثه.. هو الحب الذي قالت عنه نجاة: الحب بعض من تصورنا لو لم نجده عليها لاخترعناه.. اخترعه هذا الرسام في عيني بطليه ليحفظ للحب كينونته.. فلا تعبث به أوجه أخرى للحب انتسبت إليه.. و اتخذته ديدنا و هو براء منها.. إنها

الروح التي تجعلني عندما أنظر إلى فاتن.. أرى فيها نفسي كامرأة.. وكحبيبة.. و كسيدة متوجة في نظر حبيبها سيدة نساء العالمين.. إنه المشهد الذي تتمناه كل امرأة تتوق إلى فروسية الحب.. و إلى حبيب فارس.. فكم من مرة شاهدت فيها الفيلم.. ولعبت في مخيلتي دور البطلة.. رغم أني لا أجيد فنون التمثيل إلا من خلال هذه الشاشة الوهمية التي خلقتها مخيلتي من أجل أشياء لا أقدر عليها في واقعي..

دائما الخيال جميل في نظري لذلك تراني أهرب إليه هروبا جميلا يشبه جماله.. أما هذه المرة فقد أحببت هذا الواقع الذي جعلني ألتقي به.. نعم كان جميلا في خيالي و لكنه أجمل بكثير في الحقيقة.. لقد أعطى للحقيقة جمال الخيال.. لقد جعلني أغير مبادئي التي أؤمن بها.. ولكم آمنت بأن الخيال أجمل من الحقيقة.. و هأنا أقر لخيالي و أعترف بأني ظلمته معي عندما أخذته إلى خيالي و تصورته بطلا بلا ملامح و ما هو إلا خليط من عمر الشريف على صالح سليم و رشدي أباظة و شيء من ملائكية شكري سرحان..

انتبهت بعد رحلة تأمل عميق في اللوحة إلى المغزى من الصورة.. و فهمت أنه يقصد بأن الغرفة عبارة عن نهر لا ينضب من الفن و الجمال.. فقد امتلأت الحجرة بلوحات لمشاهد رائعة من أفلام الزمن الجميل.. و اصطبغت ملامحها بأجواء باكية بكاء أصم.. لا يسمع أنينه إلا أصحاب القلوب المجروحة حتى لوحاته المقتبسة من الأفلام الأبيض و الأسود كانت باكية و حزينة.. كانت دائما تركز على المشاهد المؤسفة التي تهز الوجدان.. مثل هذي اللوحة التي تحكي مشهدا من فيلم (أغلى من حياتي) عندما نامت البطلة على خبر وفاة حبيبها في الصحيفة.. و إذا بيد حانية تمسح على شعرها.. لم تكن يد حبيبها لأن الأموات لا يعودون إلينا مهما رغبنا بذلك.. و إنما كانت يد رجل آخر.. رجل تمنت أن تنجبه.. هو ابن حبيبها..

مازلنا في صمتنا.. فبمجرد أن وطأت رجلاي المرسم.. و لاحظت صمت يخيم على المكان.. ينتقل إليك بمجرد أن تدخل إلى المرسم.. يلزمك أن تخضع له حتى لا تتطاول بثرثرة لا معنى لها و أنت في محراب الفن.. فكل شيء مقدس لابد و أن تصمت أمامه إلزاما.. رغم أن صمت المكان يخبرك بتفاصيل لا حصر

لها.. ما عليك إلا أن تتعلم كيف تدير معه حوارك الخاص.. و إن لم يكن في مقدورك فثق أنه سيعقد الحوار معك دون أن تشعر.. دون أن تشعر ستجد نفسك في حديث لا نهاية له.. تحدث من؟! لا تدري.. ربما نفسك.. ربما هذي العبقرية الموجودة في المكان.. ربما أنه خيال الشعراء و المبدعين آتي كمحارب يملك أدوات حربه ليوجهها إليك فيصيبك في منطقة ما من العقل.. تصيبك بغيبوبة فكرية عالقة في ذهنك لا يمكنك أن تصحو منها بسهولة.. فهو يتقن فنون الحرب.. و يعرف أين يوجه أسهمه..

أول ما تعلمته معك هو صمت الأشياء و الأمكنة.. كما تعلمت أحاديث النفس و العقل.. عشت معك وقتا في حوار مختبئ وراء رؤانا.. كأنك صنعت مني هذه الناقدة العالمة بكل قواعد الفنون و حرفية صنعتها.. لم أكن أعلم أن في لقاء واحد معك سأمارس فنونا عدة تبدأ بالصمت و تقف عند الابتكار.. فقد ابتكرت آلاف الأدعية لأرددها على أبواب حجراتك الغامضة..

انتبهت من غيبوبتي الفكرية في محراب فنه على صوت نجاة في مقطوعاتها الخالدة: ماذا أقول له ... ؟! فاستدرت إليه لا أجده بجانبي.. لا أدري منذ متى و لم يعد بجواري.. تركني أهيم في لوحاته.. و أحاول أن أكتشف أسرارها.. وضعني في هوة فارغة.. انحدرت فيها دون أن أعي.. و أخرجني منها بشدة واحدة.. شعرت فيها بالأمان مع صوت نجاة الدافئ.. ترى: أيقصد هذه الأمور التي يفعلها ليجذب المرأة التي تدخل إليه؟ أم أنها شخصيته هي التي تملي عليه هذه التصرفات و طبيعته المستوحاة من أخلاق النبلاء؟ هناك أشياء في مرسمه دلتني على حاله.. إنه يحاول أن يربط نفسه بالأزمنة الجميلة التي ولت.. يحاول أن ينتمي إليها.. يحاول أن يوطد علاقته معها.. قد يكون في هذا سر عبقريته.. لذلك يخشى عليها أن تنفلت منه.. فهو يحاصر نفسه بكل ما هو أصيل..

التفتت تبحث عنه بين أروقة المرسم.. فإذا هو واقف بجوار سيدة ذات وشاح أسود.. لا يرى من وجهها شيئا.. وكأنها جاءت هنا مستترة حتى لا تقع في شراك هواه.. ترى من هي؟! أهي ضحية من ضحاياه؟!

انتبهت ثانية على صوت نجاة تردد كلمة أحبه أحبه.. وقعت على نفسي بشكل مختلف عما اعتدت.. وكأنها تخبرني عن حب جديد يباهتني.. و يتسلل

خلسة إلى نبضي ليحدثني حديثا حلوا لم أتذوق طعمه إلا هنا: وكيف أهرب منه إنه قدري .. هل يملك النهر تغييرا لمجراه؟! ... نعم يا نجاة أحبه .. لست أدري ما أحب فيه..

وبخطى بطيئة تتطلع إلى شيء ما غائب في نفسي.. ذهبت إليه.. تخبره عيناي عن معاني الأغنية أنها أمست له.. و إن كانت تنتظر سؤاله: ماذا أقول له لو جاء يسألني: إن كنت أهواه ...؟! إني ألف أهواه ... ولو كان هناك من الأرقام المفتوحة التي لا تنتهي عند حد معين من الحسابات لأخبرته بها أني أحبه بعددها.. رغم أني أشعر بأني أحتاج في حبي له إلى ما هو أسمى من الحسابات.. لأنها لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن ترقى لمستوى العاطفة التي أحملها له بين جنبي.. ولكن من معجزات الحب التي عرفناها أن تأتي الحسابات في عاطفة بما يبهرنا معه وهو ما صنعته نجاة بقولها ... ألف أهواه..

- مازالت في حوارك تتحدثين..
- لقد علمتني فنون الحوار دون أن أنطق بكلمة..
- إذن أنت عبقرية.. فالعباقرة فقط هم من لديهم هذه الملكة..
- أشعر أني أصبحت عبقرية بمجرد أن أتيت إلى هنا..
- كنت في حاجة إلى من يستفز عبقريتك لتخرج..
- ليس الأمر كذلك..
- و إنما ...
- يوجد هنا شيء يمنحك أحاسيس مختلفة تخلق بداخلك أمر خارق للعادة..

جذبني من يدي وقال لي: تعال أوريك شيئا..

لم يدر ما فعله بي عندما التقت يدي بيده.. أرغب في أن أخبره هذه الأحاديث التي تخبيها عنه جوارحي.. وأي جدوى في أن أحتفظ بها لنفسي.. إنها خلقت من أجله.. من أجل أن تبوح بشعورها له.. تبوح بحديثه العذب الذي منحني لطائف الإحساس.. لطائف تستمد وجودها من وجوده.. إنه قادر على أن يمنحني الشيء الذي يكملني ويجعلني أنثى مرغوب بها..

- انظري ... ما رأيك؟

أشار بيده إلى تمثال امرأة يقف في ركن من الحجرة.. تمثال منحوت على قدر لا يمكن أن يوصف من الجمال.. هذا الرجل لا يليق به إلا وصف عبقري.. فكلما رأيت إبداعه في ركن ما لا تملك إلا أن تفرغ عن فيه.. و تبتسم ابتسامة بلهاء.. ابتسامة.. ممزوجة بشيء من الغباء الفطري.. و الغباء المصطنع.. لتخبره عن حقد أحاط بك.. يشعرك بمدى تفاهتك أمام هذا التفرد الذي لا تملك أمامه إلا الرغبة في انتزاعه ليكون لك.. فتجد أنه يستعصي عليك..

ربما من هذه العبقرية المستعصية استمد عناده كرجل شرقي.. تفوح منه عجرفة الأمراء.. و ما كان يوما أميرا إلا في قلوب نسائه المحطمة على ناصيته.. أشعر بأن هناك سنون من العمر جمعتني معه.. سنون تبعدني و تقربني منه.. سنون تجمع في خباياها ذكرى ولت و حلم آت.. و كلها أشياء من تدابيري.. لا شأن له بها.. أنا من اصطنعتها بمجرد دخولي إلى المكان.. فرضتها علي هذه النشوة التي انتشيت بها عبر أروقة المكان.. و جعلتني أترك الأرض و أحلق عاليا في سمائه..

إنه حقا راهب في محراب فنه.. لقد خلق هذا الفن ليجعل من نفسه راهبا للفن.. إنه أحب شيئا و أراده.. فأفنى عبقريته ليرضى عنه الفن.. و يكتب له الخلود.. حتما سيكون مرسمه في يوم من الأيام معلما من معالم الوطن.. سيقدم إليه المبدعون من أنحاء العالم ليضعوا بصمتهم بوجودهم في هذا الصرح من الإبداع.. سيتهافت عليه من يرغب في أن يحصل على تاج العبقرية ليرتديه.. و يقتبس من وحيه..

وحده من يملك تاج العبقرية.. و وحده من يمكنه أن يضعه على رأس أحدهم.. إنه يملك أمورا لا مقدرة لأحد غيره على أن يجيدها..

نظرت إليه و هو يحدثني و شعرت برغبة ملحة في أن أصرخ فيه و أقول له: من أنت ... ؟؟؟!!!

سؤال يبدو بسيطا.. و لكن معه تختلف المعاني.. و تتأرجح بين السطحية و الغموض.. من يملك أن يجيب عن سؤالي؟ حتى هو لن يتمكن من ذلك.. ربما أجابتني مواقف تجمعنا.. و أشياء من وحي إحساسي به.. أليس للجوارح حدس خاص جدا.. يستمد بصيص ضيه من صدق نبضه الكامن فيما وراء

الشعور..

قال لي و نبرة من النشوة تغلف صوته:

- انظري إليها ... انظري إلى أفروديتي ... إنها آية جمالي ... إنها مصدر إلهامي..

تأملته في ابتسامة مخنوقة بفرحتي به.. كلما اقتربت منه ينتابني إحساس غريب.. يبدو لي بعيدا جدا.. و أن شيئا ما يقف بيننا.. رغم أنه بالقرب مني في هذه اللحظات التي أشعر فيها بعده.. و كنت أظن أن لقائي به سيقطع مسافات كنت أمني فيها نفسي به عندما أراه على صفحة غلاف المجلة.. وقتها كان قريبا.. و يقترب أكثر مع كل لوحة أشاهدها له.. و تعرفت عليه.. على ذاك الرجل المهموم.. ذي اللحية الحمراء.. عندما صادفته في تلك الليلة الباردة.. في مطعم الأسماك المشوية المطل على النيل.. و أخبرني شيء فيه بأن رابطة ما تربط بيننا.. و أني سأراه ثانية.. صدفة أيضا.. لقد أحببت الصدف من أجله..

- لم أنت دائمة السرحان؟! ما الذي يشغلك على هذا النحو؟! أتعلمين: ما من امرأة جاءت هنا إلا و كانت دائمة الحضور.. تخشى لحظة تضيع منها دون أن تشاركني إياها..

و دون وعي مني همست له:

- مغرور أنت..

ضحك بملء فمه و قال لي:

- ما أجمل همسة شفتيك.. سأرسمها..

- ترسمها ... ؟!

- نعم .. لقد أوحيت لي برسم شفاه تهمس: مغرور.. تضم شفتيها إلى الأمام.. و كأنها ترسل بقبلة الحياة.. انتظريها في العدد القادم.. ستكون شفهاك هي التي تهمس.. ستهمس للجميع لنرى: أيهم يمكنه أن يؤل المعنى..؟

- لا أصدق.. أبإمكانك هذا..؟!

- أعتقد هذا سيدتي الهامسة .. أما قلت لك؟

- ماذا؟!

- أرأيت ... عندما دخلنا إلى أفروديت أوحت لي ... أأمنت أنها مصدر إلهامي؟!

- نعم آمنت و لكني سأؤمن أكثر بعد أن أرى اللوحة..

- اتفقنا ...

.....

خرجت من عنده فاقدة لكل المعاني التي تمد جوارحي بالشعور والإحساس.. فقد راحت مشاعري لتبيت عنده.. و تخلت عني.. و سكنت أحاسيسي على مقعده لم تفارقه..

الآن أنا أمشي جسدا.. ينبض كدقات الساعة.. جوفاء في أعماقها.. تحدث صوتا يردد: أنت الذي أريد .. أنت وحدك .. هكذا ستمضي أوقاتي تردد دون انقطاع: أنت الذي أريد .. أنت وحدك..

كنت أتمتع باهتماماتي.. و أشعر معها بلذة لا متناهية.. و أتشوق إليها شوق الصباح لتغريد البلابل.. و إذا بي أكتشف أن أي لذة لم تكن لك فهي زائفة.. وهمية.. حمقاء.. أخذت من عمري ما كان ينبغي أن يكون لك.. فكيف أستعيد ما سلبته مني الحياة لنتقاسمه سويا.. ليذوب السكر في أيامي.. و تحلو مساءاتي..

أيها الليل لا تخفي بداخلك انبثاق حبي له.. و أعلن عن ميلاده في الأرجاء من حولنا حتى تعلم أحياؤك بأني أصبحت أنتمي إليه.. لا تكتم هذه الصرخة المدوية في أعماق شعوري: بأني أحبه أحبه أحبه ..

لقد خلق بداخلي ثورة من أجله.. تحتاج إلى أن تعانق كيانه حتى تنعم بسلامها.. فكيف السبيل إلى سلام وحده من يمكنه أن يمنحني إياه؟! فهل له أن يمنحني أم سيظل يجتاح قلبي بعاصفة هوجاء تحملني معها إلى أعلى ثم تهبط بي إلى فراغ عميق.. و ما بين علو و هبوط تتصارع نبضات قلبي.. تضطرب خلجات فؤادي.. وربما توقفت عن النبض.. و فقدت نشوة الحياة..

.....

لماذا أشعر بأنني أبحر معك في زورق من الأرواح النورانية.. تحطينا بهالة من الدموع الندية.. وكأنها تبارك هذا اللقاء الخالد في خلجات فكري.. إنه انبثاق الفجر في عينيك يخبرني عن رحلة لا غاية لها و لا نهاية.. تحررني فيها ابتسامتك الصامتة من احتياجي لأي كائن آخر.. فلا أدرك من الموجودات غيرك.. و لا أؤمن بحياة إلا و أنت أساسها..

ألم يحن الوقت بعد لتطلق روحي؟!

فقد أضحت معلقة بعطرك المعلق في أنفاسي.. فمنذ أن خرجت من عندك ورائحة عطرك المشبع بأنفاسك تملئ كياني.. أحس أني أعرفها من زمان.. ربما التقيتها وأنا أشتم لوحاتك.. وذاك السحر القادم من قنينة ألوانك..

إنك الأقدر دائما على أن ترحل بي عبر الخيال.. لتجسدني في لوحة كسر من أسرارك المغلقة.. ولقد أرغمتني على حب طلاسمك.. فهي تمنحني شيئا ما.. شيئا يجعلني أبدو مختلفة عن كل النساء..

إنها يد فنان غير عادي تلك التي تباركك وتمنحك هذا التميز اللامعقول.. ربما اتفقت آلهة الفن والجمال على أن تهبك روحها لتخلد اسمك في عقول الأحياء.. فإني ألمح طيف الخلود يضع تاجه على جبينك الوضاح في رحاب فكري..

كانت ليلة.. وأي ليلة! هاذي التي ذهبت فيها إليك.. ولم أكن بعد متهيئة للقائك.. لم أكن مستعدة لحب مثل حبك يجتاحني.. ولرجل مثلك يطوف بي الكون كله في لحظات ثم يعيدني إلى حيث لا أدري.. إلى بقعة تشبه ذاتي.. أكاد أن أجزم بأني أنتمي إليها.. وإن كانت اختلفت عما هي عليه بعد رحلتنا الوهمية .. أهكذا يصنع الوهم بنا؟! يغربنا إلى هذه الدرجة.. إلى درجة أجهل فيها ملامحي.. ولا أتبينها.. وكأنما هي أنثى أخرى غيري.. تبا لك أيها الوهم.. وتبا لعقل يخضع لك.. ولجوارح تستسلم لهذيانك.. ربما أنها ضريبة الابحار فيك.. أن تكون غربتي وتشردي في أروقته..

خطوات في مطر الشتاء كانت لها ينبوع أحلام..

لقاء في مقهى...

دخلت منى إلى مقهى سلسبيل.. هاتفت ضحى لتأت إليها:
- ألو... ضحى..
- منى.. مرحبا بك..
- مرحبا..
- هيا ... أنتظرك في مقهى سلسبيل..
- معقول .. في هذا الوقت .. الطقس سئ للغاية..
- أحتاج إليك ... الأمر هام..
- لعله خير..
- لا تكثري الحديث .. فقط ارتدي ملابسك و تعالي..
- هكذا أنت دائما متهورة..
- سلام ... سأنتظرك..
- سآتي..

تطلب فنجان شاي و قطعة كرواسون محلى بمربة الفراولة.. تشعر بجوع شديد.. أرهقتها كثرة التفكير.. أرهقها لقاء معه أصابها بدوار فكري.. استنفذ طاقتها.. لم تلفظ إلا القليل.. ولم يتحاورا إلا بجمل و عبارات محدودة.. اكتفى منهما الكلام ليستحوذ عليهما الصمت.. ليأخذها منه إليه.. فما كانت أحاديثها الصامتة إلا دعاء أبكم.. يبوح بأحرف مضطربة له.. هذه الأحرف ترغب في أن تفصح عن شعور خلق من أجله.. عليه أن يدركه و لا يتخلى عنه.. كمن أنجب طفلا من الحرام ولم يرغب به.. ولكن ما ذنبه الطفل.. لقد ولد و أتى إلى الدنيا.. أليس من الحرام أيضا أن ندفنه حيا؟!

obeikandl.com

تأتي ضحى في مرحها المعهود.. تعانقها.. تجلس لتستريح من برودة الجو.. تنظر إلى منى فتجدها صامتة.. تبحلق في طعامها.. تسمع أنفاسها تعلو وتهبط.. شيء ما بداخلها يوترها.. إنها تفكر تفكيرا عميقا صامتا في مظهره ولكنه يغلي في صدرها.. ويكاد أن ينفجر من شدة غليانه.. ترى: ما الذي يحيرك معه يا منى هذه المرة؟! إنك لا تسأمين تعذيب نفسك.. وتعذيبي معك بانشغالاتك الصبيانية.. مازلت تعيشين في مرحلة الصبا.. ترفضين أن تبرحيها..

- منى ... ما كل هذا الصمت الذي ألمحه عليك؟!
- إنه هو..
- ذاك الرسام الذي أخبرتني عنه..
- نعم .. ومن يكون غيره؟!
- ما به؟!
- التقيته الليلة..
- وبعدها..
- لا أدري ما أقوله..
- أنعود ثانية يا منى للأمر نفسه؟!
_ نعم نعود ... نعم نعود ... إلى أن أجد ضالتي..
- وضالتك هذه لا تجدينها إلا عند رسام بوهيمي..
- نعم هو كذلك..
- لماذا تعشقين البوهيمية في الرجال؟!
- لا أدري.. أحب الشخصية التي لا تبالي بشيء سوى نفسها.. لها رؤاى مختلفة.. لا تخشى شيئا.. تعيش حياتها دون قيود سخيفة..
- تقصدين أنها لا تنشد إلا لذتها..
- ربما .. ولكن .. ما المانع؟!
- أحوالها دائما متقلبة وغير مستقرة..
- من قال أني أحب الاستقرار..
- لا يمكنني أن أفهمك منى..
- لأنك تفكرين بطريقة تقليدية مملة..

- أتذكرين محنتك مع ذاك الموسيقار المهووس.. الذي يخال نفسه في زمن يحياه وحده..

- كانت أياما ..

- أتفتقدين إليها..؟!

- أفتقد إليها كثيرا..

- رغم ما حدث لك من جرائها..

- ما الذي حدث لي؟! هأنا أعيش حياتي.. و لا ينقصني شيئا..

باهتتهما فترة صمت.. رحلت فيها منى إلى ذكرى مؤلمة.. مازالت تسكنها.. ذكرى رجل عاش في وجدانها فترة من الزمن.. فتنت فيها بموسيقاه.. رأت فيها ما لم يره الآخرون.. رأت عبقرية قد عادت لتتجسد فيه.. كم من سمفونية أبدعها من أجلها.. و أسماها منية النفس.. لقد جعلها تعيش في حالة حب.. لا مثيل لها إلا في الأفلام الإنجليزية الرومانسية القديمة... لقد منحها الخلود على مسرح الأوبرا.. عندما كان يقدم لها لحنا من ألحانه على أنه لها.. وحدها من كانت تعلم بالأمر.. كان يغمز لها غمزة تخبرها بأن هذا اللحن من أجلها.. استوحاه من هذه الرابطة التي تربطهما.. إنه سلم موسيقي من نوع مختلف.. لا يفك شفراته إلا عالم متخصص.. و مستمع له آذان صاغية..

تذكر أنها استلمت دعوة لحضور حفل موسيقي في دار الأوبرا.. جاءتها الدعوة من مجهول.. لم تكن تعرف من أرسل لها الدعوة.. و ما الداعي لذلك .. ؟! ظلت تفكر في أشخاص ولكنها لم تتيقن.. فغالبية المحيطين بها لا يصطبغون بصبغة الرومانسية.. و لا يسلكون طريقها.. فاحتار أمرها.. و قررت في لحظة شغف أن تذهب إليه.. لتعرف من هو.. و لم أرسل إليها الدعوة.. و ما يعرفان بعضهما.. نوع من الفضول الخفي تملك تفكيرها..

كانت تجلس إلى زوجها عندما استلمت بطاقة الدعوة من خادمتها أشجان.. أخبرتها أن رجلا ما أرسلها مع باقة صغيرة من الزهور.. اضطربت كثيرا لنظرة زوجها لها و لكن كعادته لا يلتفت لمثل هذه التفاهات.. اكتفى بقوله: يبدو أن معجبينك كثر.. صفعتها الجملة على وجهها.. صفعة اشتعلت لها عيناها.. تحد دفعها لأن ترد عليه بقولها: لتعلم قليلا عن النعمة التي بين يديك.. ألقى

بكتابه على الوسادة الحريرية في الأرضية.. و مشى متجاهلا عبارتها..

لم تأبه له.. و انتبهت أكثر لدعوتها.. متسائلة: ترى من هذا الجريء الذي تحدى الأصول ليدعوني؟ من هو هذا الرجل المغوار الذي اقتحم حياتي دون حساب لزوجي؟! لكم أتوق إلى رؤياك ... يا ترى كيف اهتدى إلي .. و من أخبره عني .. ولم اختارني أنا بالذات؟!

فاقت من صمتها على هزة من كتفها:

- ما الذي داربينكما حتى يجعلك على هذا النحو من الشرود؟

- سأقول لك ولكن أتمنى أن تفهميني..

- سأحاول و إن كنت أعجز في كثير من الأحيان..

- ما داربيننا ملخصه كالآتي:

في رحاب الدنى غير المتناهية التقيته.. من ذاك المدى البعيد في أعماق شعوري عرفته.. من تلك المعاني الكامنة وراء أغنياتي المفضلة نسجته ... ألا يكفيك هذا لتعرفي ما داربيننا؟

- حقيقة لا أدري ما أقوله لك..

تعودان ثانية إلى صمتهما.. تلاحظ ضحى رجلا أنيقا في مظهره.. يجلس على مقعد في طاولة على محاذاة منهما.. عيناه تبرقان ذكاء.. يدخن سيجارته بانسجام غيرعادي.. كأنهما على علاقة قديمة حتى تعارفا مليا و أبا ألا يختلفا.. يتناول فنجان قهوته بهدوء ورزانة.. يطيل النظر إلى منى..

تشعر ضحى بحرج لاهتمامه بـ منى و عدم التفاته لها.. ولكنها تنسى أمرها بمجرد أن تركز في حركاته ولفتاته..

***

إنه يبدولي شخصا مطمئنا.. اطمئن إلى شيء في نفسه.. ألقته إليه الطبيعة ليستقر في سريرته.. و تبدأ رحلتها معه لتغوص في أعماقه.. ربما تجد تفسيرا منطقيا لهذا الانجذاب إليه:

مجهول أنت بالنسبة لي.. رغم هذه اللحظات العابرة التي قربتني منك.. و جعلتني أجلس بجوارك.. و أنت .. لا تدري أني أهمس في أذنك بحب قد قدرله أن يولد..

ما كنت أؤمن بالحب من أول نظرة.. ولا أدري كيف يصيب القلب في نبضه.. ولكني بدأت أدرك بعضا منه.. منذ أن رأيتك جالسا هناك على هذا المقعد الصامد أمام فحولتك.. تدخن سيجارتك في انسجام أخاذ.. أخذني لأرحل عبر سحابات الدخان المتطايرة.. تحملني نشوة فكري إلى أحاديث مبهمة.. أحاديث حلوة لا يتقاسمها إلا عاشقين ذابا اشتياقا..

فمن أنت أيها المجهول لتقتحم حياتي هكذا دون استئذان مني؟! ما القوة التي منحتك إياها الأيام لتخاطب قلوب عذراء لا تعرفك؟!

لمحت أعين الفتيات حولنا ترمقانك بنظرات إعجاب.. وإن كان بإمكاني أن أقسم لك أن إعجابهن لا يساوي شيئا مقابل إعجابي بك.. أتدري لم..؟! لأنه ارتقى من مرتبة الإعجاب إلى مرتبة الحب.. هكذا في غمضة عين.. ومن يدري فقد يستمر في ارتقائه إلى أبعد مدى عرفته مصطلحات الحب..

أتعرف أني أخذتك معي إلى حيث أنتمي.. لنعقد اتفاقية أحلام بإمضاء طرفين.. تصبو نفساهما إلى فرصة ينعمان فيها بتعارف أبدي لا يمزقه الفراق..

- منى.. منى..
- ها ...
- يبدو أن من يطيل الجلوس إليك تنتقل إليه عدوى الهذيان..
- ماذا تقصدين..؟!
- أبدا.. لا شيء..
- مجنونة..
- (تضحك) أنا.. بالله عليك..

تعود منى إلى قصتها السابقة.. فمازال تجاهل زوجها لأمر الدعوة الذي جاءها من هذا المجهول أمر يجرحها.. ورغم أنها حاولت أن تسيطر على انفعالاتها.. وتتظاهر ببرودها.. إلا أن ذلك لم يفلح.. في لحظة فقدت شعورها.. وسعت خلفه تعنفه على تركه للكتاب على هذا النحو من اللامبالاة.. دخلت عليه حجرة مكتبه.. لتجده منهمكا في قضاياه يراجعها.. ظلت واقفة على باب الحجرة متشبسة به.. تجحد زوجها بنظراتها.. وهو لا يلتفت..

منغمس هو في قضاياه على النحو الذي يشعرك معه بأنه لا يعرف شيئا

عن دخولك إليه.. أي أنه يصر على التجاهل.. فهو سلاح من أسلحته لمواجهة خصومه.. بشكل يحفظ له كبرياؤه.. و اعتداده بذاته.. إن هذا الكبرياء وضع حاجزا بينه وبين معارفه.. فقد ألزمهم بقوانين لا أحسبها تروقهم.. فاستحالت إلى إدانة له.. لقد أغلق على نفسه كل ما يدعوه إلى التصالح مع الآخرين.. يكتفي باعتقاده في أنه متصالح مع نفسه.. يعيش انسجاما لا يليق لأحد أن يعكره.. فلا يوجد في نظره من يستحق أن يعكر عليه صفو حياته التي أحاط بها نفسه.. إنه نوع غير مألوف من الحياة.. إنها حياة من يعرف كيف يعيش لنفسه فقط.. يعرف كيف يفلسف أرائه ليقنع صدى ضميره بأنه مؤمن بها.. و لا شيء يفوق إيمانه..

حتى الصمت صمت بداخلها.. و ما عاد يرغب في حديثه.. اكتفت نفسها من طول حديثها الصامت بداخلها بشأنه.. تصرخ فيها لأن تتحداه لا أن تعاتبه.. فهو لا يرتقي لقيمة العتاب.. لم يكن العتاب يوما من جمله و عباراته التي يدونها في مفكرته الذهبية.. مفكرة لا تبرق إلا بمعان الجفاء و العجرفة.. و هل يفهم العتاب من تخلى عن إدراك كل معاني الاهتمام؟! و أضاع روابط الحياة الزوجية المقدسة بين حتمية قوانينه.. فهو رجل صعب المراس.. عنيد الرغبات.. يكاد أن يحطم ذاته من أجل معتقداته الصارمة..

تراجعت عن موقفها.. ورجعت من حيث أتت.. أغلقت باب حجرته في ذاك اليأس الذي يلازمها كلما أرادت أن تعنفه على تجاهله المتعمد لمواقف هامة لا ينبغي لزوج أن يتجاهلها..

و عادت إلى دعوتها.. دعوة حياة أرسلت لها.. لتعيد النبض المفقود إلى مكانه في مهجتها.. لم تنس أن تتأمل باقة الورد.. تراها باقة من أروع الباقات بما تخبأه في ثناياها من لغة للعشق.. لا يدرك كُنهها إلا عاشق ولهان.. فللعشق رسائله الخاصة.. ولهجة مستترة تبوح بأحاديث خجلة تزدان بالحياء..

بدأت رائحة الورد ترسل إليها بإشارات لتفهم لغتها.. لتنظر في أمر هذا المعجب الذي أرسل لها بطاقة حياة.. و باقة ورد ترغب في أن تبوح لها بسره.. أخذت تقرأ ثانية كلماته على البطاقة.. فقراءتها الأولى أعمتها فرحة لا تصدق الأمر.. قراءة صدمتها مفاجأة غير معقولة.. أتت على حين غفلة.. فكان لوقعها

جمال مخيف.. يسلبك صوابك.. وكل ما تبقى لك من قدرة على التركيز.. مجرد أن لمحت الكلمات انتفضت وخانتها عيناها..

ولكنها أرادت أن ترفض دعوته ولا تذهب.. وكم كانت تحتاج أن تذهب وتلبي دعوته.. إنها دائما ما تخاف من المجهول.. وتخاف أكثر من زوجها.. لقد ربى فيها الخوف.. إنها تخافه.. وتعرف مدى قسوته.. وأن سكوته وتجاهله دائما ما يكون ورائهما عقاب لن تقدر عليه.. إنه يمارس عليها نوعا من العقاب أشد على نفسها من الضرب والإهانة.. يعرف كيف يجحدها بنظراته التي تخبرها كم هي حقيرة بالنسبة له.. وأنه تنازل كثيرا عندما تزوج من امرأة تافهة.. تلهث وراء المشاهير.. تعجب بهذا الفنان.. وتفتن بذاك الممثل.. وتذوب عشقا بهذا المطرب..

ظلت طيلة اليوم حائرة تفكر: أتذهب أم لا؟! رأت أن تهيئ نفسها للذهاب.. وبعدها تنظر في شعورها: أيأخذها إليه أم يظل أسير خوفها؟!

وقفت أمام مرآتها تتزين إلى أن بدت في أبهى حلتها.. حتى إنها انبهرت بنفسها.. وشعرت بأنها في هذه الليلة بالذات مختلفة.. مختلفة عن أي سهرة سهرتها من قبل.. تحتاج إلى أن يرى هذا الرجل المهتم لحالها جمالها الفاتن.. انتشت عيناها بلمعة.. وأخذت حقيبتها بين يديها.. وذهبت إلى سهرتها..

التقته هناك.. عرفته بمجرد أن رأته.. هو ذاك الرجل الذي التقته سابقا في حفلة صديقتها علية.. عندما احتفلت بعيد زواجها في حديقة فيلتها.. وطلبت من صديقها الموسيقار أن يؤلف مقطوعة موسيقية لتهديها إلى زوجها في هذه المناسبة..

لاحظت منى أثناء حضورها للحفل.. التفاتة الموسيقار لها.. وإبدائه بنظراته لإعجابه بها.. وهذا الكأس الذي قدمه إليها واحتسته بنشوة.. ظل اهتمامه بها أثناء الحفلة يدخلها في حالة من النشوة.. يشعرها بأنها أنثى مرغوب فيها.. أنثى بنكهة الآيس كريم في الشتاء..

وانتهت الحفلة لتعود خائبة إلى منزلها.. ويعود هو ويفاجئها بدعوته.. ليمنحها حياة أخرى..

جلست على المقعد تستمع بشغف إلى موسيقاه.. وبعد أن انتهى منها.. و

صفق له الجمهور تصفيقا غير عادي.. وقف أمام الميكروفون و قال: اسمحوا لي أن أقبل يد السيدة التي ألهمتني ألحان هذه المقطوعة الخالدة مقطوعة منى .. و نزل إلى مكانها و وقف تجاهها يبتسم لها في إعجاب و هي تنظر له تكاد لا تصدق.. يرفع يدها إلى شفتيه و يقبلها ثم يشكرها و ينصرف.. و إذا بالجمهور يصفق عاليا.. و منى من شدة خجلها تخرج من الأوبرا.. تمشي في طريقها.. تجفف دموع عينيها بمنديلها.. و إذا به يلحقها و يمشي بجانبها.. يضع يديه وراء ظهره.. يحدثها حديثا حلوا عذبا.. أذاب معه أي خجل شعرت به.. و أعطاها دفئا يعوضها برودة تسري في أوصالها..

- لم أنا بالذات..؟!
- لا أدري آنستي..
- تمنحني أكثر مما أستحق..
- هذا هو إحساسي بك.. و لا أدري إن كنت أبالغ..
- أعتقد أنك تبالغ.. مجرد إنسانة عادية..
- كلما رأيتك منحتني روائع الأحاسيس .. فأنا مدين لك..
- مدين لي أنا؟!!
- بالطبع سيدتي.. فمنذ أن التقيتك و أنا أخرج أروع الألحان..
- ما كان لقائي بك إلا مرتين..
- لقد خلق لقائي بك أول مرة عدة لقاءات أخرى في خيالي.. جعلتني أبدع أفضل ألحان..
- لا أدري ما أقوله لك..
-لا تقولي شيئا.. و لكن عديني بشيء..
- أعدك بشيء؟! .. بم يمكنني أن أعدك..؟!
- أن تحضري كل حفلاتي.. و تمنحيني بعض الدقائق من وقتك لأحيا عليها.. و أعزف ألحاني..
-غير معقول هذا الذي تقوله..
- لا أعرف معقولا..
- يبدو لي ذلك..

وصلا إلى بيتها .. ثانية قبل يدها كـ ليدي من زمن تمنا أن يجمعهما و لكن سوء الحظ أحال دون ذلك.. تركها عاصم و عاد من الطريق نفسه.. و ظلت منى ترمقه بعينيها الندية.. إلى أن غاب عنها.. رفعت عينيها إلى أعلى.. فوجدت زوجها ينظر إليها من خلف زجاج النافذة فارتعشت أوصالها.. و ذهبت إليه في خطى مضطربة.. تحاول أن تتماسك في نفسها في مواجهة عاصفته و تعنيفه لها..

دخلت إلي غرفتها تتصنع البرود.. و تتعمد أن تتجاهله.. تقف أمام مرآتها.. تخلع في هدوء قطع الحلي التي ترتديها.. مسكها من كتفيها و أدارها ناحيته.. و قال لها في غيظ مكتوم: يمكنني أن أغفر لك كل شيء إلا أن تسيئ إلى سمعتي.. و أنت تعلمين أنها أغلى ما أملك.. أزاحها عنه بقوة انهارت لها.. و ألقت بنفسها على السرير تجهش بكاء.. و ظل هو طيلة الليل يعاني أزمة نفسية في مكتبه..

ظلا هكذا فترة من الزمن.. لا يلتقيا فيها نهائيا إلا بالكاد.. و كأنهما يعيشان في بيتين منفصلين.. و لا يجمعهما بيتا واحدا.. و جاء موعد الحفل الموسيقي الشهري لعاصم و لكنها لم تستطع أن تذهب إليه.. و اكتفت بالاستماع إلى موسيقاه من الراديو.. و في ختام كل حفل تستمع إليه من الراديو.. تشعر في نفسها بأنه يبحث عنها بين الجمهور فلا يجدها.. تشعر باضطراب ما في موسيقاه في كل مرة تنصت إليها.. نعم مازال بارعا في مقطوعاته.. يشهد له تصفيق الحضور.. و لكن حاجة تخبرها بافتقاده لشيء ما كان يميزه.. يأخذها إلى العلياء.. و في موعد لقائها الشهري به عبر الراديو.. يقدم البرنامج موسيقيا غيره ليعزف مقطوعته.. و يخبر الجمهور بأن عاصم يعتذر عن تقديمها نظرا لسوء حالته النفسية و التي لا يعرف سرها..

لم تحتمل فريدة الخبر.. و قررت أن تذهب إليه في الحفل القادم.. و ذهبت إليه و لم تجده.. وجدت شخصا آخر يعزف مقطوعته.. أخذت تتلفت هنا و هناك ربما يكون متواريا بين الجمهور.. ربما لو رأها لجاء إليها يقبل يدها كقبلته الأخيرة..

و بعد أن انتهى الحفل الموسيقي.. ذهبت إلى هذا الموسيقار الذي حل محله لتسأله عنه.. فأخبرها بأنه قد سافر إلى مكان بعيد.. لم يخبر أحدا عنه.. و أنه

ترك معه رسالة لامرأة اسمها منى إذا ما سألت عنه يوما.. و عندما عرف أنها منى أعطاها رسالته لتقرأها..

أخذت منى الرسالة.. و مشت بها في الطريق نفسه الذي مشت فيه معه في آخر لقاء لهما.. تقرأ في الرسالة بكيانها:

حبيبتي منى.. إن كل مقطوعة سمعتها في الراديو.. كانت لك.. من إلهامي بك.. و أي اضطراب كان فيها.. فهو آت من غيابك الذي طال.. و أفقدني معه بعض ما تذوقته على يديك.. لم أقدر على غيابك.. أصابني بوخزة في صدري.. فقررت الرحيل.. ربما أنساك.. فلم أعد أطيق حياة لا تمنحيني فيها بعضا من وجودك.. ولقد أخبرتك سابقا: ما الذي يعنيه وجودك بجواري.. ربما نسيتني.. ربما أخذتك الأيام.. ربما أنك تخافين جنوني.. و ربما أشياء أخرى لم أفطن إليها..

كل ما أحسه الآن أني أحتاج إلى أن أرحل بعيدا.. و أن ما تحتاجينه أنت أن تفتحي على نفسك بابا أغلقته.. و تنطلقي في رحاب الدنيا.. لا تخافي شيئا.. و لا تهابي المجهول.. لن نعيش إلا مرة واحدة.. فهذه حياتك.. أعلني التحدى.. و انعمي بحريتك.. فما أجمل حريتنا! و ما أقبح أن نتمسك بعجز النفس دون منطق مقبول! اخلقي لنفسك هذا المنطق.. و اصنعي حياة أهل لك.. فربما أعود و نلتقي ثانية في ذاك الحيز الذي التقينا فيه.. و ربطت بيننا رابطة ما..

من هذا الرجل المجنون؟! كيف دخل حياتي؟! و كيف خرج منها؟! و أي جنون ألقي بي فيه؟!

قالت هذا و دموع حائرة تجري على خديها إلى أن وصلت بيتها و دخلت إلى غرفته.. غرفة مكتبه.. هذه الغرفة التي تشبهه كثيرا في تسلطه و قهره لها.. فتحت باب الغرفة بقوة لم تعهدها.. و جدته بنظراتها و هو جالس على مكتبه في غضب لخروجها دون إذنه إلى هذا الموسيقار.. و أخبرته في حدة:

لا عليك.. لا تغضب كل هذا الغضب.. فقد اكتفيت منك.. و سأخرج من هذا السجن اللعين الذي طوقتني به وقتا من عمري.. أي لعنة هذه التي تسكنك و تسكن جداران هذا البيت؟! أحمد الله أنه خلصني منها.. و أني الآن قادرة على أن أكون حرة.. و أنفض عن روحي عجزي أمامك.. فما عدت تؤثرني..

وما عادت بي رغبة أن أنتمي إليك.. إلى هذا الرجل الذي كبلني بقيود الخضوع والقهر والمذلة.. لمجرد أني رأيت فيه يوما فارس أحلامي الذي سيحقق لي كل ما أريده.. فإذا بك ترى في هذا طمعا فيك.. وتقرر أن تعاقبني.. وتسلبني حياتي.. حتى لا أنعم بها كما تصورت النعيم معك.. فوداعا أيها المخادع الماكر.. سأترك لك هذا الجحيم الذي خلته يوما نعيما... لأنعم بحريتي.. وأفعل كل ما حرمتني منه.. ولتبحث لنفسك عن امرأة تعرف كيف تحفظ لك سمعتك..

انتهت منى من حديثها الصارخ في وجهه بحثا عن نفسها التي امتلكها.. و أغلقت باب الغرفة بقوة كما فتحتها.. وضع يده على رأسه.. وحملت هي حالها وخرجت من سجنها إلى حريتها.. لا تدري الطريق.. ولكنها أحبت هذا المجهول الذي ينتظرها.. يكفيها أنه حررها من مخاوفها.. وها هي قادرة أن تعيش حياتها كما تريد..

.....

تهمس منى لضحى: لماذا دائما ما يكون عمر الأشياء الجميلة في حياتنا قصير؟! لماذا نكتشف الأشياء الجميلة بعد فوات الأوان؟!

ضحى: إنها لعبة الأقداريا منى .. ألم تفطني إليها بعد؟!

منى: لماذا لا تأتي الأقدار بما نشتهيه؟!

ضحى: هكذا اقتضت إرادة الله .. وعلينا أن نمتثل لها..

منى: من أين لك بكل هذا الرضا؟!

ضحى: وقوفي أمام أقداري حائرة متسائلة: لماذا تفعلين معي هكذا؟! جعلني لا أملك إلا التسليم و الرجوع إلى نفسي راضية.. فمن الرضا أطمئن و تسكن نفسي.. وهو ما أحتاج إليه أكثر شيء في حياتي: أن أحيا مطمئنة..

منى: وماذا أفعل في هذه النفس التي أحملها لكي تطمئن؟! دائما ما أشعر في داخلي أن هناك شيء ينقصني ولا أدري ما هو.. وكلما حاولت أن أهتدي إلى هذا الشيء الحائر و يهيئ لي أني وجدته.. و بعد أن أطمئن قليلا.. أكتشف أنه ليس هو.. وأعود خائبة ثانية.. وتبدأ نفسي في التمرد مرة أخرى.. لقد سأمت مثل هذه الحياة.. فلماذا هي لم تسأمني؟!

ضحى: هناك شيء مفقود..

منى: ما هو هذا الشيء المفقود؟!

ضحى: عندما ألمسه سأخبرك..

منى: رجاء لا تنسي..

مازالت عينا منى معلقة بهذا الرجل الجالس تجاههما.. يشرب فنجان قهوته.. ويدخن سيجارته.. ويرحل بين الحين والآخر في تفكير عميق.. ثم ينظر إليهما ويخص نظراته بـ منى..

ضحى: منى..

منى: نعم..

ضحى: أتعرفين ذاك الرجل؟! تشير إليه بعينيها..

تنظر منى إليه وتخبرها: لا أبدا .. لا أعرفه..

يلاحظ وجدي حديثهما عنه.. يقف من مقعده.. ويتجه إليهما.. تسبقه رائحة عطره.. فتخلب معها وجدان ضحى.. وترتبك في نفسها.. تتعلق عيناها به أكثر..

وجدي: مساء الخير..

منى: مساء النور..

ضحى: مبحلقة فيه..

ينظر إليها ويبتسم في تحية صامتة..

وجدي: وجدي .. مخرج سينمائي ..

منى: تبتسم ابتسامة عريضة .. معقول..

وجدي: نعم سيدتي..

منى: جميل..

وجدي: أشكرك..

منى: اتفضل اجلس معنا قليلا..

وجدي: اسمحا لي .. يجلس بجوارهما..

ضحى: مازالت مبحلقة فيه.. تكاد لا تصدق.. وكلما نظرت إليه.. تملكها الرعب من وجود مثل هذا الرجل بجوارها..

وجدي: يلاحظ شرودوها .. يلتفت إليها .. يسألها: سيدتي .. هل أزعجتك في

شيء؟!

ضحى: تنتبه إليه .. و تحدثه بصوت مخنوق .. مرتبك: لا أبدا..

منى: تضحك عليها .. و تحاول أن تداري ضحكتها..

وجدي: ينظر إليها و هو يضحك..

ضحى: تحاول أن تضحك و لكن حزن عميق يأخذها.. و كأنها شعرت بمصيرها المؤلم معه.. بهذا العذاب الذي ينتظرها في حبه..

وجدي: لن أطيل عليك سيدتي.. فالجو يزداد برودة.. و أخشى أن يقسو علينا..

منى: دائما ما أرى في هذا الجو غموضا ما .. و حدثا مهما أنتظروقوعه .. أهم أحداث حياتي قد وقعت في جو هكذا..

وجدي: بصراحة سيدتي .. و بحكم خبرتي .. رأيت فيك طلة تؤهلك لأن تكوني ممثلة مميزة..

منى: ممثلة!! هذا ما لم أتوقعه أبدا .. أنت تفاجئني..

وجدي: هذه رؤيتي .. و أنا أثق في ذلك .. فيك شيء يشبه زمان..

منى: لم أمثل من قبل..

وجدي: من قال هذا؟!

منى: أتعرف أكثر مني!

وجدي: نعم أعرف..

منى: و كيف ذلك؟!

وجدي: سيدتي!! ما الحياة بالنسبة لك؟!

منى: إلام ترمي؟!

وجدي: ما الحياة إلا رواية متعددة الأدوار.. و بالتأكيد كان لك أكثر من دور فيها .. و سيظل .. ألم تجربي مشاعر الألم و الفرح؟! ألم تغضبي يوما و ترضي؟! كلها أدوارنا في الحياة .. قليل من السعادة و كثير من الشجن .. شيء من السكينة و شيء من التمرد.. تتشكل مواقف حياتنا .. أتدرين المشكلة أين؟!

منى: أين؟!

وجدي: في مواجهة الكاميرا..

منى: ربما أخجل..

وجدي: ستخجلين ولكنك ستتحررين من خجلك في وقت ما..

منى: لا أدرى..

وجدي: سأنتظرردك إذا قبلت الأمر.. أتمنى أن تزوريني في استديو الحياة..

يلتفت إلى ضحى ويسألها: ما رأيك؟!

ضحى: نعم .. منى تشبه في ملامحها كثيرا من ممثلات زمان .. أنت على حق..

وجدي: ولكني ما قصدت ذلك؟!

ضحى: صامتة تسأله بتعبيرات وجهها: إذن ما الذي تقصده؟!

وجدي: إني أعرض عليك الأمر نفسه .. فهل توافقين؟!

ضحى: نعم أوافق..

منى: ماذا تقولين؟!

ضحى: تحدث نفسها: وهل أملك أمامك إلا أن أوافق؟! .. إنه الحل الوحيد الذي سيضمن لي وجودي بجوارك..

وجدي: إذن أنتظركما في مسرحي قريبا .. إلى لقاء..

منى: أجننت أنت؟!

ضحى: ربما...

opeikandl.com

عودة الروح...

دخلت إلى معرضه.. تمشي في خطي مضطربة.. وقفت في الصالة الواسعة أمام صورة لفتاة في سن الصبا.. إنها تشبهها كثيرا.. الملامح نفسها.. عينان سودوان واسعتان.. و شفاه عريضة.. و شعر أسود مجعد.. إنها صورتها و لا شك.. إذن مازال يتذكرها.. مازالت ملامحها محفورة في ذكراه.. ترى.. لماذا رسمها؟! أكان يخشى أن ينسى ملامحها أم أنه يتعذب في هجرها؟! .. لقد تخلى عنها.. واكتفى منها بهذه الصورة الصماء.. واكتفت منه بتلك الساعة الخشبية التي شهدت مشهد رحيله.. و توقف الزمن عندها..

...

تعلّقت بها كل حواسي.. و شخصت عيناي مشدوهة إلى عقاربها.. و عقلي لا يردد سوى جملة واحدة: لعله يعود..

مازلت أذكر ذلك المشهد المؤلم.. مشهد رحيله و تخليه عنا.. مازلت أذكر توسلات أمي الصامتة له بألا يخرج من البيت.. و أن في خروجه جنونها.. دار حوار بينهما.. ما بين رجاءات صامتة.. تلقيها إليه بعينيها.. تخبره بألا يرحل.. و صد لهذه الرجاءات.. و إصرار على الرحيل..

لم أفهم شيئا.. و لم أكن أريد أن أفهم.. تملكني خوف شديد.. و ارتسمت أمام عيني خيالات مخيفة.. واشتد السواد بنفسي حتى ضاق صدري.. تسمرت مكاني و هو يفتح باب الشقة.. و يغلقه بعنف شديد لم أعهده منه.. و ظللت أنظر إلى الساعة منتظرة لحظة رجوعه لأرتمي في حضنه.. و أبكي.. و أستحلفه ألا يتركني ثانية.. ولكنه ما عاد.. وكلما نظرت إلى الساعة رددت في نفسي: لعله يعود..

ومن وقتها تحولت حياتنا إلى جحيم.. جحيم الانتظار.. واليأس من رجوعه.. وبدأت حالة أمي تسوء.. وجرح كرامتها يأكل في جسدها.. نحل جسدها بشكل لا يصدق.. وتهامس الأهل والجيران عليها.. لم تحتمل الموقف فحملت حالها وذهبت.. إلى أين..؟! لا أدري..

كل ما أدريه هو حالة الذهول التي لازمتني.. وشيء يردد بداخلي: لقد رحلا وتركاني.. وانتقلت حالة الاعياء التي صاحبت أمي إلي.. وضعف جسدي.. وهزل بشكل مؤلم.. ولم أجد من يعتني بي سوى جدتي المسكينة التي لم تكن تفعل شيئا غير البكاء على هذا البيت المهجور.. ظلت تبكيني.. وتبكي الحال.. وتبكي ضياع ابنتها إلى أن فقدت بصرها وأمست ضريرة.. تكاد أن ترى..

وكان على أن أعتني بها كما اعتنت بي.. فقاومت ضعفي.. وتحسنت حالي.. وفرغت عاطفتي في الحفاظ على هذه الجدة المكلومة.. وقد أفادني الاعتناء بها إفادة بالغة إذ أخرجني من محنتي.. وأعطاني هدفا أحيا من أجله..

ولكني قسوت على نفسي.. وألزمتها حياة جافة قاسية.. خالية من أي عاطفة.. أقسمت ألا أضعف أو أنهار.. وأني سأحيا لنفسي فقط.. ونجحت في دراستي بتفوق حتى تخرجت من كلية الآداب قسم علم النفس.. وأحببت أن أكمل دراستي في القسم نفسه.. ووضعت اهتمامي في رسالة الماجستير التي أعدها وكانت بعنوان «الرؤية العاجزة ومدى تأثيرها على حالة المرأة».. ووعدني أساتذتي أني عندما أحصل على درجة الماجستير سأعين معيدة في الكلية..

واشتغلت أخصائية نفسية في مدرسة خاصة وهي مدرسة الحكمة.. مدرسة ثانوية للبنات.. ونجحت في عملي نجاحا ملفتا للنظر.. ولكني مازلت أذكر ذاك المشهد المؤلم.. لم أستطع أن أتخلص منه نهائيا.. كنت أفلح في استبعاده بعض الوقت.. ولكنه كان يعاودني ثانية بكل قوة ليعذبني معه..

كنت أعود إلى هذا المشهد خاصة في حفل الختام الذي كانت تقدمه المدرسة تكريما لمن تتخرج.. كنت أرى الفتاة تلهو فرحة بنفسها بين والديها.. فيعتصرني الألم.. وأكتم الغيظ في نفسي إلى أن أعود إلى البيت.. وأنظر إلى الساعة التي توقفت عند وقت رحيله.. أشعر بالرغبة في تحطمها ولكن شيء

ما يمنعني و يبعدني عنها.. أتراجع إلى الوراء ثم أدخل إلى غرفتي.. و أنظر من الشباك إلى فضاء السماء المعتمة.. لا يؤنسني سوى صوت الكروان.. و كأنه يدعوني إلى شيء ما أجهله..

و ظللت هكذا فترة من الوقت إلى أن شاء الله و هداني.. و استطعت أن أسامح و أغفر.. و عندما تجاوزت رق قلبي و عاد إلى مكانه.. عاد إلى طبيعته.. و النبض ما عاد يدق في قلبي إلا من أجلهما.. و هاجس يهمس لي: عليك أن تبحثي عنهما.. و كأن الأقدار شاءت أن تداوي جرحها..

قرأت في مجلة آداب و فنون الملحقة بجريدة آفاق سلسلة المقالات التي كان يكتبها أستاذ منير مراد عن قراءة اللوحات الفنية.. و وجدته.. وجدت صورة أبي بجانب صورة اللوحة الفنية و المقالة المكتوبة.. وجدت لوحة فنية لصبية بائسة.. و كانت المقالة مجرد حكاية هذه الصبية التي هجرها والدها.. و لمحت العجز الذي تجلى على تقاسيم وجهها وقت الرحيل.. و شعرت من الحكاية التي حكاها أنه لاحظ صدمتي وقتها.. أو أنه الذنب.. مزقه لدرجة أنه تخيل مأساتي.. و عبر عنها.. و ربما هي رابطة الدم التي تجري فيه.. جعلته يستشعر حالي.. و يعبر عنه بريشته.. إنه فنان و مشاعره مرهفة.. يمكنه أن يراني في خياله.. و يتحسس حالتي بأناملة..

ياااه .. هذه الصورة تؤلمني كثيرا.. ربما لو أني رأيتها سابقا لكنت مزقتها قطعا.. و ثورت عليها..

عندما رسمها!! لماذا لم يرق حاله لابنته الحقيقية؟! و اكتفى منها بأطياف.. ما فكر يوما أن يسأل عنها.. و لكن ما جدوى الندم حتى و لو كان لديه مبرراته.. إما أن نتجاوز الأزمة.. و نلتقي هكذا دون عتاب قد يوقظ الجرح.. و إما أن أحمل حالي.. و أرحل في صمت.. فلا داعي لكلام لن يزيدنا إلا ألما..

و لكن.. كيف آتي إلى هنا و لا أكلمه؟! لكم اشتقت إليه.. و إلى ذاك الحضن الذي كنت أرتمي فيه.. و تلك المسحة على شعري.. و هاتين اليدين الكبيرتين اللاتي كانتا تحتضنان رأسي بينهما و تقبلان جبيني..

...

و في أثناء استغراقها في التفكير.. شعرت بأنفاسه تلامس جانب وجهها..

و استشعرت وجوده بجانبها.. ارتبكت و تملكتها رجفة سرت في أعصابها.. و أحست في أعماق نفسها أن لحظة المواجهة قد حانت.. ولكنها مازالت مترددة: أتخبره بأمرها أم تؤجل الخبر لوقت آخر؟!.. وهل تستطيع أن تأتي إلى هنا أكثر من مرة و تتعامل معه على أنها إنسانة عادية لا تنتمي إليه؟! إنها تشتاق إليه أكثر مما يتصور.. اشتياق كفيل بأن يمحو أي ضغينة كانت تحملها له.. وياترى سيعرفها هو و ستدله عاطفة الأبوة عليها أم أن السنين توهت الملامح عنه و لن يفطن إليها؟!.. لكم أتوق أن أخبره.. إني لأشتاق إليه اشتياقا يمحو معه أي ضغينة ممكن أن أحملها له.. سأدع الأمر للأحداث ولنرى إلى أين ستأخذنا..

قال لها ورائحة الدخان و القهوة تنبعث من فمه:

أأعجبتك الصورة؟!

لم تقو على أن تلتفت إليه.. و ظلت واقفة أمام الصورة.. تتأملها بقلب مضطرب.. ترغب بشدة في أن تنظر إليه.. فقد اشتاقت لملامحه.. ولكنها اكتفت منه بهذه الرائحة.. هذه الرائحة أعادت إليها الحنين.. فكم من مرة لفحتها في خدها.. و ظلت تستشعر آثارها على خديها بعد رحيله..

قاطع صمتها بقوله:

ما الذي يثيرك إلى هذه الصورة بالذات؟!

أرادت أن تتكلم و لكن الكلمات تختنق في حلقها.. تخشى أن تتكلم فلا يعرفها.. ربما تغير صوتها لكن النبرة مازالت هى.. و إن كانت قد قويت قليلا.. و الصوت المجروح هو و إن كان قد شفي قليلا.. و الأسلوب كما هو.. عاد إليه ذاك الشيء الذي كان يحدثه حديثه إليها.. و بعد كل هذا.. هل من المعقول ألا يعرفها؟!..

أثاره انتباهها إلى هذه اللوحة بهذا الشكل.. تعلقت بها بشكل ملفت.. بدى له أنها في حوار معها.. أمعقول أن تكون هي ابنته دعاء؟!.. الملامح في الصورة تشبهها كثيرا.. ولكن.. الصورة أثارت إعجاب الكثيرات ممن رأين فيها أنفسهن.. قد تكون هي الأخرى ترى نفسها في ملامح الصبية البائسة.. ولكن الشبه الذي بينهما عجيب.. و قريب.. وينبئ عن شيء..

غير معقول أن تكون هى.. إنها تخشى أن تواجهني لذلك تستدير عني بوجهها..

أتخشى أن أعرفها أم تخشى ألا أعرفها و أخيب آمالها؟!.. آه لو تعرفين كم هو اشتياقي إليك.. ما استدرت عني هكذا.. بل رحت ترتمين بين أحضاني..

يا ترى: ما الذي آتي بك إلى هنا.. أهو العفو أم النقم؟! أجئت تعفين أم تنقمين؟! ماذا عساي أن أفعل إن لم تفصحي عن نفسك..وتتجاوزي عن هذا الذنب الذي اقترفته في حقك؟!.. كأنك أتيت هنا لتعذبيني برؤياك.. و أنت لا تدرين كم أحتاج إلى أن أراك.. و ألقي برأسي على صدرك كما كنت أفعل مع أمك لتمسح على شعري مسحة أشعر معها بشديد الارتياح.. فبالله عليك أخبريني: أأنت هي؟! دعيني أتعرف إليك.. و ألقي بنفسي بين ذراعيك.. وبعدها.. فلترحلي إن شئت الرحيل.. ولكن امنحيني هذا الرجاء قبل أن تمضي.. يا خوفي أن تكوني أتيت إلى هنا لمجرد رؤية الصورة..

قالت و نبرة الذكريات تحتبس صوتها:

أرغب في شراء هذه الصورة..

ولم ترغبين في هذا آنستي؟!

سكتت و لم تستطع الكلام.. أتخبره أنها صورتها؟! و هي الأولى بها.. صاحبة الصورة؟! أتخبره أنها هذه الفتاة البائسة المهجورة.. أم تخبره أنها تكره أن تكون محل حديث الآخرين؟! حاولت أن تتكلم فلم يسمع منها غير حشرجة صوتها يحاول أن يقول شيئا.. فقال لها:

عفوا آنستي.. هذه الصورة ليست للبيع.. إنها تخص إنسانة عزيزة على نفسي.. و صورتها عزائي الوحيد في هجرها..

و ما الذي دعا للهجر؟!

معذرة .. و ما الذي يدعوك للاهتمام..؟!

و دون أن تدري انهمرت دموعها.. وبكت بصوت مسموع.. فذهل عندما رأى هذا المشهد المهيب.. إنها تبكي أمام الصورة.. و قال لها:

يا لك من امرأة حساسة.. أتبكين من أجل صورة؟!

و استدارت إليه و هي تمسح دموعها بيديها.. ليراها.. هي ابنته دعاء..عرفها من ذاك التشابه بينها و بين الصورة.. و دون أن تدري.. وجد نفسه يلقي برأسه على كتفها.. و يركع أمام جسدها.. ممسكا بيديها.. راجيا أن تسامحه على كل

هذه الآلام التي سببها لها:

أرجوك سامحيني يا ابنتي.. لقد كنت أنانيا عندما هجرتك.. عندما تسببت لك في كل هذه الآلام.. أي أب أنا؟! لكي أفعل بابنتي هذا الذي فعلته.. أنت لا تدرين كم عانيت.. وقاسيت.. وكم عذبني ضميري في نوبات تفكيري بك..

أمسكت بيديه وقالت له:

لا تركع أمامي.. رجاء.. فمازلت أبي.. ومازلت أكن لك كل احترام.. وهل ينفع أن يركع أب أمام ابنته؟!

ولكني كسرتك.. ولا أعرف كيف أجبر الكسر بداخلك..

هذه اللحظة كفيلة بأن تمحو آلام السنين..

فانكفأ على يديها يجهش بكاء.. وهي تمسح على شعره الرمادي..

نظر إليها وعيناه تملؤها الدموع.. فأخذت بيده لترفعه من على الأرض.. و قالت له:

لوكنت قابلتك قبل ذلك لكنت ناقمة ساخطة عليك.. ولكني تغيرت كثيرا.. و أصبحت امرأة مختلفة.. لديها القدرة على التسامح.. وكأن الله أجل لقائنا بعد أن هداني حتى لا أقابل ندمك بالجحود و الانكار..

وكيف اهتديت إلي؟!

هي حكاية طويلة.. سأقصها عليك.. فمازل لدينا متسع من الوقت..

نعم معك حق.. ولكم أتوق إلى أن أسمع منك.. و أعرف عن حالك..

و أنا أيضا أحتاج كثيرا إلى أن أعرف إلى أين وصل أبي الفنان بلوحاته العبقرية..

اصطحبها إلى غرفة الصالون الفني الذي يدير فيه أمسياته الثقافية و يستقبل ضيوفه.. غرفة رائعة في مضمونها.. كلاسيكية في تصميمها و أثاثها.. خلابة في رائحة عطورها.. بها بعض اللوحات التي تجسد فترات حياته.. لوحات رفض أن يبيعها لأنها جزء من تاريخه.. وهو يؤمن بأن الإنسان الذي بلا ماض و ذكريات أشبه بالذاكرة الممسوحة التي فقدت عدتها في الحياة..

طالت فترة صمتهما.. غلبهما حديث النفس.. فلم يكن بالأمر الهين عليهما أن يلتقيا هكذا في غمضة عين بعد طول غياب.. بعد هجر لم يكن يتوقع منه

أي وصال.. بعد جفاء سنين.. و أيام كاد أن يهجرها الحنين.. لولا صحوة من العدم أيقظت الضمير.. ليعود كل إلى مكانه.. و يلتقي الطرفان الشريدان.. و يكملان بعضهما.. و إن كان ينقصهما أليفهما الثالث.. تلك الأم المكلومة التي هجرت بيتها.. و تخلت عن ابنتها الوحيدة لشعورها بأنها طعنت في كرامتها..

مازالت تذكر ذاك الشحوب الذي ألقي بظلاله على ملامح وجهها.. و ذاك البهتان الذي لازم تفاصيل تعابيرها.. و ذاك الشخوص الذي احتل حدقتا عينيها.. و ذاك التوهان الذي ألم بجوارها.. و هل يمكن أن يحدث بها غير ذلك وهي تحبه مثل هذا الحب اللامعقول؟!.. الحب الذي عندما يضيع يتيه العقل معه.. و تضطرم النيران في النفس حتى تهيم على وجهها في الأرض..

إنها امرأة أحبت بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. أحبت بجوارح صادقة.. و مشاعر ملتهبة.. و لكنها بعد أن ضمنت هذا الحب بدأت تخمد مشاعرها.. و أصابت الرتابة حياتها..

فبعد أن كانت سيدة بمعنى الكلمة .. استحالت إلى مجرد مديرة للمنزل.. أكثر ما يشغلها الأعمال المنزلية.. نحت المشاعر جانبا.. وضعت كل اهتماماتها في هذه الطفلة حتى صارت صبية جميلة.. و ضعت كل راحتها في سبيل راحة الزوج.. و لكنها كانت راحة معيشية لا تتعدى الاحتياجات العادية.. أما احتياجات العاطفة فقد تراجعت كثيرا..

تذكر ذاك الحوار الأليم الذي دار بين سالم و رجاء.. كان حوارا ينبئ بقدوم عاصفة ستحطم معها كل شيء دون أن تبقي على شيء.. ستسحق العمر دون الالتفات للذكريات.. و ليس لها أي اعتبارات أخرى..

أتذكر عندما دخل سالم على رجاء في غرفة المعيشة.. وكانت تحيك بلوفر من الصوف الأبيض له.. كانت في حالة من الهدوء الغريب.. تشعر بضيق نفسي لا تدري له سببا.. وكان سالم في الفترة الأخيرة دائم الغياب عن البيت.. يجلس طويلا في معرضه المتواضع..

وعلى حين غفلة من رجاء.. قرر أن ينهي كل شيء.. دخل إليها في غير موعده.. فلاقته بشيء من الاستغراب قائلة:

ليس عهدي بك أن تأتي في هذا الوقت.. لعله خير..

ظل مترددا فترة.. حائرا يفكر.. تضطرب عيناه.. ولكنه قطع حيرته بقوله: رجاء.. أعطني حريتي..

فذهلت عما قاله.. ولم تفهم شيئا.. بدت كالمرأة البلهاء.. وكأن الصدمة أحدثت بها خللا عصبيا.. فارتعشت أطرافها حتى سقطت إبرة التريكو من يدها اليسرى..

ألقي إليها بقراره في أنانية مفرطة ليس فيها من رهافية الفنان شيئا سوى بحثه عن ملذاته الخاصة .. أخبرها بالآتي:

لقد التقينا في وقت كنا نحتاج فيه إلى بعض.. كنت أحتاج إلى هذه الأنثى الناعمة التي تمنحني الحب بكل أشكاله.. وهكذا كنت و نعم الحبيبة.. كل لقائتنا دلتني على أنك المرأة التي أبحث عنها.. وانتظرتها طويلا.. وعوضني الله بها بعد طول انتظار.. ولكنك تحولت إلى امرأة باردة لا تأبه للمشاعر.. ولا تلتفت إلى الأحاسيس.. كل ما يهمها: أين تضع الأثاث؟! وأي الأطباق ستضع لنا في العشاء؟! وتحولت الحبيبة إلى زوجة.. ولا أدري لم تتخلى الزوجة عن الحبيبة بينما لا تتخلى الحبيبة عن الزوجة..؟!

نعم حافظت على أن تلمنا مائدة واحدة.. ولكنا كنا نجلس فيها صامتين.. نعم كنا نجلس سويا لنحتسي فنجان القهوة.. ولكنه كان فاقدا لكثير من الدفء.. كل حالنا قد آل إلى فراغ..

مازالت رجاء ملتزمة الصمت.. ذاهلة عن الأمر.. لا تكاد تصدق ما يقوله.. و أكثر ما أثر فيها وأخذها بعيدا عنه لهجته الحادة معها والتي لم تعتدها منه.. ربما تهامست في نفسها: أهكذا ينبغي أن يكون الأمر؟!

أخيرا قامت من مجلسها.. وفي حركة عصبية ألقت ما في يديها إبرة التريكو وبكرة الصوف الأبيض.. أخذت تروح وتجئ في الغرفة.. وتضع يدها تارة على عينيها وتارة على شفتيها.. نظرت إليه بحدة غير معهودة.. وشرر من الغضب تطاير من عينيها.. اتجهت إلى البرواز الذي يحمل صورتهما.. أمسكته بكلتا يديها.. ورفعته إلى مستوى عينيها.. ظلت تحدق فيه فترة.. ثم رفعته إلى أعلى.. وهوت به على الأرض.. فأحدث ارتطامه صوتا عاليا.. وتناثرت حباته في أرجاء الغرفة.. و أخذت ثانية تحدق فيه بحدة حتى كادت أن تخرج مقلتيها عن

مكانهما..

لم تستطع أن تتكلم كلمة واحدة.. كانت الصدمة أقوى من أي كلام يمكن أن يقال.. صدمة عقدت على حاجبيها.. وربطت على لسانها.. إن ما فاجأها به من قول أحدث اضطرابا غريبا في حركة شفتيها.. و ارتعاشة قوية في أطرافها.. ارتبكت بشكل مثير للشفقة.. ورغم ذلك لم يثره ارتباكها.. نظر إليها في حدة.. ثم خرج و أغلق الباب خلفه بقوة أحدثت صوتا مفزعا في نفسي..

زاد اضطرابها.. و أخذت تتحرك في الحجرة بخطوات فوضوية.. ما عادت ملامحها تستقر في وجهها.. كل ما فيها آل إلى ما يشبه الجنون.. و أخيرا وقفت أمام المرآة الطويلة التي تعكس وجهها و جسدها.. ظلت تحدق فيها.. و تنثر شعرها.. و كأنها تريد أن تتخلص من كل ما يدعو فيها إلى الأنوثة.. أخذت تخدش خديها بأظافرها حتى جرحا.. و هكذا كان حالها منذ أن رحل عنها سالم.. تطوف البيت بحثا عنه ثم تستقر أمام المرآة.. تجهش ببكاء مخيف.. يحفر في صدري بمزيد من الفزع..

و أنا.. أنا تلك الفتاة البائسة الجازعة لحال أمها.. ولا تملك من الأمر شيئا.. تخشى الاقتراب منها.. فلم تعد ترى فيها أمها.. تحولت إلى امرأة غريبة عنها.. تخاف أن تقترب منها.. لا تملك حيالها غير أن تراقبها من بعيد.. و بعد بضع أسابيع من رحيل الوالد اختفت الأم في ليلة خريفية هوجاء..

و استيقظت فلم أجدها في فراشها.. ولا في تلك الحجرة تحدق في المرآة.. فأصابتني صدمة عصبية ركدت على إثرها في الفراش.. و اضطرت جدتي أن تنتقل من بيتها لتقيم معي إلى أن تماثلت للشفاء.. ربما شفاء الجسد أما شفاء الروح فمازال يفتقدها..

قاطعني بصوته الهادئ المبحوح قائلا:

كيف حال أمك؟

فنظرت إليه.. وعلقت في عيني دمعتان.. و أجبته بصوت مخنوق:

يعلم الله أين هى..

فأبدى استغرابه.. حكيت له مقتطفات مما حدث لنا بعد رحيله.. فقال و الأسف يعتصر نبرة صوته:

كل هذا حدث بسببي.. أنا الأناني الذي لم يفكر إلا في رغباته و ملذاته..
قلت له في شيء من الحسرة:
لا داعي للندم .. لن يعود علينا بشيء..
قال لي: إن أبسط ما يمكنني أن أكفر به عن ذنبي هو أن أشعر بالندم.. فربما طهرني من كل تلك الآثام التي اقترفتها..
لا يهم الآن..
إذن .. ما الذي يهم..؟!
أن نجد رجاء و نعيدها إلينا.. أرجو أن تساعدني في ذلك..
فليكن..
ماذا تعني؟!
سأساعدك في استعادة رجاء..
قالت له و بعض من الأمل يدغدغ نبرتها:
كيف؟!
كما وجدتني..
لا أفهم.. ماذا تقصد؟!
سنجد رجاء كما وجدتني أنت..
نعم..
سأرسم صورة لها.. و أرفق معها بعض كتاباتي لها.. ربما قرأت و استدلت على..
و ربما لا تقرأ..
دعينا نحاول..
أخشى من خيبة الأمل..
و لكنك اهتديت إلي..
كانت مجرد صدفة..
إذن دعينا نترك الأمر للصدفة.. من يدري..؟!
نعم.. معك حق..
مثلما جمعتنا هذه الصدفة.. قد تجمعنا صدفة أخرى..
و رب صدفة خير من ألف ميعاد..

obeikandl.com

هي و مرآتها...

مازالت واقفة أمام المرآة.. تنظر إلى نفسها في حالة من الذهول.. الذهول نفسه.. لم يفارقها منذ أن أصابها.. بل ربما زاد قليلا..

إنها رحلت من المكان ثأرا لكرامتها.. رحلت و ما رحلت.. و كأنها أخذت المكان معها ليستقر في أعماقها.. مازالت تذكر ابنتها و هي تنظر إليها في ذعر.. مازالت تذكر توسلاتها بأن تعود إلى طبيعتها.. و لكنها لم تستجب .. لم تقدر أن تستجيب.. الغضب أعماها.. و أفقدها كبرياءها.. و كيف لامرأة فقدت كبرياءها أن تربي ابنتها.. ماذا ستقول لها؟! و أي شيء يمكنها أن تخبرها به.. و قد فقدت إيمانها بكل ما آمنت به يوما..

منذ أن خرجت من بيتها هائمة على وجهها كمجنونة أخرى ألقي بها القدر إلى الطريق.. و هي في حالة من الذهول.. نادرا ما تفيق منه.. و تعود إلى رشدها.. هي لحظات قلائل و ما تلبث أن تعود إلى حالة اللاتصديق التي ألمت بها و أقسمت ألا تفارقها..

مضت في الطريق لا تبصر شيئا غير تلألأ دموعها في عينيها.. و لا تدري لما حملتها رجلاها لتذهب إلى معرضه.. أرادت أن تراقبه عن بعد.. دون أن ينتبه إليها.. و يدرك أنها هنا بجواره.. فمازالت روحها معلقة به.. و هل تملك الحياة دونه؟! دون رجلها الوحيد الذي اعتنقت الحب من أجله.. و اتخذته عقيدة إيمانها به..

لم تتخل يوما عن حبها.. فلماذا تخلى هو عنها؟! سؤال ظل يطرح نفسه عليها.. و لا تجد له إجابة غير توهان عينيها هنا و هناك.. إنها لم تدرك و لن تدرك.. فما بالها تبحث عن أجوبة لن ترضيها أبدا.. و حتى إن وجدت شيئا..

فلو تملك.. ستمزقه قطعا قطعا.. و تنثره تحت قدميها..

إذن.. ماذا عليها أن تفعل؟! لا يمكنها أن ترجع إليه.. و لا تملك أن تحيا بدونه.. إنها تستمد حياتها من وجوده هنا بجواره.. من ابتسامته.. من ضحكاته.. من دموعه.. من دنياه التي يرسمها في لوحاته.. إنه مع كل معنى جديد.. يمنحها حياة جديدة.. تراقبها بصمت.. تخاف أن تحسدها.. فمن شدة حبها لها.. تخشى أن تفقدها..

لكم غارت عليه من لوحاته عندما كانت تأخذه منها.. فتلزم الصمت حتى لا تجرحه.. و هي تعلم تماما مدى تعلقه بها و بما وراءها.. و لكن .. من أجله .. كان لابد لها أن تصمت.. و أن ترضى عن لقاءاته النسائية التي يبدع فيها لوحاته.. إنه عبقري.. و عبقريته تحتاج إلى فهم عميق.. فهل فهمته؟!..

كلما حاولت أجدني أصمت و أصمت و أصمت.. إلى أن أخذ مني الصمت مراحل طويلة.. لا أملك أمامها إلا التسليم لمنطق قبلته رغم اعتراضي.. ولكن كان على أن ألتزم به..

رغم كل هذا الذي تحمله في قلبها.. و برغم كل هذا الصمت الذي أطبق على ما في قلبها.. إلا أن هناك منطقة كامنة فيها مازالت تنتمي إليه.. و تأبى أن تطرده منها.. فماذا عليها أن تفعل لتبقى بجواره وقد اختارت الرحيل.. إن شيئا بداخلها يرفض الرجوع.. و جزءا منها يرغب بشدة أن يبقا بجواره.. فأيهما عليها أن تختار؟!

لم تجد بدا في أن تحمل حالها و تذهب إلى مكان معرضه.. فربما استطاعت أن ترقبه من بعيد.. و بذلك تحافظ على هذه المسافة التي سوف تفصل بينهما و عليها أن تعتادها.. سترسم لها دنيا أخرى تجمعها به إلى أن تهدأ و تمضي في طريق يخلو من ذكرياتهما.. و لكن عليها أن تتخلص من استوطانه سريرتها.. ستلاحقه بحثا عن شيء يجعلها تكرهه.. ربما عندما تراه مع نسائه تمقته.. و تتخلص من سيطرته عليها.. و بعدها ترحل كيفما تشاء.. و لكن.. أي معنى لرحيلها و مازال يسكنها؟!..

وصلت إلى معرضه و أخذت تحوم حوله.. وجدت بالقرب منه محل لبيع الحيوانات الأليفة.. ظلت واقفة أمام المحل فترة من الوقت.. تتأمل ما به من

حيوانات حبيسة في قفصها.. لاحظت صاحبة المحل ذهولها.. و هذه الدموع التي تتلألأ في عينيها.. اقتربت منها و حاولت أن تحدثها.. و لكنها فزعت لما رأتها.. و أخذت تجهش ببكاء مسموع أرعب المرأة.. فرقت لها.. و اصطحبتها إلى داخل المحل.. أجلستها على كرسي و جلست بجوارها.. أمسكت بيدها و أخذت تدلكهما برفق إلى أن هدأت تماما..

سألتها السيدة عن حالها.. و ما الذي يزعجها إلى هذا الحد؟!.. و لكنها لم تستطع أن تجيبها.. هناك نفضة تتملكها كلما سألتها.. يأست السيدة من أن تكلمها.. ظنت أنها فاقدة للنطق.. رقت لحالها.. و أخذتها لتبيت معها في بيتها فوق محلها.. فالبيت يتكون من طابقين.. الطابق الأول به محل الحيوانات الأليفة.. و الطابق الثاني هو مكان المعيشة..

أمسكت بيدها و أدخلتها إلى إحدى غرف البيت.. و تركتها لتستريح من عناء الطريق.. إذ كان يبدو عليها أنها آتية من سفر طويل.. و ما هي إلا بضع شوارع عبرتها.. وكأنها قطعت مسافات طويلة.. تعبر من حياة إلى حياة.. أو من عالم إلى عالم.. حتى أرهقها الرحيل.. و أتعبتها الأمكنة.. و تركت هوة الأزمنة فراغ عميق في نفسها.. فبدى على وجهها أنها قادمة من عالم مهجور.. عالم لا تدري كيف عاشت فيه.. و كيف رحلت منه..

و في الغرفة وجدت أيضا مرآة.. في كل غرفة تسكنها لابد أن تجد بها مرآة.. أي علاقة هذه التي تربطها بالمرايا؟! .. و أي صدفة تجمعها بها؟! وقفت أمام المرآة ثانية.. و ثانية تجهش ببكاء مسموع.. لكن في هذه المرة بدأت أشياء تتجلى لها.. أشياء لم تكن تراها من قبل.. بدأ شريط من الذكريات يدور أمامها.. و أمور كثيرة مرت في حياتها ولم تنتبه لها.. تذكرت بعض المشاهد التي جمعتهما.. و مقتطفات فاصلة في حياتهما..

تذكرت أول لقاء كان لهما.. عندما زارته في معرضه.. تتأمل لوحاته الخالدة التي حدثتها عنها قريبتها.. عندما قالت لها: هناك شاب وسيم.. أشبه ما يكون بنجوم السينما.. يملك هواية غير عادية في رسم جسد المرأة.. و جعل الروح تهيم على ملامحها.. فتنطق اللوحة من جمالها.. و عندما تنظرين إليها لا تجدين امرأة مرسومة.. بل تجدين آية من الآيات.. لامرأة تحتاج إلى أن تخرج

من صمتها.. لتخبر العالم كله بأنها أجمل ما تكون.. بأنها خلقت من اللامعقول..

أثارها كثيرا ما قالته قريبتها عن هذا الرسام.. و قررت أن تذهب إليه ليرسمها.. دارت الأمر عن قريبتها.. وعن كل من هن حولها.. شعرت بداخلها أنها تحتاج إلى أن تخبي أمره في صدرها.. وذهبت إليه.. و التقت به.. وتحدثت إليه.. و أيقنت أن قريبتها قد ظلمته.. و لم توفه حقه.. فهو أكثر مما قالت بمراحل.. إن مجرد الكلام عنه يظلمه حقه.. إنه يحتاج إلى أكثر من الكلمات و العبارات و الجمل الوصفية.. إنه يحتاج إلى فهم عميق و إدراك يفوق أي تصور.. لماذا تشعر في قرارة نفسها بأنها وحدها من تملك هذا الفهم و ذاك الإدراك..

يا الله! بمجرد أن رآها.. تعجب لهذا الجسد الفاتن.. إنها بالنسبة له أشبه بـ فينوس.. اقترب منها أكثر.. و قال لها: اسمحي لي أن أقبل يدك.. فلم تتمالك نفسها.. و تركت يدها له ليضع عليها قبلة الحياة.. قال لها: أكاد لا أصدق عقلي.. أكاد لا أصدق أن امرأة مثلك موجودة هنا في معرضي.. ليتني أملك أن أقبل الصدفة التي أتت بك إلى هنا.. أو أقبل القدر الذي منحني إياك..

لا تدري بما تجيبه.. و ماذا يمكنها أن تقول له.. لقد أدخلها في حالة من الذهول ألجمتها عن النطق.. و كل ما يدور بفكرها أنها تريد أن تخبره بأنها هي التي ترغب في أن تقبل هذا المرسم الذي أتاح لها الفرصة لأن تلتقي به.. حاولت أن تخبره.. فاختنقت الكلمات ببحة في صوتها.. فقال هو لها: لا عليك يا سيدتي.. أعرف تماما ما الذي عليك أن تقوليه .. و ما الذي ترغبين في الافصاح عنه؟! أعتقد أنك مثلي تماما تشكرين الظروف التي ساقتنا إلي بعضنا.. نظرت إليه في انبهار.. و ابتسمت له.. هزت رأسها توافق على كلامه.. و منذ وقتها لم تملك أمامه إلا الصمت.. من أجل أن تنصت له..

و تذكرت عندما نحتها تمثالا جميلا.. و وعدها بألا ينحت غيرها من نساء العالم أجمعين.. و وضع تمثالها في ركن ما من أركان المرسم.. و اعتبره ربة إلهامه.. و ملكة تفرده.. و عاشا مع بعضهما قصة من أصدق القصص.. و كأنهما تائهان اهتديا أخيرا إلى بعضهما..

و ظلا سويا يعانقان الحب الطروب.. رغم اختلافهما في طريقة الحب.. و لكنها بذكائها استطاعت أن تقنعه أن أسمى ما في الحب هو ترجمته إلى أسرة

صغيرة تضمهما.. و تربطهما ابنة جميلة تأخذ من ملامحهما.. أخبرها أن سمو الحب يكمن في عطائه دون مقابل.. أن يكون على حريته كطائر مغرد.. يفقد كينونته إذا حبس في قفص.. و لكنها الأنثى تحتاج إلى عش تسكن فيه مع أليفها.. و تحيطه بجوارحها.. و يغلق عليهما باب الألفة و المودة و السكينة..

تزوجا.. و عاشا في سعادة و هناء.. و أنجبا دعاء.. فتاة جميلة أخذت من ملامحهما.. و لكن بمضي الأيام.. أخذت الغيرة تأكل من جسدها.. و بهت صوتها.. فلم تعد تقول شيئا.. و تلوذ بنفسها إلى صمتها حتى تحولت بالفعل إلى تمثال صامت..

في كل مرة يرسم فيها امرأة تظن أنها ستفقده.. حتما ستأخذه منها هذه المرأة.. كانت تحتاج إلى أن تثور في وجهه.. و تخبره أن يكف عن تجسيد النساء.. و أن يكتفي بتمثالها و لوحتها.. و لكنها كانت تعلم أن ثورتها لن تجدي معه.. و أنه من الممكن أن يتخلى عن كل شيء من أجل لوحاته.. من أجل نسائه.. كانت تخشى أن تفقده.. و أن يتخلى عنها و تحل محلها امرأة غيرها.. و هي تعتقد تماما بأن كل امرأة تدخل إليه لابد أن تفتن به كما فتنت هي به.. فرأت أنه عليها أن تلتزم الصمت.. و ألا تجادله في شيء.. و تحولت الحياة بينهما إلى مساحة واسعة من السكوت.. لا يلتقيا فيها أبدا إلا صامتين.. في قرارة نفسهما يرغبان بشدة في التحدث.. و لكن كل منهما يخشى من اختلافهما.. فهو لن يتنازل و عليها أن تخضع.. و هي لا تملك إلا الخضوع و الاستسلام خوفا من أن تفقده.. لم يحاولا أن يجدا حلا وسطا.. و بعد أن احتملت كل ذلك يأتي بمنتهى البساطة لينهي حياتهما.. و يخبرها بأنه لم يعد يطيق حياة الصمت.. إنه في حاجة إلى حياة النشوة لتخرج ما عنده من ابداع.. إنه يشعر أنه حبيس قفص يحتاج إلى أن ينطلق منه لينعم بحريته.. و يعود كما السابق ذاك الفنان الذي يتهامس بقدراته النساء من حوله.. يشعر أنه معها تحول إلى رجل عادي يشبه غيره من الرجال و ما اعتاد الأمر.. إن الحياة قصيرة.. و إن العمر لواحد.. و إن موهبته خلقت من أجل الحياة لا من أجل الصمت.. يشعر أنه تراجع كثيرا.. يريد أن يستعيد شخصيته كفنان معجز.. فكان عليه الرحيل.. الرحيل من صمت الجدران المطبق على نفسه.. رحل و تركها هائمة على وجهها..

استقرت رجاء في بيت السيدة.. و عملت معها في محل الحيوانات الأليفة.. ترقب زوجها من بعيد.. تبحث في علاقاته مع النساء عن أي شيء يجعلها تكرهه.. و تخرجه من جوارحها.. و لكنها كانت تزداد اقتناعا بموهبته الخارقة.. في كل لوحة لامرأة يرسمها.. تزداد تعلقا به.. و كأنه من خلال نسائه تضع يدها على السر الأعظم الذي يسكن هذا الفنان.. كانت تزور مرسمه متنكرة لتتابعه.. غيرت من هيئتها بحيث لا يعرفها.. و وضعت على رأسها إيشاربا حريريا.. و اعتادت أن تزوره في مساء يوم الخميس من كل شهر..

حاول أن يكلمها.. ويتعرف على السيدة المجهولة التي تزوره في موعد محدد.. و لكنها كانت تعرض عنه خوفا من أن يلحظها.. حاول أن يحدثها فلا يجد منها إلا صمتا.. فتصور أنها امرأة صماء بكماء.. تخجل من عجزها.. فتركها و شأنها.. و لم يحاول أن يفرض نفسه.. و لكنه اعتاد وجودها و كأنها أصبحت شيئا من المكان.. شعرت هي بهذا الأمر فيه و ارتضته.. ظلت بجواره تعاني من صمتها و لكنها راضية.. اقتنعت بأن غيرتها اطمأنت كثيرا عما كانت عليه.. و اعتبرت نفسها شيئا أساسيا من المرسم.. و عندما تعمدت أن تغيب عنه في ميعادها.. أخبرها بأن كل ما في المكان افتقدها كثيرا.. و أنه شعر بالقلق عليها.. وكان يتمنى أن يعرف لها عنوانا ليطمئن عليها.. فابتسمت له دون أن تلتفت إليه و ذهبت..

منذ رحيلها اقتصرت دنيتها على متابعة حيواناتها الأليفة و مرسم زوجها.. لم تفكر أن تشاهد أية برامج.. أو تخرج للنزهة.. أو تقرأ في كتاب أو مجلة.. و عندما علمت بأن سالم بدأ يعرض للوحاته في مجلة أدبية.. حرصت على شراء هذه المجلة و اقتنائها.. و بدأت تتابع قصص لوحاته.. و انتبهت لقصة لوحته التي تحدث فيها عن ابنته رحاب.. فثارت نفسها و هدأت.. و عاودتها حالة الذهول.. كيف لها أن تنسى ابنتها كل هذا العمر.. و تغفل عن أمرها كل هذا الوقت..؟!

و دخلت في حالة من الذهول.. أحدثت لها انتكاسة.. و عادت بها إلى الماضي المؤلم.. و وقفت أمام مرآتها لا ترى إلا صورة ابنتها دعاء.. و هي تقف بينهما في كل موقف لهما ذاهلة حائرة.. تريد أن تكلمهما و تصرخ فيهما أن يخرجا من صمتهما.. تريد أن تستمع لحوار يشتركان فيه.. فهي في غاية الحنين إلى

حوارهما.. و لكنها تعود خائبة إلى صمتها.. تعودت الصمت الذهول.. و قهرت في نفسها تلك العاطفة الدافئة بين الأب و الأم.. و اكتفت بتمثالين جامدين.. تعيش معهما بصمت يخيم على الحياة التي يحياها الثلاثة..

لم يخرجها من ذهولها إلا هذا المقال الذي كتبه سالم عنها و بجانبه صورة لها.. إنه مازال يتذكرها.. و يبعث إليها برسائله.. ليست رسالة واحدة بل عدة رسالات.. و لكن الصورة واحدة.. صورتها و هي في ذهولها.. كيف أدرك ذهولها..؟! أمازال يفكر في..؟! إذن .. لم تنسه لوحاته و نسائه وجودي.. إنه يبحث عني.. يا ليته يفطن أني بجواره و لم أفارقه لحظة.. ليتني أملك أن أخبره الخبر..

obeikandl.com

أنا و صورتى...

جلسا سويا في ركن المعرض.. يتناولان فنجان قهوة.. أخذ سالم يعرض على منير فكرة اللوحة.. وقد أخبره عن ابنته.. و أنها كانت السبب وراء فكرتها.. و أفصح له عن أمنيته في أن يقرأ المهتمون ما وراء هذه اللوحة من معان..

قال له في حماسة غير عادية وكأنه أوشك على اكتشاف عظيم:

لقد جاءتني فكرة.. سأرسم لوحة لفتاة.. تبدو وهى تفكر.. فتظهر عليها ملامح الشيخوخة.. وتأتي الرغبة في استمرار الحياة لتنازع شيخوختها.. فتبدو فتاة تتفتح.. سأجعل من شعرها طويلا أسودا معقوصا خلفها.. تتطاير خصلات منه على وجهها.. وفي عينيها عمق مع بعض الخمول الذي يظهر حول جفنيها.. و أضع على جبينها بعض الخطوط.. رغم أن وجنتيها تتدفقان حياة..

من ينظر إلى وجهها يرى شحوبا ثم نضارة.. يرى الشيخوخة والصبا في وجه واحد.. ستكون لوحة فنية تحتاج إلى قراءة..

وعده منير بأنه بمجرد أن ينتهي من لوحته سيعرض لها صفحات في مجلة آداب و فنون.. يعرض فيها اللوحة و قراءتها.. بعد حوار بينه وبين سالم حول اللوحة وقصتها.. وقد تمنى سالم على منير أن تكون القصة مبهمة الشخصية.. بمعنى أنها لا تتحدث عن فتاة معينة.. و إنما عن كل فتاة تعجز في حياتها عن إدراك نفسها.. فوعده بأن يكون ذلك..

وبدأ بالفعل سالم في رسم لوحته بإتقان في عدة جلسات.. اصطحب فيها منير.. حيث قرر منير أن يتولى هو بنفسه كتابة الموضوع.. يرى سالم وهو يرسم.. وعندما يخط ملمحا ما بريشته يسأله عنه.. ويتبادلان الرأي.. و يكتب منير في أوراقه.. فقد تعهد بنفسه أن يهتم بموضوع اللوحة.. والكتابة عنها.. وقراءتها..

لتقدم للقارئ لوحة فنية مرسومة ومكتوبة بحس أدبي وفني.. ليدرك القارئ أن الروح التي يحملها الفنان لم تأت عبثا.. وإنما جاءت عن فكر هادف.. و تجربة صادقة..

انتهى منير من كتابة مقاله حول لوحة أنا و صورتي.. و نشره مع اللوحة في مجلة آداب و فنون.. و لم ينس اسم الفنان الذي رسمها.. وكتب تحتها مقالة أدبية فنية بقلمه.. تتحدث عن اللوحة.. يقرأ فيها اللوحة قراءة ذاتية على النحو التالي:

عندما يرسم الفنان لوحة ما.. فإن هذا لا يأتي عبثا.. وإنما يأتي عن رغبة في ترجمة أحاسيسه في ملامح وأشكال.. تضفي عليها ألوانا من شعوره بتلك الحياة التي يجسدها على لوحته.. فتخرج روحا تنطق بأشياء جميلة لمن يدركها.. إنها جواهر يضعها الرسام على أوراقه.. تخبرنا بقيم ومثل تسكن نفس هذا الفنان.. أو ربما تسكن أنفسنا.. وجاءت لتحدثنا بمكنوناته.. وتدعونا إلى التأمل فيها.. وتحليلها بتذوقنا لها.. واحتوائنا لمعانيها.. وتلمسنا ما هو كامن وراءها.. ليخترق جمالها قلوبنا.. ويسكن وحيها في فكرنا.. فينبض العقل روائع القراءات..

وأنا أكتب هذه الكلمات أنظر إلى لوحة مثال في الجمال.. تسمى: أنا وصورتي.. هي لوحة لفنان عبقري.. استطاع ببراعته أن يحكي لنا من خلال ما خطته ريشته صورة المرأة التي تصارع نفسها.. ما بين أملها ويأسها.. وكيف تجلى ذلك على وجهها.. فعندما تنظر إلى الصورة في اللوحة.. تشعر أنها امرأة بائسة.. ثم ينتابك إحساس بأنها ليست كذلك.. بل لديها فرحة ما موجودة على وجنتيها.. أحيانا تسترخلف بأسها.. وأحيانا تطل في لهفة.. وعينان رغم بؤسهما إلا أنهما دامعتان ببسمة تخالج النبض.. ورغم أن شعرها معقوص خلفها.. إلا أن خصلات منه تتطاير على جبينها.. فهي حائرة بين عجزها وحريتها.. هناك خطوط من الاستسلام تعكسها بعض تعاريج وجهها.. كما يمكنك أن ترى تحد يأتي من وجهها.. وكأنها تقاوم استسلامها.. هي صورة لامرأة تحمل بداخلها صراع نفسي.. وتناقض ينعكس على ملامح وجهها في شيء من الجدية.. رغم البسمة العفوية المنطرحة على شفتيها.. إنه حقا إعجاز أن نتغلغل بداخل

النفس الإنسانية.. لنقرأها ونعبر عنها برسمة أو بكلمة.. وما أعقدها!

ورغم ذلك تعطينا الكثير لنفهم.. ونحلل.. لتزداد معرفتنا.. ونبصرها بإيمان ويقين.. لأنها تستحق المعرفة.. والمعرفة لن تأتي إلا بالقراءة في هذه النفس التي لطالما حيرتنا معها.. بغموضها.. بسريرتها الحية في أعماقنا..

حقا إننا نحتاج إلى يد فنان تغوص في سرائرنا لتعلمنا بأشياء كانت مجهولة لدينا رغم أنها ساكنة فينا..

ويظل الصراع قائما في النفس الإنسانية ما بين نوبة عجزها ورغبتها في حريتها.. وتظل هناك رغبة ما جامحة تحلق في عليائنا.. ربما هي أمل منتظر.. ربما هي رجاء مكنون.. أو حتى حلم غائب.. وقد تكون دعاء لا يتوقف عن الحنين.. المهم أنه يشعرنا دائما أننا على قيد الحياة.. ولم تغفلنا أقدارنا كما ينتابنا أحيانا.. فهي غالبا ما ترسل إلينا برسائل غامضة لنبحث فيها.. تحرك فينا فضولنا لأن نكتشف أشياء كانت غائبة عنا.. ولكننا لا نصل إليها إلا بعد شيء من المعاناة.. هذه المعاناة هي سر جلاء غشاوتنا وتجلي بصيرتنا.. فنحن محكومون بكثير من الألم الذي يوقظ انتباهنا.. فلا تسلب إرادتنا منا في ضياع ظننا معه أننا مغلبون على أمرنا.. وتظل حياتنا لوحة من لوحات القدر.. نرسمها بأناملنا.. بريشة فنان.. وعبقرية مبدع.. وإلهام العاطفة.. وجوهر الإحساس.. وعندما تخرج إلى الحياة نتأملها.. فنرى زوايا من عمرنا قد خاب رجاؤها.. وأخرى روت رجاءها بدمع نقي.. فنما حتى عانق عنان السماء..

وقفت هند وماريا أمام لوحة أنا و صورتي.. في حفل أقامه السيد سالم بالتنسيق مع أستاذ منير.. إذ نجحت اللوحة نجاحا باهرا.. و نجحت معها مجلة آداب و فنون.. فكان ينبغي عليهما أن يحتفلا بهذا النجاح الذي حققاه.. و لتكن اللوحة دعوة منهما لحياة أخرى لكل من ظنت أنها قد فقدت حياتها الأولى.. و أن يتعرف الجميع على هذه اللوحة المعجزة.. و يدركوا مدى قيمتها.. و أنها ليست مجرد رتوش لا معنى لها.. و إنما تحمل في طياتها ما يجعلها خالدة.. تؤتي ثمارها كل حين..

و أهم ما حققته هذه اللوحة من إعجاز يشهد لها أنها جمعت كل أبطال الرواية ليلتفوا حولها.. خاصة النساء.. وكأن كل واحدة منهن تقف في مواجهة

مع النفس.. كأنها واقفة أمام مرآتها.. ترى انعكاس سريرتها على ملامح المرأة في اللوحة.. أي إعجاز صنعته اللوحة بأن تتحدث عن أكثر من سيدة في وقت واحد..؟!

لقد خطفت اللوحة فؤاد رجاء عندما وقفت تجاهها تتأملها في كثير من عدم التصديق.. تمتزج ابتسامة شفتيها بدمعتين من عينيها.. ترى في اللوحة ما كانت تراه في مرآتها.. إن اللوحة بمثابة مرآة لها.. تعكس سريرتها.. و لا تملك معها إلا أن تبكي بصوت مسموع.. جعل دعاء تلتفت إلى المرأة ذات الوشاح الأسود لتجهش هي الأخرى ببكاء مسموع.. فقد تعرفت إلى أمها.. و وقفت تتأملها.. تكاد لا تصدق نفسها.. و يهفو إليهما سالم بنظرات ندية.. تبللها دموع الكبرياء مختلطة بدموع الندم..

و على مقربة من اللوحة تقف منى و ضحى في خشوع.. تتأملان اللوحة بكثير من الصمت و الذهول.. تشعران بأن فيها ما يفتقدانه بداخلهما.. تتحسسان اللوحة بجوارحهما.. ربما اهتديا إلى تلك الحاجة الحائرة في نفسيهما.. ربما وجدا طريقهما.. و فتحتا الباب ليعبرا الحياة.. و يبصرا النجاة..

و ها هي نيروز تأتي لترى اللوحة.. مستندة على ذراع ضياء.. تصمت أمام اللوحة.. تشعر برهبة تتملكها.. تنظر إليها بتمعن و كأنها على وشك أن تكتشف سرها.. نعم هي لا ترى إلا بالكاد.. فقد ضعف نظرها و لكنها تشعر بأن شيء ما في اللوحة يخترقها لتقوى بصيرتها.. هذا الشيء أعطاها أملا بأنها قادرة على أن ترى و أن عيناها تتحسن.. إن شيء يعتمل بداخلها.. جعلها تمسك بالكمان و تعزف مقطوعة من إلهام اللوحة.. مقطوعة غاية في الروعة.. و كأنها أنغام آتية من السماء.. أعطتها الأمل بأن تعود إلى حياتها.. و ما أحوجنا للأمل عندما يتملكنا اليأس.. و ضياء ينظر إليها في ذهول.. يكاد لا يصدق أنها عادت ثانية.. لقد عادت نيروز.. ترى ما السر الذي يكمن وراء اللوحة ليمنحها كل هذا؟! يصفق لها و دموع حائرة تتركز في عينيه..

ورحاب تتأملهما من على بعد.. تكتم في صدرها صرخة تكاد تمزقها.. وتحبس بين جفنيها دموعا تخشى أن تجري على وجنتيها.. شعور ما أخبرها بأنه صاحب الرسالة.. الرجل المجهول.. الذي تعلقت به دون أن تراه.. تمنت أن ترسل له

برسالة تخبره أن يأتي إليها.. فعندها له الكثير.. و ها قد أتى مع أخرى.. مع حبيبته التي حكى لها عنها.. ليتركا في قلبها حسرة على مثل هذا الحب المفقود..

و وجدي يقف عند باب المرسم.. يجمع المشاهد كلها في ذاكرته ليخرج منها فلمه.. فقد واتته فكرة رائعة عن فيلم استوحاه بمجرد أن دخل إلى المرسم.. و شاهد هذه المواقف التي تمر أمامه.. و تثير في نفسه حاجة قوية لأن يخرج فيلما سينمائيا بعنوان لست عاجزة..

و منير يجلس إلى بار المرسم.. يتناول فنجان قهوته في هدوئه المعتاد.. يحس الرضا عما قدمه للجمهور من مقالات هادفة.. من شأنها أن تحيي قلوبا و تبعث فيها الأمل.. و كأنه أعطاهم السر الأعظم للحياة و هو الأمل..

و أخذت هند وماريا تتأملان اللوحة.. وكل واحدة منهما تحدث نفسها.. وكأنها ترى ملامحها.. تجسدها صورة المرأة الموجودة في اللوحة:

لله درك من لوحة! كأني أراني في ملامحك.. شيء ما فيك يحكي عني.. بالله عليك أيتها اللوحة .. ألست أنا أنت؟! كأن يد الفنان التي رسمتك تعلم بحالي.. إنه الوجه نفسه.. و الملامح نفسها.. و الإحساس نفسه.. و الحيرة نفسها.. تجسدين ذاك الصراع الذي لطالما عانيته.. واستطاع أن يترك شيئا من العجز على ملامح وجهي.. فجاء الرجاء في الحياة ليحمل لي روحا أخرى.. ترغب في أن تهزم عجزي.. فانعكس أثرها على وجهي.. فأصبحت ملامحه وعاء يحوي بداخله الكثير.. جاءني وقت أحسست فيه بأني امرأة عجوز.. كبرت قبل الأوان.. تحمل هما يفوق تصورها فأعجزها معه.. كنت أنظر إلى نفسي في المرآة.. لأراني إنسانة أخرى غير تلك التي أعرفها.. إنها تشبهني ولكنها تكبرني.. أراها مهمومة.. قد أهدل الحزن أهدابها.. فسقطت على جفنيها في إعياء.. متعبة منهكة من ضياع مبين.. تبصره في مصيرها.. وإذا بطلة بهية تنظر إلي من خلفي.. في ملامح ناضرة.. هي أيضا ملامح تشبهني.. هي تلك المرأة التي كادت أن تفقدني.. وظللت فترة أنثى بوجهين.. وجه عاجز.. ووجه يتوق إلى حريته.. وبدأت علامات تظهر على وجهي.. وعيناي تشخصان كلما حدقت في شيء.. كأنها تقرأ وراء المجهول.. أنظر ولا أرى.. ثم ترتاح عيناي بعد طول عناء.. وكأنها اهتدت إلى ضالتها.. وتبدأ أساريري ترتاح إلى شيء ما.. يجعلني أبتسم ابتسامة باهتة.. تنفرج شيئا

فشيئا.. وكأنها تحضن أملا طال انتظاره.. فتستقبله في لهفة المشتاق.. وتقول له: وا أملاه! لست عاجزة..

obeikandl.com

A

أوراق محطمة.....ص٣
لست عاجزة.....ص٩
إيماني و شقائي.....ص١٥
لقاء بلا موعد.....ص٢٠
خروج آخر للحياة.....ص٢٨
مواجهة غير منتظرة.....ص٣٣
رغبة متمردة.....ص٤١
غيوم في معبد الحياة.....ص٤٩
ومازلت أبحث عن عاطفتي.....ص٥٤
حكمة اليوم.....ص٦٠
رسالة زوجة.....ص٦٩
حياة مقدسة.....ص٧٥
وكم من خروج يعلن عن نفسه.....ص٨٠
جلسة مسائية.....ص٨٥
حديث من القلب.....ص٩١
الزائر الغريب.....ص١٠٠
مأساة عاشق.....ص١١٠
قراءة في لوحة.....ص١٢١
في معبد الفن.....ص١٢٤
لقاء في مقهى.....ص١٣٥
عودة الروح.....ص١٤٩
هي ومرآتها.....ص١٥٩
أنا وصورتي.....ص١٦٦

obeikandi.com